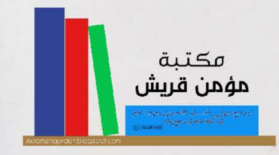
د. محمد حسن دخيل

الدولة الفاطمية

الدور السياسي والحضاري للأسرة الجمالية





الدولة الفاطمية

الدور السياسي والحضاري للأسرة الجمالية

د. محمد حسن دخيل

الدولة الفاطمية

الدور السياسي والحضاري للأسرة الجمالية

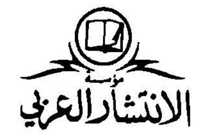


Arab Diffustion Company

الدولة الفاطمية

الدور السياسي والحضاري للأسرة الجمالية

د. محمد حسن دخيل



ص.ب: 113/5752
E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت - لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-614-404-032-4

الطبعة الأولى 2009

الإهداء

إلى والديَّ الكريمين،

وأُخوتي الاعزَّاء،

وأساتذتي الأَفاضل، ومنهم:

المؤرخ السيد حسن الأَمين......

أهدي هذا العمل المتواضع

مشفوعا بخالص محبَّتي

المقدمة وتقييم المصادر والمراجع

لم تأخذ موضوعات «الدولة الفاطمية» ما تستحقه من عناية في دراسات المؤرّخين والباحثين المحدَثين، ولعلَّ سبب ذلك يكمن في ندرة المعطيات المتصلة بأخبار هذه الدولة، رغم دورها المؤثر في حركة التاريخ الإسلامي، وما تركته من آثار فكريَّة وعلميَّة كانت ولا تزال محطَّ جدلٍ ونقاش واسعين، كما أن الخلاف المذهبي والعداء السياسي ذهب بقسم كبير من الوثائق العائدة للعصر الفاطمي، وما تبقى منها تبعثر في بطون الكتب، وهي تمثل وجهة نظرة وحيدة الجانب عموماً، في ما يتصل بالدولة الفاطمية.

إنَّ بعضاً من محطَّات «الدولة الفاطمية» التي ربما لم تتصدر دائرة اهتمام دارسي التاريخ الإسلامي تتعلق بالمرحلة ما قبل الأخيرة من حياة الفاطميين، حيث كانت حافلة بالتطورات والأحداث التي تركت بصماتها الواضحة وغيّرت في مسار الدولة الفاطمية على غير مستوى وصعيد.

وما أثار اهتمامي، وشدَّني إليه فضولي العلمي، مسألة ملتبسة من تاريخ الفاطميين، تتمحور حول دور **الأسرة الجمالية** التي تولَّت الوزارة الفاطمية مدَّة قاربت الستين عاماً، تعاقب على هذا المنصب ثلاثة وزراء من هذه الأسرة، كانت لهم إسهاماتهم في ميادين السياسة والاجتماع والعمران والثقافة، إضافة لدورهم الأساسي وتأثيرهم البالغ في سلسلة التطورات التي شهدتها هذه الدولة خلال فترة حكمهم التي تخللتها علاقات مع مختلف الدول المجاورة.

والجدير ذكره، أن ثمة اختلافاً في وجهات النظر إزاء انجازات الجماليين وأعمالهم في الدولة الفاطمية، وقد جهدتُ في دراستي لهؤلاء محاولاً إلقاء جانب من الضوء على الظروف والاوضاع المحيطة التي رافقت الجماليين وأسهمتْ في بلورة بعض التطورات لدى الفاطميين.

توزعت دراستي على خمسة فصول أساسية، تفرَّعت منها عناوين ثانوية.

وتمحور **الفصل الأول** حول الخلافة والوزارة في عهد الأسرة الجمالية، حيث

كانت هناك اطلالة على مسألة المشروعية الدينية الذي تمسّك بها الفاطميُّون، وأثرتُ كذلك بواعث اختيار الفاطميين لمصر منطلقاً لحركتهم. وعرضت، من جانب آخر، التطور الذي مَرَّ به منصب الوزارة في الإسلام، واقسام الوزارة وأنواعها، ومن ثم بحثتُ في أدوار الجماليين في الوزارة الفاطمية والالقاب التي اختاروها لأنفسهم وأهمية ذلك.

تناولتُ في **الفصل الثاني** سيرة بدر الجمالي، مؤسس الأسرة الجمالية، وناقشتُ فيه دوافع اعتماد الفاطميين على الأرمن الذي ينتمي إليهم بدر. وعرضت لظروف نشأة بدر وملابسات ارتقائه منصب الوزارة الفاطمية والمراحل التي اجتازها وما تخلل ذلك من أحداث هامة. وبحثتُ كذلك في الأوضاع السَّائدة في مصر عشيَّة قدوم بدر الجمالي إليها وعوامل نجاحه في هذا الاطار، وكيفية معالجته للازمات الاقتصادية واهتمامه بالنواحي الإدارية والمالية.

وتعلّق **الفصل الثالث** بالدعوة الفاطمية في ظلِّ الأُسرة الجمالية، وقدمتُ فيه لمحة موجزة عن أصول الإسماعيلية، والدور الذي لعبته هذه الأسرة في مجال الدعوة وبخاصة ما أحدثه الأفضل الجمالي من تغييرات هامة في العقيدة الإسماعيلية وانقسامها، نتيجة ذلك، إلى نزارية ومستعلية، وانتهيتُ إلى معالجة اجراءات الأكمل الجمالي في محاولته الرامية لنقل مذهب الدولة من الإسماعيلية إلى الإمامية الاثني عشرية.

وأثرتُ في **الفصل الرابع** العلاقات الخارجية للدولة الفاطمية أثناء حكم الجماليين، ومدى اسهامهم في تعزيزها وتطويرها على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، حيث أشرتُ إلى العلاقات الثنائية القائمة آنذاك مع كُل من الحجاز واليمن وبلاد الشام والحبشة والنوبة. كما توسعتُ في دراسة علاقة الفاطميين مع الفرنج وحاولتُ تعليل مواقف الأفضل الجمالي تجاه حملات الفرنج، والجدل الذي اثارته في أوساط الباحثين.

وخصَّصتُ **الفصل الخامس** للحديث عن المنجزات الحضاريَّة للفاطميين في عهد الجماليين في المجال العمراني والعلمي والأدبي، اضافة لدورهم في تعزيز النشاط الزراعي والصناعي والتجاري.

لقد حاولتُ جهد استطاعتي خلال دراستي عن الجماليين مقاربة بعض معالم الحقيقة التاريخية ومعايشة الأحداث وتصوير الاتجاهات بحيادية وتجرُّد معتصماً بحبل الموضوعية في الدراسة والتحليل، كما لا يفوتني أن أُشير إلى بعض العوائق والصعوبات التي واجهتني أثناء اعداد هذه الدراسة، يتصل معظمها بعدم توفر دراسة مستقلة حول هذا الموضوع، إضافة لصعوبة الحصول على المصادر حيث كان عليَّ البحث عنها في العديد من المكتبات ومراكز الأبحاث.

وفيما يتعلّق بالمصادر، فإن من بين أهم ما اعتمدتُ عليه منها، مؤلفات تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م). وهو يُعدُّ في طليعة مؤرّخي الديار المصرية لما له من مكانة كبيرة وشهرة واسعة. وتنبع أهمية مصنفاته من كون المصادر التي استقى معلوماته منها لا تزال محجوبة عنا، وتُعتبر بحكم المفقودة.

وللمقريزي العديد من المصنفات التاريخية، استعنت بأغلبها، لصلتها بعصر الفاطميين ولعرضها المسهب لكثير من الموضوعات المتعلقة بدراستي عن الأسرة الجمالية ولموضوعيته في تأريخه للأحداث ذات الصلة بموضوع الدراسة. وكانت لي استفادة واسعة من كتابيه الهامين:

أ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بـ «الخطط المقريزية»، الصادر في القاهرة عن مكتبة مدبولي في جزءين، تحقيق محمد زينهم ومديحة الشرقاوي عام ١٩٨٨، اضافة إلى طبعة بولاق، وهو من أهم الكتب التي تناولت تاريخ مصر وجغرافيتها وحدودها وآثارها وتاريخها السياسي والاقتصادي والفكري ونظم الدولة والمذاهب الدينية الشائعة آنذاك. عرَّف المقريزي في هذا الكتاب تعريفاً مفصَّلاً بكل ما يتصل بالقاهرة، بحيث لم يترك أثراً أو مؤسسة إلا وصفها بدقة متناهية. ويحتلّ تاريخ مصر في عصر الفاطميين ومنشآتهم الدينية والحربية والمدنية التي أُنشئت فيه مساحة كبيرة من الكتاب، وقد أفدت من مواضع عدَّة من كتابه وبخاصة ما يتعلّق بنشأة بدر الجمالي وبعضِ محطات حياته وانجازاته وكيفية تمكنه من القضاء على مناوئيه وخصومه.

ب - اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، من منشورات المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية في القاهرة تحقيق محمد حلمي محمد أحمد

سنة ١٩٩٦م. يتناول الكتاب تاريخ الدولة الفاطمية منذ قيامها في افريقية وحتى سقوطها في مصر، اعتمد فيه المقريزي على معظم المصادر الخاصة بتاريخ هذه الدولة والتي وصلت إلى علمه ووُجدت منها نسخ في وقته.

يعرض المقريزي في «الاتعاظ» تفصيلات هامة عن الخلفاء الفاطميين والأحداث التي رافقتهم والصّراعات التي عايشوها. وقد لجأت إلى هذا المصدر الهام في أماكن عدّة من دراستي عن الجماليين لا سيّما في فترة تولّي الافضل الجمالي أعباء الوزارة الفاطمية وملابسات صراعه مع نزار بن المستنصر.

واتكأت في دراستي على المؤرخ أبي المحاسن جمال الدين يوسف ابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م) الذي عُرف بالشمولية والاحاطة. يعد كتابه «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» من أشهر مصنفاته. وهو يُعنى بالتاريخ السياسي لمصر. تناول ابن تغري بردي في هذا الكتاب تاريخ مصر في العصور الوسطى بدءاً من الفتح العربي سنة ٢٩هـ/ ٦٤٠م حتى عام ٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م. وقد تكلم فيه عن الدول الإسلامية المتعاقبة والحوادث الهامة في كل عصر. أفادني هذا الكتاب بصورة خاصة في اشارته لبعض تطورات الصراع الفاطمي - الافرنجي، ودور الأفضل الجمالي في هذه الحروب ومدى اسهامه في ردّ تلك الهجمات عن بلاد المسلمين. وقد اعتمدتُ خاصة على الجزء الخامس من طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة الصادرة عام ١٩٧٢م.

ومن المصادر التاريخية التي قدمت معلومات مفيدة للدراسة كتاب «نزهة المقلتين في أخبار الدولتين» للقاضي عبد السلام بن الحسن القيسراني المعروف بابن الطوير (ت ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م)، الصادر عن جمعية المستشرقين الالمان، تحقيق ايمن فؤاد سيد، بيروت، عام ١٩٩٢. والمؤلف تقلّب في الخدمة في دواوين الفاطميين ومن ثم الأيوبيين. يتوسع ابن الطوير في تقديم تفاصيل دقيقة عن نظم الحكم ورسوم دار الخلافة الفاطميّة في مصر، اضافة للمواكب الاحتفاليّة للخلفاء الفاطميين وترتيب مجالسهم وأسمطتهم التي كانت تُمدُّ في المناسبات والمواسم المختلفة. استعنت بكتاب «النزهة» في عدّة فصول من هذه الدراسة وخصوصاً الفصل الثاني المتعلّق بنظم الخلافة والوزارة في عهد الأسرة الجمالية.

أما كتاب «الكامل في التاريخ» لعلي بن محمد الشيباني المشهور بابن الأثير (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م)، من منشورات دار صادر، بيروت، عام ١٩٦٧م. فرغم اعتنائه بالتاريخ العام للدولة الإسلامية خلال الستة قرون الأولى لها، فإنه غني بالتفاصيل الهامة عن تاريخ الدولة الفاطمية. ساعدت روايات ابن الأثير على توضيح بعض المسائل المرتبطة بحملات الفرنج على بلاد المشرق والمحاولات التي بذلها الافضل الجمالي لمجابهتهم.

واطّلعت من خلال كتاب «صبح الأعشى في صناعة الانشا» لأبي العباس أحمد القلقشندي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، الصادر بالقاهرة عام ١٩٢٢م، عن دار الكتب المصرية، على مجموعة من النصوص العائدة للعصر الفاطمي، التي ألقت اضواء على جوانب كثيرة من هذا العصر، ولا سيّما في عهوده الأخيرة، وأمدني بمعلومات على قدر كبير من الأهمية عن نظم القصر الفاطمي ورسومه وأدب الكتابة الديوانية في زمن الفاطميين. كما افدت من نصوص الكتاب في دراستي عن الجماليين وبخاصة ما يتعلق منها بعلاقات الفاطميين الخارجية وذلك في الجزء الثالث والخامس من هذه الموسوعة.

واستعنتُ بـ«ذيل تاريخ دمشق» لحمزة بن أسد التميمي الدمشقي المعروف بابن القلانسي، (ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م)، معتمداً على طبعة الآباء اليسوعيين المنشورة في بيروت عام ١٩٠٨. والكتاب مرتب على السنين من غير استقصاء لجميعها، من سنة ٣٦٣هـ/ ٩٧٣م إلى ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م. يقدم الكتاب معلومات وافية عن سياسة الفاطميين في بلاد الشام، استقى مادته من المحفوظات التي توصَّل إليها بحكم وظيفته كرئيس لديوان الانشاء في مدينة دمشق. وكانت لي افادة من هذا الكتاب من خلال ما أورده من علاقات فيما بين الجماليين وحكام دمشق.

ولا يفوتني أن أذكر مؤرخاً اعتمدتُ على كتابه، وهو أبو القاسم علي بن منجب ابن سليمان الشهير بابن الصيرفي، فمما يُذكر عنه أن أباه كان صيرفياً واشتهى هو الكتابة فمهر فيها، واشتغل بكتابة الخراج والجيش مدّة في العصر الفاطمي، ثم استخدمه الأفضل الجمالي في ديوان المكاتبات في سنة ٤٩٥هـ/ ١١٩١م، وبقي يعمل في هذا الديوان نحو نصف قرن من الزمن إلى حين وفاته سنة ٥٤٢هـ/

١١٤٧م. وأبرز مؤلفات ابن الصيرفي «الإشارة إلى من نال الوزارة»، الصادر عن المعهد العلمي الفرنسي في القاهرة، عام ١٩٢٤، تحقيق عبد الله مخلص. يُعدُّ هذا المصدر أول كتاب ألف عن الوزراء المصريين، بدأه بذكر ابن كلس، أول وزراء الفاطميين في مصر وانتهى فيه إلى وزارة المأمون البطائحي (٥١٥-٥١٩هـ/ ١١٢١-١١٢٥م) وزير الخليفة الآمر بأحكام الله الذي أهدى له ابن الصيرفي الكتاب.

وهناك مصدر على جانب من الأهمية، كان عوناً لي في دراستي هو كتاب «أخبار مصر» لتاج الدين محمد بن علي المعروف بابن ميسر (ت ٦٦٧هـ/ ١٢٧٨م)، اعتنى بتصحيحه هنري ماسيه، وصدر عن المعهد العلمي الفرنسي في القاهرة سنة ١٩١٩م. والكتاب تاريخ موضوعي لمصر في عصر الفاطميين، ورغم ان ابن ميسر عاش في عصر الايوبيين والمماليك، فإنه لم يُحاول الاساءة إلى الفاطميين والحطّ من شأنهم لإرضاء الأيوبيين والمماليك. وهذا الكتاب غني بالروايات والإشارات التاريخية التي تُعدُّ مصدراً أساسياً في دراستنا للأُسرة الجمالية.

وجاءت موسوعة «نهاية الارب في فنون الأدب» لشهاب الدين أحمد بن يحيى ابن محمد الكرماني النويري (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م)، الصادرة عن الهيئة المصريَّة العامة للكتاب في القاهرة عام ١٩٩٣م، تحقيق محمد محمد أمين ومحمد حلمي عام ١٩٩٣م، لتتضمن معلومات وافية عن النشاطات الأدبية والثقافية خلال عصر الفاطميين، ومن بينها الحوافز التي وضعها الوزراء الجماليون لتفعيل الحركة الشعرية واعطاء زخم لها وقد استعنت بالجزء الثامن والعشرين من هذه الموسوعة.

أما المراجع، فلجأت إلى العديد منها لمعرفة وجهة نظر أصحابها تجاه سلسلة الحوادث التي عالجتها والمرتبطة بأحوال الأسرة الجمالية، كما أني ناقشت بعض معطياتها. في مقدمة تلك الكتب «الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي» لمؤلفه محمد حمدي المناوي، تعرض الكتاب لمختلف جوانب الدولة الفاطمية ومدى إسهام الوزراء في كلٍّ منها. وكانت لي قراءة في كتاب حسن إبراهيم حسن الموسوم بـ«تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب» الذي تميز بالإحاطة والشمولية، فعرض لسائر القضايا المتصلة بالدولة الفاطمية ولا سيما في فترة حكم الجماليين. وتعرَّض محمد كامل حسين للناحية الأدبيَّة في عصر

الفاطميين بشكل مسهب في كتابه «الحياة الفكرية والأدبية لمصر من الفتح العربي حتى آخر الدولة الفاطمية». كما استعنت بما كتبه أيمن فؤاد سيد في كتابه «الدولة الفاطمية في مصر - تفسير جديد» وقد وجدتُ في كتاباته العمق ومحاولة تعليل الحوادث ما يُنبىء عن إحاطة واسعة بتاريخ الفاطميين. ووجدت في وصف عبد المنعم ماجد لرسوم الفاطميين مادة ثريَّة، ولا سيما في كتابه «نظم الفاطميين ورسومهم في مصر» كما هو الحال في دراسة النظم المالية والاقتصادية للفاطميين في كتاب راشد البراوي «حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين» وللكتاب أهمية خاصة، مستمدة من كون مؤلفه رجل اقتصاد معروف. وحول موضوع الأزمات الاقتصادية التي مرَّت بها مصر وأدَّت لمجيء بدر الجمالي إلى مصر وارتقائه منصب الوزارة الفاطمية، تأتي أهمية ما كتبه أحمد السيد الصاوي في «مجاعات مصر الفاطمية أسباب ونتائج». أما الدراسات التي اهتمت بالعمارة الفاطمية ومن بينها عمارات الجماليين فهي «مساجد القاهرة ومدارسها - العصر الفاطمي» لأحمد فكري، و«الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة» لصالح لمعي مصطفى وغيرها من المراجع التي أغنت الدراسة، بكثير من المعارف التي يبدو أثرها جلياً في ثنايا البحث.

من جهة أخرى، فإنَّ ما بذله الباحثون الأوروبيون من جهد في مجال البحث التاريخي لا ينكر، حيث أسهم العديد من هؤلاء في تقصّي أخبار الدول الإسلامية ومنها الدولة الفاطمية، فأوضحوا جوانب هامة من معالم الحضارة الفاطمية. استعنتُ بآراء بعض من كتب عن الفاطميين حيث كانت لي إطلالة على مقالة W., Madelung في دائرة المعارف الاسلامية، عن الإسماعيلية وتاريخها والمحطات الهامة التي مرت بها. كما توسَّع B., Lewis في مقالٍ قيم منشور في دائرة المعارف الاسلامية، في تناول حياة المستعلي بالله الفاطمي والملابسات التي أدَّت إلى ارتقائه مركز الخلافة الفاطمية، وبحث S., B., Dadoyan في العلاقات الفاطمية الأرمنية على مختلف المستويات في كتابٍ له بعنوان التفاعل الثقافي والسياسي بين الفاطميين والارمن. وصدر في ليدن عام ١٩٩٧. وقد تناول مؤلفه موضوعات تتصل بدراستي عن الجماليين كونهم ينتسبون إلى الأرمن. وكتب مؤخراً Y. Lev دراسة هامة حول أدوار مصر وسوريا أثناء العصر الفاطمي وأبرز المحطات السياسية والتأثيرات المتبادلة بين

الجانبين، وصدر الكتاب في ليدن عام ٢٠٠١ بعنوان «مصر وسوريا في العصر الفاطمي والايوبي، والمملوكي»، وفي الاطار عينه، يُلاحظ أن كتابات G., Wiet تميزت بالاحاطة لبعض جوانب الدولة الفاطمية حيث تناول في مقال بعنوان «الافضل» نُشر في دائرة المعارف الاسلامية بعض مزايا هذا الوزير الفاطمي. كما عرض في مقالٍ آخر بعنوان «الفاطميين» أخبار الفاطميين بصورة عامة نُشر في دائرة المعارف العالمية في فرنسا عام ١٩٩٦. وأما ما يرتبط بحملات الفرنج على المشرق، فقد عالجه S., Runciman في كتابه عن «الحملة الصليبية الأولى» الصادر عن جامعة كامبردج عام ١٩٥١م.



الفصل الأول

الخلافة الفاطمية

و

الوزارة الجمالية

أولًا: الخلافة الفاطمية وأهمية موقع مصر

قامت الدولة الفاطمية على أساس الخلافة الإسلامية[1] في مقابل الخلافة العباسيَّة القائمة، وانطلقت في دعوتها من حقّ مؤسسيها في الخلافة وتولّي زمام الأمور في الدولة الإسلامية.

---

١ - المشروعية الدينية:

كان الفاطميون يسعون لبسط سلطانهم على العالم الإسلامي بأسره، واقامة خلافة يدخل في ظلها الشعوب الإسلامية كافة. وضع الفاطميون هذا الهدف نصب أعينهم منذ عهد أول خليفة لهم في المغرب، ويبدو ذلك واضحاً في كتاب أرسله الخليفة «المهدي» (٢٩٧ - ٣٢٢هـ/ ٩٠٩ - ٩٣٤م) إلى القرامطة جاء فيه:

---

(١) الخلافة لغةً النيابة عن الغير، إما لغيبة المنوب عنه أو لعجزه أو غير ذلك من أسباب.
ويقال لمن ينوب عن غيره الخليفة [لسان العرب، مادة «خلف»]. ج ٧، ص ٦٥، والخلافة في الاصطلاح الفقهي الإسلامي تعني المركز الأوّل في الدولة الإسلامية.
يقول ابن خلدون المتوفى عام ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م معرّفاً الخلافة الإسلامية: «الخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأُخروية والدنيوية الراجعة إليها» [ابن خلدون، المقدمة، ص١٦٦].
لذا، فالخلافة ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها، كونها تمسُّ حياة المسلمين، وهي قطب الإسلام يدور المسلمون جميعاً حول دائرتها، فالخليفة يعالج قضايا المسلمين وشؤونهم ويُطبق عليهم تعاليم السماء.
وقد وضعت شروط وصفات ينبغي أن يتصف بها الخليفة، منها: أن يكون من قريش، سليم الجسم والأعضاء والحواس والعقل، شجاعاً نشيطاً عادلاً، ويتحلّى بالعلم، سديد الرأي يمكنه حماية الإسلام واكتساب طاعة الناس بدعوتهم إلى الدخول في بيعته والانقياد لطاعته، وعليه حفظ الدين، وحماية دار الإسلام، والجهاد والجبايات والعطايا، وأن يخطب باسمه ويُدعى له في صلاة الجمعة.
الماوردي، علي بن محمد، الأحكام السلطانية، دار الفكر، القاهرة، ١٩٥٤، ص٣٣.

«أنا أحلف أيها المؤمنون - بكل ما يحلف به، أن فيما تلقيته - مما أطلعنا الله عليه من غيبه الذي استأثر به، وآثر بعلمه أولياءه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، أنه لا بد وأن تحل ولاتنا (بلاد) بني أمية بالشام ودور بني العباس في العراق، ويكون لنا من الخلفاء مثل ما كان لبني أمية في العدد...»(١).

وقد واجه قيام دولة الفاطميين عقبات جمة، فقد أُنشئت من بين ست دول أو أكثر تحاربها وتخشى عاقبة أمرها، وأسست حقّها على دعوة يتألب الخصوم من حولها على انكارها، واعتمدت في الدعوة على وسائل لم يسبقها إليها سابق ولم يلحقها نظير(٢).

اعتبر الخلفاء الفاطميون أنفسهم أصحاب الحق الشرعيين بارتقاء مركز الخلافة الاسلامي كونهم ينتسبون إلى الرسول محمد ﷺ من ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام. واحاطوا أنفسهم بهالة من التقديس، يبدو ذلك واضحاً من خلال حديث الداعي هبة الله الشيرازي عندما يصف مقابلته الخليفة المستنصر بالله الفاطمي في مجلس الخلافة بالقاهرة فقال: «فلم تقع عيني عليه إلاّ وقد أخذتني الروعة، وغلبتني العبرة، وتمثل في نفسي أنني بين رسول الله وأمير المؤمنين صلى الله عليهما ماثل، وبوجهي إلى وجهيهما مقابل، واجتهدتُ عند وقوعي إلى الأرض ساجداً لوليّ السجود ومستحقه، أن يشفعه لساني بشفاعة حسنة بنطقه... ومكثت بحضرته ساعة لا ينبعث لساني بنطق ولا يهتدي لقول...»(٣). وهناك آداب وأُصول للكلام بحضرة الخليفة يجب مراعاتها، كأن ينتصب المتكلم بين يدي الخليفة قائماً معتدلاً كقيامه في الصلاة، ويرمي ببصره إلى الأرض إجلالاً له واحتراماً، ناظراً إلى الإمام من تحت طرفه، ولا يعبث بيديه، إنّما يرسلهما إرسالاً أو يضع يمينه على شماله تحت صدره، ويلزم الصمت إلى أن يسأله الخليفة عن حاجته. وإذا تكلّم فيجب أن يتكلم

(١) المقريزي، المقفى الكبير، ج٤، ص٢٢٢.

(٢) عباس محمود العقاد، فاطمة الزهراء والفاطميون، المكتبة العصرية، بيروت لا. ت، ص٦٧، من هذه الدول: الخلافة العباسية في بغداد، والخلافة الأموية في قرطبة، والدولة البيزنطية في القسطنطينية، والقرامطة في جنوب العراق والبحرين، والدولة الرسنمية، والسلاجقة.

(٣) سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة، نشره محمد كامل حسين، القاهرة، ١٩٤٩، ص٨٥.

فيما ينبغي له الكلام فيه ما دام الخليفة مستمعاً إليه، فإن أعرض عنه أو قطع كلامه لأمرٍ عرض له أو لغير أمر، فلينصت المتكلم حتى يأذن له الخيلفة في الكلام من جديد لفظاً أو ايماءً أو استفهاماً. . .»[١] وعلى هذا الأساس قامت دولتهم في المغرب، وقد توسَّعت رقعة الخلافة الفاطمية وسيطرت على أجزاء واسعة من العالم الإسلامي، وقد انتشر الدعاة الفاطميون في كل مكان حتى وصلوا إلى بغداد ذاتها، فطُرد الخليفة العباسي منها وخُطب للخليفة المستنصر بالله الفاطمي سنة ٤٥١هـ / ١٠٥٩م، على يد البساسيري[٢] ولو لفترة وجيزة بسبب وصول السلاجقة إلى بغداد وإعادتهم الخليفة القائم بأمر الله العباسي إليها[٣].

٢ - اهمية مصر للفاطميين:

يعلّل الباحثون سبب مجيء الفاطميين إلى مصر لموقعها الجغرافي الفريد بين ثلاث قارات هي: آسيا، أفريقيا، وأوربا، ولارتباطها الوثيق ببلاد الشام، إذ يبدأ الدفاع عن مصر من بلاد الشام، اضافة إلى قربها من بغداد، مركز الخلافة العباسيَّة.

وقد تنبَّه لأهمية هذا الأمر بعض الباحثين، ومنهم المستشرق برنارد لويس الَّذي تحدَّث عن هذه المسألة حيث اعتبر أنَّه بمجيء الفاطميين إلى الحكم في عام ٣٥٨هـ - ٩٦٩م، تضاعفت أهميَّة الدور الذي تؤدّيه مصر في نطاق العالم الإسلامي، بل وتغير كليةً. فلم يكن تحرُّك حكام مصر الجدد مجرَّد طموح شخصي أو أُسري. فقد كانوا يرأسون حركة دينية لم تكن لترتضي أقل من إحداث تحولات أساسية في بعض فروع الاسلام، فرفضوا بصفتهم شيعة إسماعيليين أن يعبروا حتى عن ولائهم

(١) عطية مصطفى مشرفة، نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، لا،ت، ص٥٨.

(٢) هو أبو الحارث أرسلان بن عبد الله البساسيري، نسبة إلى بلدة بفارس يقال لها «بسا». كان مقدم الأتراك ببغداد ومن مماليك بهاء الدولة بن بويه، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣، ص ١٨.

(٣) ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٤٤.

الشكلي للخلفاء العباسيين. ومن ثم كانت الخلافة حقاً لهم، ينتزعونها من العباسيين، كما انتزعها أولاء من الأمويين[١].

وأصبحت مصر، نتيجة ذلك، مركز خلافة جديدة هي الخلافة الفاطمية، فارتقت أهميتها من مجرَّد ولاية تابعة للخلافة الأموية أو العباسية إلى خلافة بسطت سلطانها السياسي في بعض عصورها على شمال أفريقيا وبلاد الشام واليمن وبعض جزر البحر المتوسط ومناطق واسعة أخرى من العالم الإسلامي[٢].

وثمة من يعتبر أنَّ أهميَّة مصر تكمن كذلك في أَنَّ امتلاكها يعني السيطرة على القطرين التابعين لها، وهما: الشام والحجاز، وبحكم الحجاز يكتسب الفاطميون مركزاً دينياً ممتازاً؛ لأنَّ هذه البلاد موطن المقدَّسات الدينية وحاكمها يُعتبر الحاكم الفعلي للدولة الإسلامية، لما لها من صبغة دينيَّة تضفي على القائمين عليها صفة الشرعية والوقار[٣]. وهذا ما كان يسعى إليه الفاطميون دوماً، إذ كانوا يسعون إلى كسب ود حكَّام الحرمين المقدَّسين ويبذلون لهم الأموال والهدايا دون أن يسقطوا من حسابهم أحياناً التهديد باستعمال القوة مع هؤلاء الحكام. فكان استيلاء الفاطميين على مصر، يعني سيطرتهم على هذين البلدين الهامين، وتأسيس نفوذ الفاطميين، السياسي والديني، في ثلاثة من المراكز الإسلامية الكبيرة، وهي: الفسطاط والمدينة ودمشق. يُضاف إلى هذا أن اخضاع الفاطميين لمصر وبلاد الشام سيسهل أمامهم سبل الزحف إلى بغداد، مركز الخلافة العباسية، وفوق ذلك، فإن موقع مصر يجعل منها حاضرة يسهل معها الاتصال بالبلدان التابعة للفاطميين، فمنها يمكن ربط ولايات دولتهم ومهمة الالتقاء بها والاتصال معها بصورة لا يوفرها الحكم من المهدية أو القيروان. لكل ما سبق، قام الفاطميون بعدّة حملات على مصر بغية اخضاعها لنفوذهم.

بدأت حملات الفاطميين على حدود مصر الغربية منذ أيام خليفتهم الأول عبيد

---

(١) برنارد لويس وآخرون، أبحاث الندوة الدَّولية لتاريخ القاهرة، مارس - إبريل ١٩٦٩، وزارة الثقافة، مطبعة دار الكتب، مصر، ١٩٧٠، ص٢٨٩.

(٢) J.H.J, art."EGYPT" Funk and Wagnalls, New Encyclopedia, U.S.A, V9, P.100.

(٣) عبد الله محمد جمال الدين، الدولة الفاطمية، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩١، ص٩٣.

الله المهدي بدءاً من العام ٣٠١هـ / ٩٠٣م، ويُعتبر هذا الغزو فريداً في نوعه؛ لأن مصر كانت دائماً تغزى من الشرق عن طريق غزة ورفح والفرما(١)، ولم يسبق أن فتحت مصر من حدودها الغربية. وبعد فشل هذه الحملة، بسبب صدّ الخلافة العباسية لها بقيادة مؤنس الخادم، قائد الخليفة العباسي المقتدر، قام الفاطميون بارسال ثلاث حملات أُخرىٰ، كانت الحملة الأخيرة أهمها، إذ أخذ الخليفة المعز لدين الله الفاطمي (٣٤١ - ٣٦٥هـ / ٩٥٣ - ٩٧٥م) يعد العدّة لفتح مصر، وأخذ في جمع الأموال الوفيرة لهذا الغرض حتى يُقال انها بلغت أربعة وعشرين مليون دينار، كما قضى سنتين في حفر الآبار واقامة المنازل في الطريق إلى الاسكندرية لينزل فيها الجند أثناء زحفهم إليها، ثم عبَّأ جيوشه، وجعل قيادته في يد جوهر الصقلي، وقد وصف هذا الجيش الكبير شاعر المعز، محمد بن هانىء الاندلسي، في القصيدة التي مطلعها:

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمعُ وقد راعني يومٌ من الحشر أروعُ
غداةَ كأنَّ الأفق سُدَّ بمثله فعاد غروب الشمس من حيث تطلع(٢)

سار الجيش الفاطمي من القيروان في ١٤ ربيع الأول ٣٥٨هـ / ٥ شباط ٩٦٩م، تصحبه بعض القطع البحرية، فاستولى على الاسكندرية من دون مقاومة تُذكر، وأعلن جوهر عفواً عاماً، وطمأن الناس الى سلامة أرواحهم وممتلكاتهم، وحريتهم الدينية(٣)، ولم يكن ذلك وعداً متسرعاً من القائد المنتصر، ولكنه كان منسجماً مع خط السياسة العام الذي انتهجته الدولة آنذاك.

واستمرَّت الخلافة الفاطمية في مصر منذ قدوم الخليفة المعزّ لدين الله إليها سنة

---

(١) الفرما من حصون مصر القديمة تقع على شاطىء البحر المتوسط، وعلى حدود مصر الشرقية يقول أبو صالح الأرمني في سبب تسميتها، أن فرعون موسى بناها في السنة الثامنة والعشرين من مولد موسى، وعندما بناها كانت في الأصل بحيرة ماء فغرق فيها مركب، ورمى البحر منهم ألف رجل ولهذا سميت ألف رما (الفرما). تاريخ أبو صالح، ص ٧١.

(٢) السيوطي، حسن المحاضرة، ج١، ص٥٩٩، أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة العربية، بيروت، ص٢٤٩.

(٣) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص١٥١؛ محمد عبد الحي شعبان، الدولة العباسية، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨١، ص٢٣٤.

٣٦٢هـ / ٩٧٢م إلى حين سقوطها على يد صلاح الدين إثر وفاة العاضد لدين الله، الخليفة الرابع عشر، عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م.

ما يجدر ذكره، أنَّ ارتباطاً وثيقاً قد نشأ بين الفاطميين ومصر؛ ربما يكون سبب ذلك كون الخلافة الفاطمية قد عاشت في مصر مدَّة نافت على المئتي سنة (٣٥٨ - ٥٦٧هـ / ٩٦٩ - ١١٧١م) أي أنَّ الجزء الأكبر من حياتها قضته في مصر، بينما لم تستمر في المغرب أكثر من خمسة وستين عاماً فقط (٢٩٧ - ٣٥٨هـ /٩٠٩ - ٩٦٩م)، لهذا اقترن اسمها دائماً بمصر، رغم قيامها في المغرب. ثمة أمر آخر، وهو أن الدولة الفاطمية اندمجت في الحياة المصرية وشاركت فيها بجليل الأعمال التي كان لها أثر كبير في إبراز دور مصر ومشاركتها لمختلف الطوائف في أعيادهم القومية والدينية(١).

يُشار إلى أنّه قد برز دور الأسرة الجمالية في الدولة الفاطمية أثناء عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله، وتحديداً عشية قدوم أمير الجيوش بدر الجمالي إلى مصر ٤٦٧هـ / ١٠٧٤م، ليستمر في ظل خلافة المستعلي بالله (٤٨٧ - ٤٩٥هـ / ١٠٩٤ - ١١٠١م) ومن بعده الآمر بأحكام الله (٤٩٥ - ٥٢٤هـ / ١١٠١ - ١١٣٠م) وانتهاءً بالحافظ لدين الله (٥٢٦ - ٥٤٤هـ / ١١٣٢ - ١١٤٩م).



(١) إبراهيم أيوب، التاريخ الفاطمي السياسي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ١٩٩٧، ص٣٩؛ أحمد مختار العبادي، مرجع سابق، ص٢٦١.

ثانياً: منصب الوزارة في العصر الفاطمي

١ - الوزارة في الإسلام: نشأتها وتطورها:

يرى بعض المؤرّخين أنَّ لفظة «وزير» عربية، وهي تُطلق على مشاور الملك ومعاونه، وقد ذُكرت في القرآن الكريم في قول النبي موسى مخاطباً ربّه: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾﴾[١] [٢] ووردت أيضاً في بعض أحاديث الرسول ﷺ كما في قوله: «من ولي منكم عملاً فأراد به خيراً جعل له وزيراً صالحاً إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه»[٣]. وفي حديث آخر يقول النبي فيه: «نِعْمَ وزير الإيمان العلم، ونِعْمَ وزير العلم الحلم، ونِعْمَ وزير الحلم الرفق، ونِعْمَ وزير الرفق اللين»[٤] وروي في المعنى نفسه أيضاً حديث: «إذا أراد الله بالأمير خيراً قيَّض له وزيراً صالحاً إن نسي ذكره، وإن نوى خيراً أعانه، وإن أراد شراً كفّه»[٥].

في عهد الرسول محمد، كان إلى جانبه الصحابة الذين كان يستشيرهم في

(١) يجدر بنا أن نورد - اتماماً للفائدة - اشتقاق لفظة «الوزارة»، حيث قيل فيها ثلاثة أقوال:
الأول: إن معنى الوزارة مأخوذ من الوزر وهو الثقل، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾ [الشرح: ٢-٣]؛ لأنه يحمل عن الملك أو الخليفة أثقاله.
الثاني: أنه مشتق من الأزر وهو الظهر والقوة؛ بمعنى أنَّ الخليفة يعتمد في تصريف الأمور على الوزير، كما أنَّ الجسم يجد قوّته ونشاطه في الظهر.
الثالث: إنه مشتق من الوزر وهو الملجأ والمعتصم، ومنه قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [القيامة: ١١] أي لا ملجأ، سُمّي بذلك لأنَّ الرعية يلجأون إليه في حوائجهم ولأن الخليفة أو السلطان، يلجأ، كذلك إلى رأي وزيره وتدبيره ومعونته عند نزول الشدائد ووقوع النوائب.

(٢) سورة طه، الآيات: ٢٩-٣١.

(٣) المتقي الهندي، كنز العمال، الحديث رقم ١٤٩٣٣.

(٤) الريشهري، ميزان الحكمة، ج٨، ص٣٥١٦.

(٥) أبو داود، سنن أبي داود، باب اتخاذ الوزير، ج١، ص٢٧٠.

الأمور العامة، دون أن يفيد ذلك تبلور مفهوم الوزارة آنذاك. وهكذا كان الأمر في ظل الخلفاء الراشدين والحكام الأمويين[(١)] ولعل الوزارة بمفهومها الوظيفي وسلطاتها المحددة أول ما استعملت في العصر العباسي من أجل إشراك الفرس في السلطة لتحقيق التوازن فيما بين الطرفين، حيث كان تعيين الوزير من الفرس إلى جانب الخليفة رمز هذه المشاركة الفعلية[(٢)]

ولخطورة منصب الوزير وآثاره على الصُّعد كافة، هناك شروط لمن يتولى هذا المنصب، وهذا ما أشار اليه المسعودي بقوله: «إنه لم تكن الخلفاء والملوك تستوزر إلاَّ الكامل من كُتَّابها، والأمين العفيف من خاصتها، والناصح الصدوق من رجالها، ومن تأمنه على أسرارها وأموالها، وتثق بحزمه، وفضل رأيه، وصحة تدبيره في أمورها»[(٣)].

ومن جانب آخر، نلاحظ أنه كثيراً ما كان يقع التصادم والاختلاف بين سلطات الخليفة من نحوٍ وسلطات الوزير من نحوٍ آخر. والسبب في ذلك يعود إلى أنَّ الوزارة غير قادرة على أن تجمع بيدها أمور الدين والدنيا، لذا فهي مقترنة بالخلافة، وهناك سبب آخر يرجع إلى عدم تحديد صلاحيات الوزير بشكل دقيق، بينما كانت صلاحيات الخليفة تشمل مختلف جوانب السياسة والإدارة في الدولة الإسلامية. ويعلّل بعض الباحثين ذلك بالقول إن أساس الصلاحيات في نظام الخلافة الإسلامي ينبغي أن تكون في قبضة الخليفة؛ لأنه ينوب عن الرسول في اجرائها، إلى جانب أن الخلافة كانت تعد أساساً للنظام الإسلامي، ومظهراً لسيادة الشريعة الإسلامية وسلطانها. أما صلاحيات الوزير فهي عرضية تنبع من الثقة التي يوليها الخليفة لوزيره، وتخضع للعلاقة فيما بينهما، واطمئنان الخليفة إلى حُسن سيرة وزيره واخلاصه واستقامة منهجه ورعايته لمصالح رعيته[(٤)].

---

(١) المسعودي، التنبيه والاشراف، مكتبة الخياط، بيروت، ١٩٦٥، ص ٢٩٤.

(٢) توفيق سلطان اليوزبكي، الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية، جامعة الموصل، العراق، ١٩٧٦، ص ٩٥.

(٣) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص٢٩٤.

(٤) صبحي الصالح، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٩٨٢، ص٢٩٧.

وسبب آخر، في هذا الاطار، يعود إلى أن الخليفة يعتبر وزيره مجرَّد مساعد له أو أمين أسراره، بينما يُحاول الوزير الاستئثار بجميع الصلاحيات والسَّيطرة على مختلف أجهزة الدولة.

وإذا دققنا في تاريخ العصر العباسي الأول وجدناه مسرحاً لتصادم مستمر بين الخلفاء ووزرائهم لتلك الأسباب التي ذكرناها، لذلك كثرت المشكلات وكثر عزل الوزراء.

ومع ذلك، فقد اختلفت سلطات الوزير باختلاف شخصيات الخلفاء والوزراء. ففي ظلِّ خليفة قوي مثل أبي جعفر المنصور، حيث كان ينظر في كل صغيرة وكبيرة، كان طبيعياً أن يكون كيان الوزير ضئيلاً معه ولم تكن للوزارة طائلة - كما يقول صاحب الفخري - لاستبداده واستغنائه برأيه، وكانت هيبته تصغر لها هيبة الوزراء، حيث كان هؤلاء لا يزالون منه على وجلٍ وخوف[1]، بينما كان كثير من الوزراء على جانب كبير من النفوذ تفوق سلطاتهم أحياناً سلطات الخليفة نفسه كما حصل مع يحيى البرمكي الذي عُهد إليه الاشراف على الدواوين كافة سوى ديوان الخاتم، ثم أضيف إليه هذا الديوان سنة ١٧١هـ / ٧٨٧م، وتتضح أهمية ذلك من قول الطبري: «فاجتمعت له الوزارتان»[2] وقد استعان يحيى بولديه الفضل وجعفر - بموافقة الرشيد - اللذين حضيا بامتيازات لدى الخلافة العباسية.

---

٢ - أنواع الوزارة في الإسلام:

اعتاد مؤرّخو النظم أن يقسّموا الوزارة في الدول الإسلامية - بما فيها الدولة الفاطمية - إلى قسمين: وزارة تنفيذ، ووزارة تفويض. سنحاول معرفة خصائص كُلٍّ منهما، ومن ثمّ نقاط اتّفاقهما واختلافهما وشروط من يتولاّهما.

يشغل الوزير عادةً أرفع منصب بعد الخليفة، وله حقّ الإشراف على الدواوين

(١) ابن الطقطقى، الفخري، ص١٢٥.
(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج١٠، ص٥١.

والمرافق الهامة في الدولة ويتدخّل بتعيين الأمراء وقواد الجيش، لكن تختلف صلاحيات الوزير تبعاً لنوع الوزارة التي يشغلها، ناهيك عن الظروف السائدة(١).

أ - وزارة التنفيذ:

إنَّ وزير التنفيذ هو منفذ لأوامر الخليفة، إذ لا يعتمد أمراً ولا يبرمه إلاَّ بعد استشارته. يلعب دور الوسيط بين الرعية والخليفة، معتمداً على رأي الأخير وتدبيره «يؤدّي عندما أمر، وينفذ ما ذكر، ويمضي ما حكم، ويخبر بتقليد الولاة، وتجهيز الجيوش، ويعرض عليه ما ورد من مهم. . . فهو مُعيَّن على تنفيذ الأمور وليس بوالٍ عليها ولا متقلّد لها»(٢)، ولا تحتاج وزارة التنفيذ إلى تقليد، وإنما يُراعى فيها مجرد الاذن، ولا يُعتبر في المؤهل لها الحرية ولا العلم؛ لأن ليس له الانفراد بالقرار، ويقتصر دوره على أمرين: أحدهما: أن يؤدّي إلى الخليفة، والثاني: أن يؤدي عنه.

إنَّ وزارة التنفيذ، وهي الرتبة التي تشتمل على جميع أمور الدولة، تؤهّل متولّيها - وكثيراً ما يكون من أرباب الأقلام - للمكان الثاني بعد الخليفة. فكان لهذا الأخير الإشراف على جميع تصرُّفات الوزير، الذي لم يكن له أيّ سلطة على أرباب المناصب الكبار من قبل الخليفة، ولذلك فهو وزير ذو سلطة محدودة(٣). وغالباً ما يكون ذلك في عهود الخلفاء العظام ذوي الشخصيات القويَّة الذين لا يسمحون للوزير أن يطغى أو أن يستبد بالحكم دونهم.

وقد وضع الفقهاء المسلمون سبعة شروط وصفات، يتوجب مراعاتها في وزارة التنفيذ، وهي: **أولاً**: الامانة، لكي لا يجور فيما قد اؤتمن عليه ولا يغش فيما قد استنصح فيه. ثانياً: صدق اللهجة، لأجل أن يوثق بخبره فيما يؤدّيه ويُبلّغه. ثالثاً: قلة الطمع، علَّة ذلك أن لا يرتشي فيما يلي من الاحكام إذا عُرضت عليه. رابعاً: أن لا يكون بينه وبين الناس عداوة وشحناء؛ لأن العداوة تصدّ عن التعاطف والتعاون.

---

(١) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص ٢٥.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) عبد المنعم ماجد، نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٣، ط٢، ج١، ص٨١.

خامساً: قوة الذاكرة؛ لأنَّ جزءاً من دوره ينصرف إلى أن يؤدّي إلى الخليفة وعنه، وهذا ما يفرض عليه أن يكون متذكراً واعياً. سادساً: الذكاء والفطنة. سابعاً: أن لا يكون من أهل الأهواء؛ لأن ذلك يخرجه من الحق إلى الباطل(١).

ويعزو الفقهاء اختصاص وزارة التنفيذ إلى ثلاثة مبادىء أساسيَّة اقتصرت عليها، فالمبدأ الأول منها هو السفارة بين الملك وأهل مملكته؛ لأن الملك معظَّم بالحجاب، مُصان عن المباشرة بالخطاب، لذا فاقتضى الأمر أن يختص بوزير ينفذ رغباته. وثاني مبادئها أن يمدّ الملك برأيه ومشورته ولا يألو جهداً في مخض النصيحة له. وثالثها أن يكون للملك بمثابة العين الناظرة، والاذن السامعة يؤدّي عنه وله(٢).

ب - وزارة التفويض:

يُقصد بوزارة التفويض أن يستوزر الخليفة من يفوض إليه تدبير الأمور برأيه ويمضيها على اجتهاده. يستفيد الوزير بهذه الولاية ببسط يده ونفاد حكمه وصلاحيته في التصرُّف بأحوال الدولة بما يقتضيه نظره واجتهاده. وتنعقد وزارة التفويض بقول الخليفة الإمام أو الملك لمن يندبه لهذا المنصب: «قلّدتك وزارتي والنيابة عنّي في جميع ما إليَّ من ولاية الرعية» فيجيبه بقوله: «قبلت وتقلَّدت»(٣). وكثيراً ما يجري تبنّي هذا النمط من الوزارة عند فترات ضعف الخلفاء بسبب الظروف المحيطة بهم أو لكونهم صغار السنّ، لذلك فإن وزير التفويض يجمع بين كفايتي السيف والقلم، وتصبح شؤون الدولة كلها بيده، والخليفة يكون عندها مغلوباً على أمره. ويشترط في تقلّد وزارة التفويض الإيمان، العلم، العدالة، الكفاية، سلامة الحواس والأعضاء(٤). ويجوز لهذا الوزير أن يحكم بنفسه، وأن يقلّد الحكام، وأن ينظر في

---

(١) أبو يعلى، الأحكام السلطانية، تصحيح محمد حامد الفقي، القاهرة، ١٩٧٤، ص٢٥ و٢٦.

(٢) الماوردي، قوانين الوزارة وسياسة الملك، تحقيق رضوان السيد، دار الطليعة، بيروت، ط٢، ١٩٩٣، ص١٣٧.

(٣) الثعالبي، تحفة الوزراء، تحقيق أسعد أبو دية، دار البشير، عمان، ط١، ١٩٩٤، ص٥٣.

(٤) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص ٢٨.

المظالم. كما يحق له تولّي الجهاد بنفسه وأن يقلّد من يتولاّه. وهناك من يعتبر أنّ صلاحيات وزير التفويض تشمل جميع صلاحيات الخليفة ما خلا ثلاثة أمور:

أحدها: ولاية العهد، إذ أن للإمام أن يعهد إلى من يراه وليس ذلك للوزير.

ثانيهما: إن للإمام أن يستعفي الأمة من الإمامة، وليس ذلك للوزير.

وثالثهما: إن للإمام أن يعزل من قلّده الوزير، وليس للوزير أن يعزل من قلّده الإمام[(١)].

ج - بين وزارتي التنفيذ والتفويض:

يُسجّل، هنا، بعض موارد التباين والاختلاف بين كلا الوزارتين، حيث ترد فروقات بينهما تبرز وترجّح مكانة وزارة التفويض، نظراً لما اختصت به من مميّزات فاقت مثيلتها. تبعاً لذلك، يجوز لوزير التفويض مباشرة الحكم والنظر في المظالم، كما أنه يجوز له أن يستبد بتقليد الولاة، ويحق له الإنفراد بتسيير الجيوش، يُضاف أن له جواز التصرُّف بأموال بيت المال يقبض ما يستحق له ويدفع ما يجب فيه، وليس لوزير التنفيذ مباشرة أيّ حق من تلك الحقوق.

واشتُرط في وزارة التفويض شروط أربعة لا يجب توافرها في وزارة التنفيذ، وهي: الإسلام، الحرية، العلم بأحكام الشريعة، والمعرفة بأمور الحرب والخراج[(٢)]، إلى كثير من عناصر الاختلاف بينهما.

بقي أن نذكر أن الوزارة في النصف الأول من العصر الفاطمي في مصر كانت وزارة تنفيذ، بينما كانت في النصف الثاني وزارة تفويض، حيث كان وزراء العهد الأول من الحكم الفاطمي من أرباب الأقلام، أما وزراء العهد الثاني منذ بدء تولي بدر الجمالي الوزارة عام ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م، فكانوا جميعاً من أرباب السيوف، أي من رجال الجيش[(٣)]. وإذا كان من المسلَّم به اعتبار الشدة والأزمة الاقتصادية التي

---

(١) الماوردي، الاحكام، ص٢٥؛ أبو يعلى؛ الاحكام، ص١٤.

(٢) ابن جماعة، تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، نُشر في مجلة Islamica ١٩٣٤ نشره Hans Kolfer، العدد ٣٤٩، ص٣٦٦.

(٣) ابن منجب الصيرفي، الاشارة، ص ٢١.

تعرَّضت لها مصر قبل مجيء بدر الجمالي سبباً مباشراً في تحوّل الوزارة من تنفيذ إلى تفويض، فإنه لا ينبغي التقليل من شأن التغيرات التي حدثت في اطار وزارة التنفيذ نفسها، حيث كان بعض وزراء التنفيذ، قبل الشدة، قد مارسوا مهامَّ أوسع من مهامهم الممنوحة لهم بموجب هذه الوزارة كما حصل مع الجرجرائي(١) الذي ولّي الوزارة للظاهر في سنة ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م، وقد وزّر نحو ثمانية عشر عاماً (٤٣٦هـ/ ١٠٤٥م).

فوزارة التفويض هي أَعمُّ نظراً، وأنفذ أمراً. وهذه الوزارة هي الاستيلاء على التدبير، والعقد، والحل، والتقليد، والعزل. فأما العقد فيشتمل على شرطين: تنفيذ وإقدام، والحل يحتوي على شرطين: دفاع وحذر، فصار كل من الحل والعقد هنا أحد شرطي هذه الوزارة، واشتملا على أربعة شروط: تنفيذ، ودفاع، واقدام، وحذر...(٢)

---

٣ - الوزارة الفاطمية والأسرة الجمالية:

أشير، بدايةً، إلى أنَّ الفاطميين لم يعرفوا نظام الوزارة في المرحلة الافريقية، وحتى بعد انتقالهم إلى مصر فإن الخليفة المعزّ لم يتخذ له وزيراً؛ لكنَّه أوجد ما أُطلق عليه «الوساطة»، ومن يتولاها يُسمَّى «الوسيط»؛ لأنه يتوسّط بين الخليفة ورعيته، والقرار الأخير يعود إلى الخليفة نفسه.

ويحدثنا المقريزي أن «الوساطة» كانت تصحب غالباً بما يُسمّى «السفارة» لتدل على رتبة من يقوم بتنفيذ رغبات الخليفة(٣) وربما يرجع سبب استعمال مثل هاتين المفردتين، إلى رغبة الخليفة في تحقيق أغراض سياسية؛ فقد كان الخليفة القوي، يفضل في أوائل عهد الدولة في مصر، الإبقاء على كل سلطته والاستئثار بكل صلاحياته، فكان يعتمد بالتالي على «وسيط» وليس على «وزير».

---

(١) ابن منجب الصيرفي، الإشارة، ص٣٥؛ ابن خلدون، المقدمة، ص١٢٥؛ الصاوي، مجاعات مصر، ص٨٤؛ المناوي، الوزارة والوزراء، ص٣٥.
(٢) الماوردي، الأحكام، ص ٣٠.
(٣) المقريزي، الخطط، ج١، ص٤٣٩.

ظلَّ الوضع على ذلك طوال عهد المعزّ، إذ لم يُعن أول خلفاء الفاطميين بمصر بوظيفة الوزارة، أما ابنه العزيز (٣٦٥ - ٣٨٦هـ / ٩٧٥ - ٩٩٦م) فقد أخذ يتنازل عن سلطانه شيئاً فشيئاً لأحد خلصائه، يعقوب بن كلس، حتى أسند إليه مهمة الوزارة، ولقبه بـ«الوزير الأجل» في رمضان ٣٦٨هـ /٩٩٦م[١]. وكان ذلك مبدأ ظهور هذا اللقب في الدولة الفاطمية[٢]. وقد ازداد نفوذ ابن كلس حتى خلع عليه ورسم له في المحرم سنة ٣٧٣هـ / ٩٨٣م. وسمح له بمخالفة العرف والتشبه بالخليفة، فبُدىء باسمه في الكتب النافذة منه وقد استكثر من المماليك إلى أن بلغ عددهم أربعة آلاف غلام، صاروا أصل الطائفة الوزيرية التي نُسبت إليه[٣]. على أنه من المرجح أن طغيان سلطة الوزير ابن كلس قد قوبلت بحذر في أوساط الفاطميين حيث عمدوا بعد موته سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠م، إلى إلغاء وظيفة الوزارة. وتحوَّلت إلى ما يسمّى «الوساطة» خوفاً من ازدياد نفوذ الوزراء. ففي أوائل عهد الحاكم (٣٨٦ - ٤١١هـ / ٩٩٦ - ١٠٢١م) عزل عيسى بن نسطورس، وكان نصرانياً، وتقلّد الحسن بن عمار «الوساطة» وتلقب بـ«أمين الدولة» في ٣ شوال ٣٨٦هـ /٩٩٦م، وقد حابى الكتاميين؛ لأنه زعيمهم وقتئذٍ[٤]، وفي رمضان من غام ٣٨٧هـ /٩٩٧م، تولى «الوساطة» برجوان، أستاذ الحاكم ومستشاره، وقد ظل في منصبه إلى أن أمر بقتله الخليفة في شهر ربيع الثاني سنة ٣٩٠هـ / ٩٩٩م، فحلَّ محله الحسين بن جوهر وكان يُلقب بـ«الرئيس»[٥]، وقد تقلّد عدد كبير من الوزراء في ظل خلافة المستنصر حتى قيل انه ربما تولى الوزارة بعضهم ليوم واحد.

يُستنتج ممّا سبق أنَّ طغيان شخصيات الخلفاء الفاطميين الأوائل وتدبيرهم أمور

(١) ابن خلدون، العبر، ج٤، ص٥٥.
(٢) ابن الصيرفي، الإشارة إلى من نال الوزارة، ص٤٩ ؛ M.Canard, artÁ "Fatimides" EI2, PP.857,858.
(٣) ابن الصيرفي، المصدر نفسه، ص٣٣.
(٤) ابن الصيرفي، المصدر نفسه، ص٢٢.
(٥) المقريزي، الخطط، ج ٢، ص ٤٥، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ص٢٦٢؛ يُذكر في هذا المجال أن الخليفة الحاكم قد تولى في عهده ثلاثة عشر وزيراً، وقد قتل تسعة منهم، انظر: ماجد، نظم الفاطميين، ص٤٨.

الدولة بأنفسهم حجب إمكانية ممارسة صلاحيات بارزة للرجل الثاني في الدولة، وربّما استُغني عن خدماته وأدار الخليفة شؤون الدولة من خلال الكتّاب والموظفين. لذا كانت الوزارة، نتيجة ذلك، وزارة تنفيذ، يرجع من يتقلّدها إلى أمر الخليفة ونهيه، ويتوقف بقاؤه في مركزه على تمتعه برضى الخليفة وثقته.

حصلت تغييرات هامة في نظم الوزارة الفاطمية عندما تولاًها بدر الجمالي عام ٤٦٦هـ /١٠٧٣م، ليبتدىء به عصر الوزراء العظام، وزراء السيوف، ووزراء التفويض بعد أن كانوا وزراء تنفيذ، ليصبح بالتالي السلطان الفعلي منذ ذلك الوقت في أيدي الوزراء، ويتوارى الخلفاء في الظلال[1]، وكانت تجري احتفالات بتوليتهم بالغة الروعة والفخامة.

وصف المؤرِّخون إجراءات تولّي بدر الجمالي سدَّة الوزارة والمظاهر التي رافقتها، فبعد أن خرج الخليفة المستنصر من حجرات قصره إلى الايوان، وهو القاعة ذات الأعمدة، حيث أُقيمت حفلة تولية بدر، بحضور كبار المسؤولين وأعيان الدولة إلى جانب الدعاة والقضاة، كما حضرها ولدا بدر أبو الحسن علي الأوحد - الذي ثار على أبيه - وأبو القاسم شاهنشاه، وقدَّم الخليفة إلى بدر سجلاً، لم يكتب مثله من قبل، وهو يدعو الله ويضرع إليه في إبقائه لدولته سنداً قوياً وحصناً منيعاً، وبدت سلطة بدر الواسعة فيما ورد في سجلّه الذي جاء فيه «وقد قلَّدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره، وناط بك النظر فيما وراء سريره»[2].

وبلغ أكثر من ذلك عندما أشاد به المستنصر، واعتبره بمثابة والده الإمام الظاهر، كما أنه كان بالنسبة لأُمّ المستنصر كوالدها، بل كان «قلب أمير المؤمنين وناظره وعيناه وباتره»[3].

ومن جملة ما تغيّر بقدوم بدر الجمالي إلى مصر زيّ الوزراء، إذ كان للوزير الفاطمي، علامات خاصة تميزه عن غيره من موظفي الدولة، تُمنح له في مناسبة

(١) تأكيداً على هذا المعنى اطلقت بعض المصادر التاريخية على بدر الجمالي لقب «أمير مصر» ابن الجوزي، المنتظم، ج٩، ص١٦.
(٢) السجلات المستنصرية، سجل رقم ٥٨، ص١٩٢.
(٣) المصدر نفسه، سجل رقم ٦٣، ص٢٥٠.

تعيينه؛ وتسمى: «خلع الوزير»؛ وهي عبارة عن ملابس وأشياء أخرى. فكان الوزير ينفرد بلبس زيّ خاص يسمى: (دُراعة)، وهو ثوب قصير، مشقوق من أمام، إلى قريب القلب، مُحلى بعرى وأزرار، قد تكون من ذهب مشبك، أو من لؤلؤ. كذلك، كان يضع على رأسه، عمامة ذات لفات عديدة (طبقات)، ينزل طرفها ليدور حول الحنك، وكان يتقلد بالسيف أيضاً[(١)].

ولكن منذ عهد بدر، أصبح زيّ وزير التفويض يتفق وسلطاته الجديدة. فكان يُخلع عليه إضافة إلى زيّ وزير التنفيذ، رداء صلب (الطيلسان المقوَّر)، وهو من زيّ قاضي القضاة. وكان بدر وابنه الأفضل قد تقلّدا بالسيف مع الطيلسان المقور، ولعل ذلك إشارة إلى أن الوزير أصبح كبير أرباب السيف والقلم، ولم يخلع على أحدٍ من الوزراء بعدهما حتى وُلّي الصالح طلائع بن رزيك، فجعل في خلعته السيف والطيلسان المقور.

وأصبحت طريقة لف العمامة تتفق مع المنصب الجديد، فسمح له بترك «ذؤابة» عمامته مرخاة على ظهره، إشارة إلى أنه كبير أرباب السيوف. وجعل له أيضاً العقد الجوهر عوضاً عن الطوق، الذي كان يلبسه الوزراء من قبل[(٢)].

وكان يُحمل إلى الوزير في حفلة تعيينه، دواة محلاة بالذهب، وهي من علامات الوزارة، كما هي أيضاً من علامات الخليفة وبعض أرباب المناصب، ترمز إلى سلطة الوزير الإدارية. وكان لها حاجب برسمها يحملها في الأعياد الرسمية، وفي مجالس الوزراء[(٣)].

ومنصب الوزير يُحاط برسوم عديدة، لمكانته الخطيرة في الدولة. فكان الوزير يستلم كل شهر راتباً يبلغ خمسة آلاف دينار - وهو أكبر راتب في الدولة - ومقررات عينية وكسوات، في أوقات معلومة. كذلك كان يُصرف لأفراد أسرته، رواتب نقدية وعينية وكسوات. وكان للوزير حاشية من الخدم والحرس والحجّاب، يحيطون به في المواكب العامة. وقد كان من رسوم مواكبه أيضاً، التي تصحبه في جميع

---

(١) المقريزي، الخطط، ج١، ص٤٤٠.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٥٠٧.

تنقلاته، الطبل والبوق والبنود. كذلك كان له مكانة الشرف بين الحاضرين، في حفلات القصر الرسمية، فهو وحده له حق الجلوس على (مخدة)، توضع بجوار الخليفة؛ أما بقية أرباب الوظائف وأعيان الدولة، فإنهم يبقون وقوفاً في أماكنهم المقررة[١].

أصبح لبدر مقر خاص يحكم منه عرف بدار الوزارة الكبرى، ولم يزل يسكنه وزراء التفويض بعده حتى سقوط الدولة؛ فكان يشمل عدة قاعات، منها: قاعة البحر، وقاعة السر، وقاعة البستان. وقبل بدر كان الوزراء يعقدون مجلسهم في دار بُنيت للوزارة، أنشأها الوزير يعقوب ابن كلس في عهد العزيز، وهي التي عرفت في وزارة بدر بدار الديباج؛ لأنها تحولت إلى مصنع للحرير «الديباج»[٢].

وقد شارك وزراء التفويض، منذ ذلك الحين، الخلفاء الفاطميين شارات الخلافة، وهي الخطبة والسكة والطراز. فكان يخطب للوزراء بألقابهم منذ بدر الجمالي، إذ ورد في سجل بعثه المستنصر إلى أبي الحسن أحمد بن علي، حاكمه في اليمن، يأمره بالدعاء لأمير الجيوش بدر بعد الخليفة وأن يشفع ذلك بالدعاء للأفضل، وذلك بعد أن عمَّ الدعاء لهما على «فروق المنابر العلوية المستنصرية بالقاهرة المعزية المحروسة وسائر البلدان والأعمال، قريبها وبعيدها في أيام الجمع والاعياد»[٣].

إذاً، زادت أهمية الوزارة وعظم تأثيرها، وشملت جميع نواحي الدولة، وصار من يتولآها «صاحب الحل والعقد وإليه الحكم في الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتَّاب وسائر الرعية»[٤].

وإذا كان للوزراء - سواء أرباب الأقلام أو السيوف - الرأي الأول في اختيار رؤساء الدواوين، رغم أن سجل التعيين كان يخرج باسم الخليفة، فإنه منذ وزارة بدر الجمالي، أصبح ينص في السجل على أن الوزير هو الذي قام بترشيح صاحب

---

(١) أبو شامة، الروضتين، ج١، ص١٥٧؛ ماجد، نظم الفاطميين ورسومهم، ص٩٢.
(٢) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص٤٣.
(٣) السجلات المستنصرية، ص٨٥، سجل بتاريخ ٧ محرم ٤٧٩هـ.
(٤) المقريزي، الخطط، ج١، ص٤٤.

السجل لوظيفته، بل إن وزراء السيف كانوا في بعض الأحيان يصدرون السجلات، بأسمائهم مباشرة، ويبدو أن ذلك كان يحدث في الأوقات التي يكون للوزير فيها السيطرة التامة على الدولة[١].

لم يختلف الأمر كثيراً فيما يتعلّق بتعيين الولاة سواء داخل مصر أو خارجها. فقد كان الخليفة هو الذي يعين الولاة من العناصر المعروفة بالولاء للدولة الفاطمية كالمغاربة، ثم أصبحت سلطة تعيين الولاة لوزراء التفويض، وبالتالي كان ينص في سجل التعيين أن الترشيح كان بمعرفة الوزير ورأيه، وصدرت بعض السجلات عن الوزراء مباشرة، وتركزت بذلك سلطة تعيين الولاة وعزلهم بأيدي وزراء السيف. ومن أهم أعباء منصب وزير التفويض ابتداءً من وزارة بدر الجمالي كان النظر في عيار دار الضرب لضبط ما يُضرب من الدنانير[٢].

يُمكننا أن ندرك، من خلال ما عرضناه من تنامي نفوذ الوزراء الجماليين، واستحواذهم على مقدّرات الحكم، الوضع الذي وصله الخلفاء الفاطميون الذين سُلبت إرادتهم وحيل بينهم وبين تنفيذ مشيئتهم. وإذا كان المستنصر هو الذي قرّر بنفسه استدعاء بدر الجمالي، فلعلّ ذلك كان آخر ما اتخذه هو وخلفاؤه من بعده من قرارات هامة أو مارسوه من سلطات واسعة. واستمرت صلاحيات وزراء العصر الفاطمي الثاني بالتوسع وحتّى أن مقتل آخر الوزراء الجماليين الأكمل (٢٠ محرم ٥٢٥هـ / ٢٥ كانون الأول ١١٣٠م) لم يضع حدّاً لسيطرة وزراء التفويض على الدولة، فلقد استمر الأمر على ما هو عليه مع أبي الفتح يانس الأرمني، ومن ثم مع الصالح طلائع بن رزيك وغيرهم.



(١) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص ٣٤.

(٢) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص٣٥؛ الصاوي، مجاعات مصر، ص٩٦؛ المناوي، الوزارة والوزراء، ص٤٤.

ثالثاً: ألقاب وزراء الأُسرة الجمالية

١ - ألقاب بدر الجمالي، مؤسس الأُسرة الجمالية:

اختصّ كل ملك ووزير من ملوك الإسلام ووزرائهم بلقب، وقد اختلفت تلك الألقاب باختلاف المكان والزمان. ففي بلاد المشرق، كان افتتاح تلقيب ملوكهم بالإضافة إلى الدولة، كما جرى مع بني حمدان، ملوك حلب، فتلقب الحسن بن حمدان بـ«ناصر الدولة» وتلقب أخوه علي بـ«سيف الدولة»، وعلى هذا سار بنو بويه. أما في بلاد المغرب، فقد دار الأمر بين التلقيب بألقاب الخلافة أو الاقتصار على اسمه أو كنيته، إلى أن غلب يوسف بن تاشفين في أوائل دولة المرابطين على بلاد المغرب والاندلس، ودان بطاعة الخلافة العباسية ببغداد، فتلقب بـ«أمير المسلمين» خضوعاً عن أن يتلقب بـ«أمير المؤمنين» الذي هو من خصائص الخلافة[١].

أما في مصر، فمضى الأمر فيها على نوَّاب الخلفاء منذ الفتح الإسلامي وإلى انقراض الدولة الاخشيدية، ولم يتلقب أحد منهم بلقب من الألقاب الملوكية. إلى أن كانت دولة الفاطميين، وقد تلقب أربابها بألقاب الخلفاء.

وما يُلاحظ على ألقاب الوزراء في الدولة الفاطمية وجود ظاهرتين، الأولى: الإكثار من الألقاب. والثانية: العناية بترتيبها.

الجدير ذكره، أن ألقاب وزراء التنفيذ ونعوتهم في العصر الفاطمي الأول كانت أقرب إلى النعوت المعنوية والفخرية، إذ أن بعضهم كمنصور بن عبدون تلقب بالكافي وزرعة بن نسطورس بالشافي وأخوه صاعد بالأمين الظهير.

يتمثل التطور الذي حَدَثَ في ألقاب الوزراء الجماليين، أنه كان يتلقب وزير التنفيذ في العصر الفاطمي الأول بـ«الوزير» تصحبه كما وَرَدَ في سجلٍّ تولية

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٤٨٧.

الجرجرائي[1] لفظة «الأجل»، لكن بعد استتباب الأمور لبدر الجمالي لُقِّب بـ «السيّد الأجل» وهو اللقب الذي توارثه من بعده وزراء العهد الثاني من أرباب السيوف حتى نهاية الفاطميين، فلقب «الوزير» إذاً لم يعد متداولاً، واستعيض عنه بلقب «السيد»، وبقيت كلمة «الأجل» نعتاً للقب الجديد «السيد».

ويُلاحظ، في زمن الخلافة الفاطمية، أن للألقاب رسوماً وتقاليد خاصة، من أهمها: كتب التنويه، حيث جرت العادة أن ينعم باللقب بكتاب صادر من ديوان الخلافة يحمل تعابير مناسبة، ولا شك في أنَّ منح الالقاب كان من أعلى مظاهر التكريم. ومن رسوم التلقيب كذلك قراءة سجلّ التلقيب علانيةً أمام القصر تارةً، وفوق المنابر تارةً أُخرى.

وهنا يجب التفريق بين التعيين والتلقيب، فكثيراً ما كان يجري إسناد الوظيفة قبل منح اللقب، وهذا ما حَدَثَ مع بدر الجمالي الذي دخل مصر في ربيع الآخر من عام ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م، ولم تقر ألقابه وأدعيته إلاَّ بعد إخماده الثورات والحركات المناوئة له، وقد يفسر ذلك بأن منح الالقاب لموظف جديد كان يعتبر أحياناً بمثابة تثبيته في وظيفته.

أقرَّ الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ألقاب وزيره بدر الجمالي في سجلاَّت عدّة، وهو من المؤشرات الهامة على الوضع القائم آنذاك، إذ يُمكننا استخلاص مدى الصَّلاحيات الواسعة الممنوحة لبدر على غير صعيد ومستوى من خلال ذلك، وممَّا ورد في ألقاب بدر الجمالي على لسان الخليفة الفاطمي المستنصر بالله: «إنَّ

---

(١) أبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي، من جرجرايا قرية في العراق، خَدَمَ في دواوين الفاطميين في عهد الحاكم بأمر الله والظاهر والمستنصر. أُسند إليه سنة ٤١٨هـ / ١٠٢٨م، منصب الوزارة بعد حظر هذه الوظيفة بوفاة الوزير ابن كلس عام ٣٨٠هـ، وقد حفظ لنا ابن القلانسي سجل توليته، وقد جاء فيه: «رأى أمير المؤمنين، وبالله توفيقه، أن يستكفيك أمر وزارته وينزلك أعلى منازل الاصطفاء بخاص أثرته، ويرفعك على جميع الاكفاء بتام تكرمته، وينوّه باسمك تنويهاً لم يكن لأحدٍ قبلك من الظهراء في دولته فسمَّاك «الوزير» لمؤازرتك له على حمل الاعباء، ووكّد هذا الاسم بـ «الأجل» لأنك أجلُّ الوزراء» ابن القلانسي، ص٨١. توفي عام ٤٣٦هـ / ١٠٤٥م. للمزيد راجع: ابن الصيرفي، الإشارة، ص٣٥ - ٣٦.

السيّد، الأجلّ، سيف الإسلام، ناصر الإمام، أبا النجم بدراً المستنصري، وهو الفرد في هذا الزمان، الناظر بنور الإيمان، الشاهد بفضائله على كل إنسان كل لسان»(١).

ولما كانت سلطة بدر الجمالي قد امتدَّت تبعاً لذلك إلى الولايات الخاضعة لنفوذ الخلافة الفاطمية، لذلك رأى المستنصر بالله أن يبعث إلى القائمين بأمر الدعوة الفاطمية في بلاد اليمن يخبرهم بتقلّد بدر الجمالي زمام دعوته، فأرسل إلى السيدة الحرة خطاباً أشاد فيه بذكر هذا الوزير، وقال: «فهو خليفتنا وباب دعوتنا، الحال منَّا محلاً لم يحله أحد قبله، القائم من أمورنا مقام الأساس لمشكلات الالتباس، وهو عليك شفيق، ولمصالح حالكم في كل طريق...» وختم خطابه بقوله: «فاعلمي ذلك وسارعي إليه إن شاء الله».

ثم بعث إلى المكرم الصليحي في اليمن كتاباً في ٢٩ ذي القعدة سنة ٤٧٠هـ، تضمن وصفاً للمركز السامي الذي تقلده بدر الجمالي في دولته والخدمات العظيمة التي أداها له باعتباره إماماً، وكيف وطد نفوذ خلافته، وأشار في كتابه أيضاً إلى الانجازات التي تحقَّقت على يديه، بعد أن أصاب الخلافة الفاطميَّة ما أصابها من ضعفٍ وفوضى وتدهور في أوضاعها الاقتصادية والاجتماعيَّة والأمنية، وما قام به بدر الجمالي من أعمالٍ أدَّت بالمستنصر بالله أن يُعلي مكانه ويُبرز دوره.

ثم طلب المستنصر بالله من المكرم في ختام كتابه أن يطيع أوامر بدر وإرشاداته، وأن يرجع إليه فيما يعترضه من مشكلات وصعوبات، ليجد الحلول لديه، ويسهّل له ما صعب من أُمور الحكم والإدارة عليه(٢).

حاز بدر الجمالي على ألقاب أخرى، كان منها «كافل قضاة المسلمين» في إشارة إلى كونه صاحب الحقّ في الاشراف على القضاء والسلطة القضائية. يُشار، في هذا الصدد، إلى أن تعيين قاضي القضاة يتم من قبل السلطة العُليا، فالخليفة هو الذي يفوض هذا المنصب إلى شخص يحمل هذا اللقب. ولكن منذ تولي بدر

(١) السجلات المستنصرية، سجل رقم ٣٤.

(٢) عبد المنعم ماجد، نظم الفاطميين، ص١٤٢.

الجمالي الوزارة، أصبح القضاء مندرجاً في عموم منصب وزراء التفويض، الذين كانوا بدورهم يقلّدون بأنفسهم في القضاء من يقوم به[١]. وقد أوضح ابن ميسر أن قضاء القضاة فُوِّض في شعبان سنة ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م، إلى أمير الجيوش[٢]، ثم يستدرك بعض المؤرخين على ذلك بقولهم يجب أن لا نظن أنَّ بدراً كان يقوم بنفسه بأداء عمل القاضي، وإنما «جعل القاضي والداعي نائبين عنه ومقلَّدين من قبله»[٣].

وأكثر ما اشتهر بدر الجمالي بلقب «أمير الجيوش» باعتباره المسيطر على الجيش، وقد كان يُكتفى أحياناً بذكر لقبه هذا في بعض النقوش من دون ذكر اسمه، كمثل مسجد الجيوشي، وأُطلق عليه هذا اللقب أيضاً في نصٍّ تعمير بتاريخ شهر صفر سنة ٤٧٠هـ في مسجد ابن طولون وفي نص تعمير ثانٍ في شهر ربيع الأول من العام نفسه في مسجد إسنا، وفي نصّ انشاء مؤرخ بشهر رجب من عام ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م في جامع مقياس الروضة. وكذلك النسبة إلى لقب «أمير الجيوش» فالمقصود به وحده، ومن أمثلة ذلك: دار أمير الجيوش وسوق أمير الجيوش، ونسبت إليه المماليك الجيوشية، ودار الجيوشية، وبساتين الجيوشية، وجبل الجيوشي[٤] والطائفة الجيوشية، وهي طائفة من المشاة السودانيين وترجع أصولهم إلى الحملة التي شنَّها بدر الجمالي ضد طوائف السودان في صعيد مصر. فقد قطع هذه الحملة هجوم السلاجقة على حدود مصر الشرقية، ويبدو أن بدراً الجمالي توصَّل إلى نوع من التسوية مع السودان بقدر ما يُحاربون معه السلاجقة، وقد ميّزوا أنفسهم في هذه الحرب وأصبحوا يُعرفون بـ«الجيوشية» نسبةً إليه[٥].

وبقي هذا اللقب معمولاً به لدى وزراء الدولة الفاطمية الذين خلفوا بدراً، وإن

---

(١) ابن الفرات، تاريخ، ج٤، ص١٣٧.

(٢) ابن ميسر، أخبار مصر، ص٤٥.

(٣) Wiet (G), Matériaux pour un corpus Inscriptionum Arabicarum, Égypte, II.P516-518.

(٤) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص٦٩١.

(٥) المقريزي، الخطط، ج٢، ص٣٥؛ يُشار إلى أن لبدر الجمالي ألقاباً أُخرى اعتُمدت أثناء توليه ولاية دمشق، وهي: تاج الأمراء، المظفر، مقدم الجيوش، شرف الملك، عدَّة الإمام، ثقة الدولة. ابن القلانسي، ذيل، ص٩١ - ٩٢.

كان قد تلقب أسد الدين شيركوه - وزير العاضد آخر خلفاء الفاطميين - بـ«سلطان الجيوش» فإن ذلك يعود لسيطرته على جيوش الخليفة الفاطمي وجيوش نور الدين، أمير حلب ودمشق.

---

٢ - ألقاب «الأفضل» الجمالي واعتماد مبدأ وراثة منصب الوزارة:

يذكر المؤرخون انَّ بدراً الجمالي كان يُعدُّ ابنه «الأفضل» لكي يخلفه في منصبه من بعده وذلك منذ سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م، كما ورد في السجل رقم ٢٧ من السجلات المستنصرية، ويبدو ذلك أيضاً من خلال الكتابة التاريخية التي ذكرها المقريزي والتي تفيد مشاركة الأفضل لأبيه عام ٤٨٢هـ / ١٠٨٩م، في الترميم الذي قام به بدر الجمالي في هذه السنة لمشهد السيدة نفيسة(١). ويستنيبه عندما كان يخرج من القاهرة، كما أنه كان يدرِّبه على شؤون الحكم والسلطة وكان يصدر أوامره بأن يُدعى له على المنابر بعد الدعاء للخليفة ولأمير الجيوش.

ومهما يكن من أمر، فإنَّ أية معارضة للأفضل الجمالي لم تظهر إلاَّ من أحد المقرَّبين من أبيه وهو أرمني ويسمَّى «لاوون». وكان رفيقاً لبدر الجمالي، وعلى صلة وطيدة به، وقد ظهر عنه طموحه بالوزارة، ولكنه لم ينجح في مسعاه، وقتله الأفضل(٢).

وهنا نعثر على مبدأ خطير وضعه بدر الجمالي، وهو وراثة منصب الوزارة، إذ لم تجر العادة بذلك قبله، واعتبر بعض المؤرّخين أنَّ هذه الخطوة من بدر الجمالي تُعدُّ سيئة تعادل جميع حسناته التي عملها وأنقذ بها الدولة الفاطمية من الانهيار.

وهذه أَوَّل حادثة من نوعها في العصر الفاطمي وهي أن تُصبح الوزارة شبه وراثية وأن يعهد بها الوزير القائم بها لابنه يتولاًّها من بعد وفاته، ولعل ذلك عائد إلى الصلاحيات الواسعة الممنوحة لوزير التفويض، أمير الجيوش، بدر الجمالي آنذاك.

---

(١) المقريزي، الخطط، ج٢، ص٤٤٢ السخاوي، تحفة الأحباب، ص١٣٥.
(٢) عارف تامر، تاريخ الإسماعيلية، رياض الريس، لندن، ١٩٩١، ط١، ص٢٢٣.

ومن الملاحظ أن «الأفضل شاهنشاه» بن بدر الجمالي بقي في منصب الوزارة مدّة طويلة نافت على الثمانية والعشرين عاماً، وقد تولّى الأمر في العشر الأخير من شهر ربيع الأول عام ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م، وحلَّ محل أبيه وحاز السلطة كلها، وذلك قبل وفاة والده، الذي كان قد مرض وانفلج لكبر سنّه، وقد كتب المستنصر بالله له سجلاً بتقليده منصب وزارة التفويض، والنظر في سائر أمور الدولة وقضاياها(١). وقد استبدَّ بالسلطان دون الخليفة حتى «لم يكن للخليفة المستعلي معه أمر ولا نهي ولا نفوذ كلمة»(٢) ومن مظاهر هذا الطغيان استكثاره من الألقاب والنعوت؛ الأمر الذي آلم الخليفة وارتضاه على مضضٍ، وفي عهده استحدثت عادة اتخاذ النعوت الشخصية على مثال نعوت الخلفاء، وسرى استعمالها بعد ذلك، فلقب شاهنشاه نفسه بـ«الأفضل» ومحمد بن فاتك البطائحي بـ«المأمون»، وأبو علي أحمد بن الأفضل بـ«الأكمل» وهكذا(٣).

ومن القاب أبي القاسم، كما ذكرنا، «الأفضل»: وهي مفردة مشتقة من أفعل التفضيل من الفضل بمعنى الزيادة، والمراد الزيادة في الفضيلة، وكان يغلب استعمال هذا اللقب عند العلويين في الدولة الفاطمية. وعلى الرغم من أنَّ هذا اللقب كان في منشئه نعتاً شخصياً لأبي القاسم شاهنشاه فقد أصبح لقباً عاماً على من خلفه في إمرة الجيوش(٤).

ومن ألقاب الأفضل كذلك لقب شاهنشاه، وهو لقب فارسي مختص بملك الملوك عند الفرس، وذلك تمييزاً له عن لقب «شاه» فقط، وهو الملك(٥).

وهذا اللقب يُنبئنا عمَّا وصل إليه الأفضل من نفوذ وسلطة واسعين جداً، حيث

---

(١) السخاوي، تحفة الأحباب، ص١٣٥.
(٢) المقريزي، الخطط، ج١، ص٣٥٧.
(٣) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٩٢.
(٤) حسن الباشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، الدار الفنية، القاهرة، ١٩٨٩، ص١٦٤.
(٥) دخل هذا اللقب في الإسلام كلقب فخري منذ الدولة العباسية، وذلك لاتخاذ هذه الدولة الكثير من التقاليد الفارسية، ونظراً لتشجيعها للفرس الذين صار لهم في عصرها نفوذ كبير.

لم يعد تكفيه الألقاب المتداولة، بل كان يحبذ أن يُخاطب بـ«ملك الملوك». ولا شك في أن إكثار الأفضل الجمالي من الألقاب، وحريته في الاختيار، يعدّ دليلاً واضحاً على استضعافه لشأن الخلفاء.

ومن القابه أيضاً: المؤيد، مجد الملك، عز الدولة، غياث المسلمين، صفوة أمير المؤمنين، ذو الفضائل، أبو القاسم شاهنشاه، الأجل، الأفضل، سيف الإمام، جلال الإسلام، شرف الأنام، ناصر الدين، خليل أمير المؤمنين، السيد، الأجل، الأفضل، أمير الجيوش، كافل قضاة المسلمين، هادي دعاة المؤمنين[١].

٣ - ألقاب الأكمل بن الأفضل الجمالي وتهاوي نفوذ الأسرة الجمالية:

أشار المؤرّخون إلى بعض مزايا الوزير أبي علي أحمد بن الأفضل الجمالي، فنعتوه بأوصاف تفيد المهابة والقوة، ومن بين ما قالوه إنه كان شهماً شجاعاً، عالي الهمة كأبيه الأفضل وجدّه بدر الجمالي[٢]. وقد بلغ من ازدياد سلطة هذا الوزير أن أُضيف إلى ألقابه ألقاب تدل على ذلك، ومن بين الألقاب التي أمر الخطباء أن يخطبوا له بها، وكان قد كتبها لهم هي: «السيّد الأفضل الأجلّ، سيّد مماليك أرباب الدول، والمحامي عن حَوزة الدين، وناشر جناح العدل على المسلمين الأقربين والأبعدين، ناصر إمام الحق في حالتَيْ غيبته وحضوره، والقائم بنصرته بماضي سيفه وصائب رأيه وتدبيره، أمين الله على عباده، وهادي القُضاة إلى اتّباع شرع الحقّ واعتماده، ومُرشد دُعاة المؤمنين بواضح بيانه وإرشاده، مولى النعم، ورافع الجور عن الأمم، ومالك فضيلتَي السيف والقلم، أبو عليّ أحمد بن السيّد الأجلّ الأفضل، شاهنشاه أمير الجيوش»[٣].

تشي ألقاب أحمد بن الأفضل الجمالي، آنفة الذكر، بدلالات هامة عن الأوضاع السائدة آنذاك في الدولة الفاطمية، وعلى مدى اتساع سلطة الوزراء من

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٨٧.
(٢) الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج ٢، ص ٤٢٨.
(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٦٧٢.

جهة ثانية، ولهذا عُرف العصر الفاطمي الثاني عند المؤرخين بعصر الوزراء، وتأييداً لسلطانهم بُنيت لهم دار خاصة في القاهرة بالقرب من قصر الخليفة، يمارس الوزير فيها شؤون الحكم عُرفت باسم «دار الوزارة الكبرى». وتقع شمال القاهرة، بجوار باب النصر. وكان مجلس الوزير في طريقة عقده لا يقلُّ بذخاً وعظمة من مجلس الخليفة نفسه.

ومن الملاحظ أنَّ اغتيال أبي علي أحمد بن الأفضل الجماليّ، في ١٦ محرَّم سنة ٥٢٦هـ / ١١٣١م، قد وضع حداً لسلطة الجماليين ولم يعد يذكر لهم دور، وبالتالي أصاب الوزارة الفاطمية إثر ذلك ما أصابها من ضعف ووهنٍ، إلى أن تولّى الوزارة الملك الصالح بن رزيك فأعاد للوزارة الفاطمية هيبتها واستقرارها.

إضافة إلى ما تقدَّم، برز عدد من أفراد الأُسرة الجمالية، كانت لهم إسهاماتهم في الدولة الفاطميَّة إلى جانب ألقابهم التي سنحاول عرض ما وجدناه منها:

أ - **ألقاب الأوحد علي بن بدر الجمالي**: لُقّب بـ: مظفر الدولة، شرف الملك، ناصر الدين، عمدة المؤمنين، ذي الرياستين. وقد اشتهر بالأوحد(١). كان بدر الجمالي قد ولاّه الاسكندريَّة في عام ٤٧٧هـ، لكنه ثار على أبيه وتمرد عليه، فأرسل إليه أبوه أبا الفرج المغربي ليردعه، فلم يلتفت إليه، كما لم تنفع معه وساطة أخيه الأصغر الأفضل. عندها توجَّه إليه بدر بنفسه على رأس عساكر عظيمة، ووقعت الحرب بين الطرفين، كانت نتيجتها هزيمة الاسكندرانيين والقبض على امرائهم وعلى الأوحد، وقد اختلفت الأقوال في كيفية قتل بدر لابنه الأوحد(٢). قيل في ذلك انه بعد إلقاء القبض عليه واعتقاله، جعل بدر الجمالي في رجلي ولده الحديد، فأقام سنة ونصفاً، ثم قطع عنه القوت والماء خمسة أيام، وعمل على خنقه، وقيل انه أغرقه حياً(٣).

ب - **ألقاب جعفر بن بدر الجمالي**: كان قد جعله الأفضل الجمالي، حين ولي

---

(١) السجلات المستنصرية، سجل رقم ٥٩، ص ١٩٥.
(٢) عبد المنعم ماجد، المستنصر بالله، ص١٨٢.
(٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج٩، ص١٦.

الوزارة، يلي العلامة عنه. وقد كُنّي بأبي محمد، ونُعت بـ : «الأجل»، «المظفَّر»، «سيف الإمام»، «جلال الإسلام»، «شرف الأنام»، «ناصر الدين»، «خليل أمير المؤمنين». توفي ليلة الخميس في السابع من جمادى الأولى سنة خمسمائة وأربع عشرة هجرية[١].

ج - **حسين بن الأفضل الجمالي**: ما وجدنا من أخباره يفيد أنَّ أباه كان قد بعثه على رأس جيشٍ كبير بلغ خمسة آلاف جندي من المصريين والسودان فضلاً عن الفرسان العرب وذلك لطرد الفرنج من الشام عام ١١٠٥م، وكان لقبه سناء الملك[٢].



(١) المقريزي، الخطط، ج٢، ص٤٨.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص٢٢٨ - ٢٢٩.

بعض الاستنتاجات

يستفاد مما تقدم انَّ فترات الاستقرار السياسي للدولة الفاطمية في عهد الجماليين تمثلت إلى حد بعيد بمدى استمرار الوزير في منصبه، وبخاصة في عهد كل من بدر الجمالي، وابنه الأفضل حيث عرفت مصر الفاطمية استقراراً اقتصادياً في ظلِّ أيامهما استردّ اقتصادها أنفاسه حتى صارت مصر مقصداً للتجار لأمانها واستقرارها. وبعد مقتل الأفضل نال الناس من الظلم والجور ما لا يُعبَّر عنه. فجاؤوا إلى باب الخليفة الفاطمي الآمر، ولعنوا الأفضل وسبّوه أقبح سبّ، فخرج إليهم الخدم متسائلين عن السبب في سبّهم للأفضل وهو كان قد أحسن إليهم وعدل فيهم، فقالوا: إنّه عدل وتصدَّق وحسنت آثاره، ففارقنا بلادنا حُبَّاً لجواره، وأقمنا في بلده، فحصل بعده هذا الظلم، فهو السبب في خروجنا عن أوطاننا واستقرارنا ببلده[1].

على صعيد آخر، نرى أنَّ الجماليين كانوا يسعون دوماً لتقليص نفوذ الخلفاء وتقوية نفوذهم على حسابهم، وقد كان بإمكانهم اعلان أنفسهم خلفاء فيما لو كانوا قرشيين مثلاً، ولم يكن من مصلحتهم آنذاك إلغاء الخلافة الفاطمية، فاستعاضوا عن ذلك بالسيطرة على الخلفاء والتضييق عليهم، لتصبح أُسرة «الجمالي» أشبه بعائلة ملكية ولنا بعض الشواهد على ذلك من خلال سيرة الجماليين التي يبدو منها سيطرتهم على مختلف مظاهر الدولة ومراكز النفوذ فيها، فقد ذكر المقريزي أنه لم يكن للمستعلي سيرة فتُذكر فإن الأفضل كان يدبر أمر الدولة تدبير سلطنة وملك، لا تدبير وزارة[2].

وهذا ما يُورده الحافظ الذهبي في كتابه «تاريخ الاسلام» تعقيباً على مصرع الأكمل بن الافضل الجمالي عام ٥٢٦ هـ / ١١٣١ م، عندما يصفه بـ «صاحب مصر

(١) النويري، نهاية الإرب، ج٢٨، ص٢٨٠.
(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٢٧.

وسلطانها الملك الأكمل ابو علي»[١]، وقد علّق ابن تغري بردي على لفظة «الملك» التي أوردها الذهبي، قائلاً: «الحقّ ما نعته الذهبي، فإن أحمد هذا ووالده وجدّه كانوا هم أصحاب مصر والخلفاء معهم كانوا تحت الحجر والضيق... وإنما كان يُطلق عليهم الوزراء لكون العادة كانت جرت بأن الملك للخليفة لا لغيره، وهم بلا مدافعة كانوا أعظم من سلاطين زماننا هذا»[٢].

وطبقاً لما هو سائد في العلاقة الجدلية القائمة بين الخليفة ووزيره، وبالتالي تحدّد قوّة نفوذ أي منهما أو ضعفه. فإنَّ هذه المرحلة التي تناولناها بالدراسة من حياة الدولة الفاطمية في ظل الأسرة الجمالية كانت بمعظمها فترات ضعف الخلفاء وسيطرة الوزراء الأقوياء.

وثمة أمر، يجدر التنبُّه له، وهو أن إكثار الوزراء الجماليين من الألقاب، وحرّيتهم في اختيار ألقابهم، واعتداءهم على حقوق الخلفاء الرسميَّة في ذلك يعتبر دليلاً على استضعافهم لشأن الخلفاء.



(١) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ٢٧، ص ٤٠.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٤٨.

الفصل الثاني

مؤسس
الأسرة الجمالية
بدر الجمالي

أولًا: بدر الجمالي: أصله ونشأته

١ - أصله:

تُجمع المصادر التي بين أيدينا على القول بأنَّ بدراً الجمالي هو من أصل أرمني(١). فأرمينية القديمة Ancienne Arménie الواقعة على هضبة مرتفعة في آسيا تشكلت بمعظمها منذ ملايين السنين من النشاط البركاني، وتألفت منها جبال ذات مرتفعات وعرة تمتدُّ من جبال القوقاز الصُغرى في الجنوب الغربي حتى تركيا الحالية، فضلاً عن سهول وأنهار تجري في اتجاه منخفضات أرضيَّة وليس إلى البحر. أما مناخها فقاسٍ، قاري، وافر التضاد، إذ يمتدُّ فيها الشتاء ثمانية أشهر في الهضاب، ويقابله صيف لمدَّة شهرين فقط. وليس لأرمينية منفذ على البحر الأسود(٢).

وعلينا، هنا، أن نتساءل عن أسباب ظاهرة الهجرة من أرمينية إلى بلاد الشرق تحديداً. لقد قيل في ذلك الكثير، ولكنني أميل إلى تعليل ذلك ببعض العوامل الجغرافية الطبيعيَّة وبعض العوامل السياسيَّة المتغيِّرة. فأرمينية، من جهة، تتصف

(١) ابن الصيرفي، الإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق عبد الله مخلص، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، ١٩٢٤، ص٥٥، ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، لا،ت، ج٢، ص٤٤٨؛ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، كتاب الوافي بالوفيات، طبع فرانز شتاينر فيسبادن، تحقيق جاكلين سُويلة وعلي عمارة، ١٩٨٠، ج١٠، ص٩٥؛ الذهبي، العبر في خبر من غبر، تحقيق محمد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لا.ت، ج٢، ص٣٥٧. وسير أعلام النبلاء تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٨٦، ج١٩، ص٨١؛ ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٧١، ج٤، ص٦٤.

(٢) اطلس العالم، Little's libaerary، ١٩٩٦، ص١٨٩. مؤسسة أعمال الموسوعة، الموسوعة العربية العالمية، الرياض، ط٢، ١٩٩٩م، ص٥٤٨.

جغرافياً بكونها بيئة طاردة للسُّكان، وذلك لهيمنة المناطق غير الصَّالحة لسكنى البشر فيها، إلى جانب اكتظاظها بالمستنقعات المليئة بالأوبئة، وتعرّضها دوماً للزلازل والبراكين. من جهة أُخرى، فالاضطرابات التي شهدتها أرمينية في مراحل تاريخية مختلفة ومنها ما يتصل بهذه الفترة عندما «فسدت البلاد وكثرت الشرور، وهجمت عليها الأعداء ولا سيّما المغول وأقبلت أيضاً طائفة من الغز فأوقعوا بالأرض واثخنوا فيهم واكثروا القتل وغنموا وسبوا وعادوا إلى أرمية بلادهم وكان ذلك سنة ١٠٢٩»[١]. وتعرَّضت أرمينية كذلك لهزيمة أُخرى في وقعة أرضروم عندما قام السلاجقة بقيادة طغرلبك سنة ١٠٤٩ بمهاجمة الأرمن والانتصار عليهم[٢].

إنَّ حالة عدم استقرار الحياة السياسيَّة في أرمينية دفعت العديد من الناس إلى مغادرة أراضيهم، والتوجُّه للسكن في أماكن تتوفّر فيها أسباب المعيشة والاستقرار، وكان من بين هؤلاء النازحين أفراد الأسرة الجمالية الذين غادروا بلادهم في القرن الخامس الهجريّ إلى شمالي بلاد الشام.

---

٢ - ثقة الفاطميين بالأَرمن:

بعد أن يئس الفاطميون من ولاء أَهل السُّنة، أنصار العباسيين، في مصر لدولتهم، ولم يتمكنوا من تغيير عقيدتهم السُّنية، وتحويلهم إلى المذهب الشيعي، لجأوا إلى غيرهم، فضمّ جيشهم أَقواماً من عناصر عرقية متعددة، مثل المغاربة الكتاميين والزويليين والصنهاجيين، والباطليين والبرقيين الذين قامت على عواتقهم الدولة الفاطمية في بلاد المغرب ثم في مصر وشكلوا العمود الفقري لجيش الفتح،

---

(١) بطرس البستاني، دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٣، ج٣، ص٢٠٣.

(٢) يُشار إلى أن المسلمين فتحوا أرمينية خلال القرن الثاني الهجري، السابع الميلادي، وفي عام ٢٧١هـ/ ٨٨٤م، أُسست مملكة أرمينية مستقلة في القسم الشمالي من البلاد واستمرت كذلك إلى أن تغلّب السلاجقة الأتراك على الأرمن في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، ثم ما لبث الأرمن أن أسسوا لهم دولة جديدة على ساحل البحر المتوسط. وهذه المملكة الأخيرة خضعت لسيادة المماليك عام ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م انظر: فؤاد أفرام البستاني، دائرة المعارف، ج ١٠، ص ٣٥٠.

وكانوا عصب الدولة ومظهر قوتها. وهؤلاء قدموا مع جيش جوهر ثم مع الخليفة المعز الفاطمي (٣٤١ - ٣٦٥هـ/ ٩٥٣ - ٩٧٥م) إلى مصر، واقاموا في القاهرة واقتسموا حاراتها المختلفة. اضافة إلى السودان ومنهم الزنوج وعبيد الشراء، الذين بدأ ظهورهم في مصر منذ أيام كافور الاخشيدي، وهؤلاء لم يعمد كل من المعز والعزيز إلى استخدامهم في الجيش، وإنما استعان بهم الحاكم بأمر الله الفاطمي (٣٨٦ - ٤١١هـ/ ٩٩٦ - ١٠٢١م) ثم تزايد عددهم أيام المستنصر، إذ كانت والدته جارية لأبي سعيد التستري، فيما بعد فلما تولى ابنها المستنصر الخلافة وعمره سبع سنوات تحكمت في الدولة واستكثرت من بني جنسها، ثم هناك الاتراك الذين برزوا في عهد العزيز (٣٦٥ - ٣٨٦هـ/ ٩٧٥ - ٩٩٦م)، بعد أن استكثر منهم وقرَّبهم إليه، شكلوا منذ ذلك الوقت عصبة متماسكة في الجيش الفاطمي. وقد واجه الاتراك منافسة شديدة من السودانيين في عهد المستنصر بالله، فنشبت بين الفريقين معارك عنيفة. يضاف إلى هؤلاء وأولئك القبط الذين كانوا يمثلون عنصراً رئيسياً في مصر، وقد أسند الفاطميون إليهم العديد من المناصب الهامة. وكذلك الأحباش، والديالمة، والمماليك، والروم، والصقالبة، والأرمن، وغيرهم من الاتنيات والأجناس(١).

ووجد الفاطميون في أهل الذمة موظفين مخلصين أكفاء، لا سيما وأنهم كانوا بحاجة إلى اقامة نظام إداري قوي لجمع الضرائب وتطوير مداخيل الدولة وتنميتها، معتمدين في ذلك على جهاز بشري يُعاونهم في تثبيت سلطانهم، فقلّدوا أهل الذمة أرقى مناصب الدولة وأخطرها، كالوزارة، ووظائف الدولة العُليا، وولاية الأقاليم، ورئاسة الدواوين. وقد لقي هؤلاء معاملة طيبة من الفاطميين، لا سيما وأن مناصب الدولة الفاطمية كانت حقاً لكل من توافرت لديه الكفاية اللازمة دون أي تدخل لمعتقد أو مذهب. وما يجدر ذكره، في هذا الصَّدد، أنَّ الدولة الفاطمية أفادت من امكانيات جميع رعاياها من مختلف القوميات والطبقات الاجتماعية، لمصلحة الدولة والجماعة على حدٍ سواء بما لم يكن له مثيل من قبل(٢).

---

(١) Ayman fuad Sayyid, art "North and North - East AFRICA" History of Humanity scientific and cultural Development, UNESCO 2000, Vol IV, (1) (EGYPT) P.30.

(٢) جوستاف ڤون، مقالة «انجازات العصر الفاطمي» ضمن كتاب أبحاث الندوة الدولية =

ولعل من أبرز أسباب إخلاص الأرمن للفاطميين يعود إلى أَنَّ الدولة الفاطمية كانت دولة عقائديَّة، تبنَّت الدعوة الإسماعيلية، وكان من سياستها عدم إرغام الناس على اعتناق توجُّهها الديني أو المذهبي، بل دعت إلى الرفق والتسامح مع الرعية من غير المسلمين، وبدت هذه السياسة واضحة المعالم منذ وصول الخليفة المعز بالله الفاطمي إلى مصر، ذلك لأن أهل الكتاب، من يهود ونصارى، لم يكن لديهم مشروع ظاهر، على الأقل، للاستحواذ على السُّلطة، فقرَّبهم الخلفاء وأَحسنوا إليهم، حتَّى صار منهم الأَطباء والوزراء وأَمراء الجيش، ما وفَّر المناخ الملائم لهؤلاء للارتقاء في مناصب الدولة وصولاً إلى وزارة التفويض.

وقد انعكس هذا الأمر ايجاباً على طائفة الأَرمن الذين قصدوا مصر بسبب اضطراب الأوضاع الأمنية في بلادهم، ثم تزايد توافدهم إلى مصر بعد أن استدعاهم بدر الجمالي ليكونوا إلى جانبه(١)، إثر إبحاره من عكا إلى مصر، شتاء عام ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م، وبرفقته مئة مركب محملة بالعساكر معظمهم من الأرمن، وفي ذلك يقول موهوب بن منصور: «وكان معظم عسكر أمير الجيوش أرمن».

لقد فضَّل هؤلاء الأرمن البقاء في مصر على العودة إلى أرمينية، لما كانت عليه حياتهم من اضطراب وقلق إثر استيلاء الروم على بلادهم، ولما تعرَّضوا له من بطشٍ على أيديهم(٢)، فتزايد عدد الأرمن في مصر تدريجاً، وشكلوا جالية تمتعت بالحريات الدينية والثقافية والتجارية، واتخذت من البلاد المصرية دار اقامة لها. وقد عُرف هؤلاء الأرمن بـ «المشارقة» تمييزاً لهم عن المغاربة والأتراك والسودانيين(٣).

= لتاريخ القاهرة، مارس ابريل ١٩٦٩، وزارة الثقافة في الجمهورية العربية المتحدة، مطبعة دار الكتب، بمصر، ١٩٧٠، ص٣٦٤.

(١) إبراهيم خورشيد وآخرون، دائرة المعارف الاسلامية، دار الشعب، القاهرة، ج ٣، ص ٧٨.

(٢) المقدسي، شمس الدين محمد، أحسن التقاسيم في معرفة دول الأقاليم، مراجعة محمد مخزوم، بيروت، ١٩٨٧، ص١٨٩، الياس القطار وآخرون، الشرق العربي في القرون الوسطى، الدار اللبنانية، بيروت ١٩٩٦، ص٢٧٩.

(٣) محمد جمال الدين سرور، الدولة الفاطمية في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، لا،ت، ص١٠٧.

وفي فترة وزارة بدر الجمالي، وصل إلى مصر البطرك الأرمني غريغوريوس سنة ٤٧٢هـ/ ١٠٧٩م، فأحسن بدر والخليفة المستنصر بالله استقباله. وقد أقطع بدر الجمالي للأرمن، في أول الأمر، طُرا جنوب الفسطاط، فجدَّدوا فيها كنيسة ماري جرجس[١].

وهكذا قوي مركز الأرمن في ظل الدولة الفاطمية، وتبوءوا المراكز العُليا في الإدارة والجيش، واستمر تأثيرهم قوياً في ظل بهرام، الوزير الأرمني، في عهد الخليفة الحافظ (٥٢٥ - ٥٤٤هـ/ ١١٣١ - ١١٤٩م)[٢]. وقد قدم هؤلاء من قلعة الروم غربي الفرات مقابل البيرة، ومن تل باشر في شمالي حلب.

ولعل عصبية بدر الجمالي لبني قومه الأرمن، هي التي وفَّرت له سبل النجاح في مصر، إذ أصبح للأرمن المنخرطين في الجيش المصري حارة خاصة بهم، عرفت بالحارة الحسينية، وكانت تضمُّ ما يقرب من سبعة آلاف أرمني[٣]. ويذكر المؤرّخون أنه عندما حاول بعض السّريان مزاحمة الأرمن على سكنى الحيّ أمر أمير الجيوش ألاَّ يسكن في الحسينية إلاَّ الأرمن فقط، وأخرج منها ابن الطويل، قائد السريان، ومن معه من أتباعه[٤].

يقول المقريزي، وهو يصف الجيش الفاطمي بعد ارتقاء بدر الجمالي منصب الوزارة الفاطمية: «فصار من حينئذٍ معظم الجيش [من] الأرمن وذهبت كتامة،

---

(١) أبو صالح الأرمني، تاريخ الكنائس والأديرة، تعليق صمويل السرياني، ١٩٨٤، القاهرة، ص٦١.

(٢) جاك تاجر، أقباط ومسلمون، القاهرة، ١٩٥١، ص١٤٢؛ ل.سيمونوفا، تاريخ مصر الفاطمية، ترجمة وتحقيق حسن بيومي، الاكاديمية الروسية للعلوم في معهد الاستشراق، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ٢٠٠١، ص٢٠٠.

(٣) يُوضّح ابن تغري بردي معنى «الحارة» إذ يشير إلى أنه لا يُقصد بـ«الحارة» الطريق المعد لمرور الناس فيه كما نعرف الآن، وإنما يُقصد به مجموعة المساكن التي يقيم فيها قوم معينون، تقاربت منازلهم وتدانت محلاّتهم، فهي ترادف ما نريده اليوم بالحي أو القسم من مدينة ما. النجوم الزاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٧٢ ج٤، ص٤٢.

(٤) ساويرس ابن المقفع، سير الآباء البطاركة، نشره عزيز سوريال وغيره، جمعية الآثار القبطية، قسم النصوص والوثائق، القاهرة، ١٩٧٤، ج٢، ص٢٢٦.

وصاروا من جملة الرعية بعدما كانوا وجوه الدولة وأكابر أهلها»[١] ويضيف المقريزي، في موضع آخر من كتابه وهو يتناول سيرة بدر الجمالي، حيث عبر عنه بـ «أول من ولي في الدولة الفاطمية الوزارة من أرباب السيوف وأقام دولة الأرمن بديار مصر»، كما أصبح لهم شأن كبير في السياسة المصريَّة، وفي صنع الأحداث وإدارة البلاد[٢].

لقد ظلَّ الجيش يدين بالولاء لأسرة بدر الجمالي برغم مرور عشر سنوات على وفاة الأفضل، فإنَّ الحافظ لدين الله الفاطمي عندما تولى الخلافة بعد الآمر في المحرم سنة ٥٢٥هـ/ ١١٣٠م، خلع على هزار الملوك خلع الوزارة، ولكن رضوان ابن ولخشى جمع بين القصرين خمسة آلاف فارس وراجل، وتواثبوا جميعاً على أبي علي أحمد بن الأفضل الجمالي حتى قالوا: هو الوزير ابن الوزير ابن الوزير، وأصرّوا على أن يكون هو الوزير، فخُلع عليه[٣].

وإضافة إلى الجيش، برز الأرمن في ميادين أُخرى، وبخاصة في الإدارة، فاشتهر كثير منهم، مثل: جعفر المظفر رئيس ديوان الأفضل الجمالي، وفاساك حاكم قوص خلال عام ١١٣٤م، وأبو منصور كُستَا حاكم الاسكندرية، والقائد تاج الدولة قلماز، وغيرهم[٤].

---

(١) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٨، ج٢، ص١٢.

(٢) محمد رفعت الإمام، تاريخ الجالية الأرمنية في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩، ص١١؛ Johannes den Heijer, art. "Considération Sur Les communautés chrétiennes en Égypte Fatimide: L'État et L'Eglise Sous Le vizirat de Badr al Jamâlî (1074-1094); L'Égypte Fatimide son art et son histoire, Actes du colloque organisé à paris, Mai 1998, Presse de L'université de Paris-sorbonneÁ p35.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢، ج١، ص٢٢٤.

(٤) الإمام، مرجع سابق، ص ٦٧، Mahé, Jean-Pierre, Les Armeniens et l'Egypte, le Monde copte, No. 9, 1980, p 25.

=

هذا ما حدث خلال العهد الفاطمي، ولكن بعد زواله، اضطهد صلاح الدين الأيُوبي الأرمن كونهم كانوا من المخلصين للفاطميين، كما سرَّح جيشهم الذي كان يُشكل جناحاً في الجيش الفاطمي، ولعلَّ السبب في ذلك ما يرويه ساويرس ابن المقفع من أنَّ القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني أشار على صلاح الدين حين تولّى الوزارة، عام ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م، ألاَّ يستخدم النصارى نظاراً على أموال الدولة ولا مشارفين، فأخذ صلاح الدين بمشورته، ولم يعد أحد من النصارى يُستخدم في نظر ولا مشارفة في أيام صلاح الدين وأيام مَنْ مَلك بعده من أبنائه وذريته[١].

٣ - نشأة بدر الجمالي:

لا تُسعفنا المصادر التاريخية بمعلومات وافية عن نشأة بدر الجمالي وتفاصيل حياته المبكرة، حتَّى أن مولده لا يُعرف على وجه التحديد إذ يُعتقد أنَّ مولده كان في بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي؛ لأنَّه حين وفاته سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤، كان قد تعدَّى الثمانين من عمره[٢].

وتشير بعض المصادر إلى أن بدراً كان من مماليك جمال الدولة ابن عمَّار (أحد ولاة طرابلس الشام) الذي اشتراه وتربَّى عنده، فعرف بالجمالي نسبةً إليه وتقدَّم بسببه[٣] وهذا أمر غالباً ما اعتاده مستخدمو الخلفاء والوزراء والأمراء، فالشخص الموهوب، يستطيع الافادة من الفرص المتاحة إذا ما أضيف إليها قوَّة العزم والشكيمة، وحُسن استغلال الظروف الملائمة، ما يجعل منه شخصية قيادية.

= وكان من الطبيعي أن يسعى كلٌّ من بدر الجمالي ونجله الأفضل إلى أن يُولّيا بعض شؤون الحكم وإدارات الدولة عدداً من اقربائهما وأبناء قومهما والمقرَّبين إليهما. ونشير إلى أنه وُجد في حفريات صيدا كتابة عربية يعود تاريخها لسنة ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م أمر برقمها أبو منصور اسكندر الأرمني الذي غدا من مماليك الخليفة الفاطمي المستعلي بالله، في ظل وزارة الأفضل. انظر: فؤاد البستاني مرجع سابق، ص٣٤٩.

(١) ساويرس ابن المقفع، سير الآباء البطاركة، ج٢، ص٦٤.

(٢) Becker, C.H, art "Bader al Djamali", E12, VOL.1,P870.

(٣) ابن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٠، ص٩٥.

من خلال ذلك، يمكننا القول: إن بدراً الجمالي لم يكن ينحدر من أسرة مرموقة، بل تدرَّج في الوظائف وأثبت مقدرة ومهارة فائقتين في أعماله العسكرية والسياسية على حدٍ سواء «وما زال يأخذ نفسه بالجد في زمن شبيبته ويوطن نفسه على قوة العزم فيما يرومه، وتنقل في الرتب العلية حتى انتهى إلى غايتها»[1]. وقام بالكثير من المهام الموكلة إليه أحسن قيام في وقت كانت تتقاسم النفوذ في العالم الإسلامي المعروف آنذاك خلافتان: خلافة عباسية في بغداد خاضعة لنفوذ السلاجقة، وخلافة فاطمية في القاهرة، تطمح لانتزاع الشرعية من الأولى، وتنازعها النفوذ في بلاد الشام، التي أمسك السلاجقة بمناطقها الداخلية، فيما مناطقها الساحلية، كانت تحت سيطرة الفاطميين.



(١) ابن ميسر، أخبار مصر، اعتنى بتصحيحه هنري ماسيه، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي، ١٩١٩ ص٣٥.

ثانياً: بدر الجمالي
من الولاية على دمشق إلى قيادة الجيش

عُرف بدر الجمالي، قائداً عسكرياً كبيراً، ولُقِّب بـ«أمير الجيوش». وكان هذا اللقب، كما يقول المقريزي، مختصاً بصاحب ولاية دمشق(١)، لكنَّ بدراً أضفى شهرةً واسعةً على لقبه هذا، حتّى طغى على اسمه الشخصي. ورغم أنَّ خلفاءه، من الوزراء، قد تلقبوا أيضاً بلقب «أمير الجيوش» بوصفهم «وزراء سيوف» أي قادة للجيش في الوقت نفسه، فإنَّ بدراً الجمالي احتفظ لنفسه بميزةٍ جعلت المؤرخين المتأخرين عنه يكتفون لتعريفه بذكر لقبه «أمير الجيوش» دون أن يجدوا ضرورة لإلحاق اسمه الشخصي بهذا اللقب. من هذا اللقب اشتقت النسبة «الجيوشي»(٢). وهذا ما وَرَدَ في بعض النقوش كمسجد الجيوشي، ومن أمثلة ذلك أيضاً: دار أمير الجيوش، وسوق أمير الجيوش، ونُسبت إليه المماليك الجيوشية، ودار الجيوشية، وبساتين الجيوشية، وجبل الجيوشي(٣).

---

١ - تولّيه بلاد الشام:

من المعروف أنَّ بدراً الجمالي قد تدرّج في الرتب والوظائف. أوردت المصادر أنه ولّي دمشق مرّتين، وذلك في عامي (٤٥٥هـ، و٤٥٨هـ/ ١٠٦٣، ١٠٦٥م). وكانت له وقائع وأحداث. في المرّة الأُولى، وصل بدر إلى دمشق في الثالث

---

(١) المقريزي، الخطط، ج١، ص٤٤٠.

(٢) ابن الطوير، نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، تحقيق أيمن فؤاد سيد، فرانز شتاينر، شتوتغارت، بيروت، ط١، ١٩٩٢، ص٤٥.

(٣) Wiet (G), Matériaux pour corpus Inscriptiouam Arabicum, Egypte II, P147 - 148. وسأُعالج هذا الموضوع مفصلاً في الفصل الثاني: الخلافة والوزارة في عهد الأسرة الجمالية.

والعشرين من ربيع الآخر، وأقام بها، فتألب الجند عليه، ووافقهم عامة الناس، فضعف عنهم، ففارق دمشق في رجب سنة أربعمائة وستة وخمسين، أي بعد عام واحد من توليها[١]. ويُذكر، في هذا الصَّدد، أنَّ أهل دمشق عمدوا إلى إحراق قصره وأنقاض أخشابه[٢].

وفي عام ٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م، وصل بدر الجمالي إلى دمشق والياً عليها وعلى الشام بأسره، من قبل الفاطميين وذلك يوم الأحد في السادس من شعبان، فغزا بني سبيش ونكَّل بهم وعاد إلى الاقحوانة، وجاءه أميران اخوان من قيس فقتلهما لأجل غارات كانت لهما بالشام قبل وصوله إليها، ثم سار يشق قبائل العرب «وفعل فعلاً لم يسبقه أحد إليه»[٣].

كانت مدّة اقامة بدر الجمالي في دمشق هذه المرة عاماً ونيفاً، بعدها بدأت الخلافات، فاضطرَّ إلى أن يبعث بأهله وأمواله إلى صيدا ثم ما لبث أن التحق بهم، وكان حصن الدولة حيدرة بن منزو[٤] قد جاء نجدة لأهل دمشق ضداً للجمالي، فلحق به يريد القبض عليه، فاضطرَّ بدر إلى دخول عكا، وحشد رجاله فيها، وعاد ابن منزو من حيث أتى.

بعد انصراف الأمير بدر عن دمشق ثارت الفتنة فيها، وانقسم الناس إلى فريقين: فريق يؤيد بدراً الجمالي، وفريق يقف في صف الشريف أبي طاهر ابن أبي الجن الذي جاء من مصر والياً على دمشق، وأخذ أنصار بدر يراسلونه سراً ويدعونه إلى دخول دمشق والفتك بالشريف أبي طاهر، فبعث بدر إليهم رجلاً، يعرف بالقطيان، في جماعة من أصحابه، فلما دخل القطيان دمشق هرب ابن أبي الجن إلى مصر،

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥ - ١٩٦٧، ج١٠، ص٣٠.
(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٣١٨.
(٣) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٣٩هـ-، ص٩٦.
(٤) تولى حيدرة بن منزو ولاية دمشق بعد رحيل بدر الجمالي عنها وساهم في اضطراب الإوضاع فيها لإعاقة الاستقرار ولضمان عدم عودة بدر الجمالي إليها مرة أخرى. ابن القلانسي، تاريخ، ص ١٥٧.

وفي الطريق إليها مر بمدينة عمان البلقاء فقبض عليه أميرها بدر بن حازم غدراً وسلمه إلى بدر الجمالي لقاء مبلغ من المال، كان الجمالي وعده به. وما كاد الشريف يمثل أمام بدر حتى أمر بقتله خنقاً، فأثار هذا التصرف ثائرة الناس في دمشق والبلاد الشامية كلها، وارتفعت الأصوات بلعن ابن الحازم الغادر وبدر الجمالي القاتل، وضاعت من بدر فرصة الرجوع إلى دمشق واستعادة ولايته عليها.

ثم حدثت فتنة بين المغاربة وأهل دمشق ووقع القتال بينهم بعد أن عجز الفاطميون عن كسب أهل دمشق بسبب سوء سلوك الجنود المغاربة معهم. وقد سبب هذا الحادث اندلاع النيران في الجامع الأموي وكان القتال في غربي الجامع وقد رُمي أهل دمشق بالنشّاب من دار قريبة من الجامع فضربت الدار بالنار فاحترقت وثار النار منها إلى الجامع فأحرقته، وذلك في ليلة النصف من شعبان عام ٤٥٨هـ - / ١٠٦٥م، فهال الناس ما حدث، وألقوا السلاح من أيديهم وهرعوا يحاولون اخماد النيران التي استمرت حتى الصباح، ولم يبق من الجامع إلاّ حيطانه الأربعة[1]. وصار الناس يُصلون الجمع على التلال وهم يبكون وانهزموا بعد ذلك ونُهبت دورهم وأموالهم، فكان ذلك من أسوأ الحوادث التي تعرضت لها دمشق.

استمرّت أحوال المدينة في التردّي، فتعرّضت لأطماع السلاجقة[2]، وما هي إلاّ سنوات حتى تمكنوا من دخولها والقضاء على النفوذ الفاطمي فيها. حصل ذلك

---

(١) ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة، ذيل تاريخ دمشق، طبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨، ص٩٧؛ أديب السيد، أرمينية في التاريخ العربي، ط١، بيروت، ١٩٧٢، ص٢٧٧.

(٢) السلاجقة قوم من الاتراك، ينتسبون إلى زعيمهم سلجوق بن دقاق، نزحوا من منطقة تركستان إلى ما وراء النهر حيث عاشوا لفترة هناك واختلطوا بالمسلمين، وبعد وفاة زعيمهم وصلوا إلى اقليم نجارى على مشارف مملكة السلطان محمود الغزنوي واضطروا أن يدينوا له بالولاء. ولكن أطماعهم جعلت السلطان يخشاهم فقبض على قائدهم وقتله وشرّد أتباعه. وقد اتجهوا بعدها إلى خراسان واستقروا هناك، وبدأت دولتهم تتسع حتى سيطروا على معظم بلاد إيران وشمال العراق وأرمينية وآسيا الصغرى بعد إعلان دخولهم في طاعة الخليفة القائم بأمر الله العباسي انظر: اسامة زكي زيد، الصليبيون وإسماعيلية الشام، الهيئة المصرية، الاسكندرية، ١٩٨٠ ص١١٢.

عندما كلف السلطان السلجوقي ملكشاه القائد التركماني أتسز بالسيطرة على بلاد الشام، فجمع حوله التركمان وتوجه إلى فلسطين سنة ٤٦٣هـ - / ١٠٧١م ففتحها، ثم قصد دمشق فحاصرها حصاراً اقتصادياً حرمها من أهم مواردها، وقد تعرَّضت المدينة لاضطراب اقتصادي وسياسي كبيرين، أدى إلى انقطاع الأقوات ونفاد الغلات عنها، عندها طلب أهالي دمشق من رزين الدولة انتصار بن يحيى المصمودي، الأمير الفاطمي، تسليم المدينة بالأمان، فدخلها أتسز وتسلمها من واليها سنة ٤٦٨هـ - / ١٠٧٥م[١].

ومنذ ذلك الحين، أي بعد انهيار السلطة الفاطمية في دمشق عام ٤٦٨هـ - / ١٠٧٥م واجه الفاطميون صعوبات عدّة في بلاد الشام، كان لها أثر بالغ في عدم استقرار حكمهم فيها، فإلى جانب استياء أهالي دمشق من سياسة الفاطميين، قام قرامطة البحرين بمناهضة نفوذهم هناك، كما كان لحركات العصيان التي تزعمها أمراء العرب في الشام دور في زعزعة النفوذ الفاطمي في هذه البلاد.

أدّت عوامل أخرى إلى عدم افساح المجال لتحقيق الاستقرار وضمان السيادة الفاطمية في دمشق، ولعل ذلك عائدٌ إلى الاضطراب الذي اصاب مصر، والناتج عن أسباب اقتصادية وأمنية وسياسية، ساهمت في اضعاف هيبة الدولة، وربما يكون هناك أسباب تتعلّق بعجز الفاطميين عن كسب ود أهل دمشق بسبب الخلافات المذهبية بين الفاطميين الشيعة الإسماعيليين وبين أهل دمشق السُّنة، الأمر الذي باعد بين وجهات النظر، يعزّز ذلك ما حدث اثر حصار السلاجقة لدمشق عام ٤٦٧هـ - / ١٠٧٤م، وما فعله اتسز عند دخوله اياها من حذف اسم المستنصر بالله الفاطمي من الخطبة، واحلال اسم الخليفة المقتدي بأمر الله العباسي محله، ومنع فقرة «حي على خير العمل» من الاذان، يصف بعض المؤرخين هذه التطورات ويعقبون عليها بقولهم: «كان لعمله (اتسز) هذا أحسن الأثر في نفوس أهالي دمشق»[٢].

---

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج١٢، ص١٨٠؛ محمد حسين محاسنة، تاريخ مدينة دمشق خلال الحكم الفاطمي، دار الأوائل، دمشق، ٢٠٠١، ص١٢٣.

(٢) ابن خلدون، العبر، ج٤، ص٦٥.

٢ - أعماله العسكرية في مصر:

لا بُدَّ من الإشارة إلى أنَّ ما فعله بدر الجمالي في البداية بمصر يُشكّل مغامرة ومجازفة حقيقية، عندما ركب البحر من عكا حيث كان مقيماً فيها عندما استدعاه الخليفة المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٧- ٤٨٧هـ - / ١٠٣٦ - ١٠٩٤م)، فرغم تحذيره من ركوب البحر في الشتاء(١) فقد خاض غماره وسار إلى دمياط في موكب كبير مؤلف من مئة مركب ووصلها.

ثم انتقل إلى القاهرة وأرسل كلَّ أمير من أمرائه إلى قائد من قوَّاد الدولة الأتراك ليلاً - وكانوا قد استقبلوه استقبالاً وديّاً؛ لأنهم لا يعلمون حقيقة نواياه تجاههم - وأمره أن يأتيه برأسه، فأصبح بدر الجمالي ورؤوس أمراء الدولة وقادتها بين يديه، وقضى بعدها على بقية القادة وتتبَّع المتمردين، وذلك عام ٤٧٦هـ - / ١٠٧٣م، ثم قتل عدَّة وزراء، منهم: الوزير ابن أبي كُدينة الذي تولّى الوزارة سبع مرات، والوزير أبو المكارم أسعد بن صاع، والوزير أبو شجاع محمد بن الأشرف أبي غالب، والوزير أبو العلاء عبد الغني بن نصر، وغيرهم(٢). وذُكر أنَّ بدراً لما قدم إلى مصر حضر إليه المتصدرون بالجامع، فقرأ ابن العجمي: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾(٣)، وسكت عن تمام الآية. فقال له بدر: والله لقد جاءت في مكانها، وسكوتك عن تمام الآية أحسن(٤)، وأنعم عليه.

---

(١) يعلّق المقريزي على طريقة قدوم بدر الجمالي إلى مصر فقال: «وكان الوقت في كانون، وهو أشدّ ما يكون من البلاد، ومن العادة أن البحر لا يُركب في الشتاء، . . . وقد حُذّر من ركوبه ومن سوء العاقبة فلم يصغ لذلك، وكأن الله سبحانه صنع له ومكّن له في الأرض وقضى بأن يصلح على يديه ما فسد من إقليم مصر». اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣١١.

(٢) Caston wiet, art. "Fatmides", Encyclopaedia Universalis, corpus9, paris, 1996, P.306.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٢٣.

(٤) إن تكملة الآية هي: ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ ولعلَّ بدراً كان يمتلك من الحنكة، ما يستطيع بواسطتها أن يُرضي جمهور المصريين الذين لم يكونوا بعدُ تعرفوا عليه، ودليل ذلك أنه قال له في بعض المصادر: «لم لا قرأت: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩] الارب، ج٢٨، ص٢٣٦. يشار، في هذا الصدد، إلى أن طبقةً في العصر الفاطمي كانت لهم وظيفة القراءة =

بعد أن فرغ من إعادة الاستقرار والهدوء في القاهرة والفسطاط، وجه بدر الجمالي اهتمامه إلى بقية المناطق والأقاليم. ففي عام ٤٦٧هـ / ١٠٧٤م، سار إلى الوجه البحري حيث هزم عرب لواتة وقتل مقدّمهم سليم اللواتي وولده واستصفى مالهما، وأسرف في قتلهم حتى يُقال إنه قتل منهم عشرين ألفاً، ثم قصد البر الشرقي والبرّ الغربي وقتل جماعة من مناوئيه وأتباعهم بالاسكندرية، و«كان أقام عليها أياماً يحاصرها ففتحها عنوةً وقتل جماعة وعفا عن أهل البلد»[١].

وفي هذا العام، توجه العبيد من الصعيد إلى القاهرة، فخرج بدر إليهم وهزمهم هزيمة منكرة استأصلهم بها وأبعدهم إلى أسوان[٢]، كما ثار كنز الدولة محمد بأسوان واستولى عليها وعلى نواحيها، وكثر أتباعه، فسار إليه أمير الجيوش بجيشه، فالتقاه وحاربه مدة طويلة أسفرت عن قتله وهزيمة أصحابه بعد أن قُتل منهم جمٌ غفير[٣].

وفي عام ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م، اجتمعت في بلاد الصَّعيد جماعات كبيرة من عرب جهينة والثعالبة والجعافرة لقتاله، وكانت قد نادت باستقلالها فسار إليهم حتى قاربهم، ثم قام في الليل وضرب الطبول والبوقات وأشعل المشاعل وأكثر من وقود النيران ومشى وقد صاحت العساكر كلها صيحة واحدة، فأفنى أكثرهم قتلاً وغرق من فرَّ منهم ولم ينج منهم إلاَّ يسير وغُنمت أموالهم وحملت للمستنصر بالله[٤].

وفي العام نفسه (٤٦٩هـ / ١٠٧٦)، هاجم أتسز التركماني[٥] الديار المصرية

= في حضرة الخليفة في مجالسه وركوبه في المواكب وغير ذلك، وكان يُقال لهم «قراء الحضرة». وكان لديهم من المواهب ما يستطيعون به الاتيان بآيات مناسبة للحال بسرعة البديهة وسهولة الاستحضار. راجع: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٤٨٤.

(١) ابن ميسر، أخبار مصر، ص٢٢ - ٢٧.

(٢) جمال الدين علي بن ظافر، أخبار الدول المنقطعة، دراسة تحليلية للقسم الخاص بالفاطميين، مقدمة وتعقيب اندريه فريه، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٧٢، ص٧٦.

(٣) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج ٢، ص ٣١٤.

(٤) المقريزي، نفسه، ٣١٦.

(٥) أطسز أو أتسز من قادة الأتراك السلاجقة، تقدم نحو دمشق وضمها إلى حكم السلاجقة =

من بلاد الشام، بعد أن أغراه بفتحها ابن بلدكوز[١] الذي احتمى به على أثر قدوم بدر الجمالي إلى مصر، وأهدى إليه تحفاً كان قد استولى عليها أبوه من خزائن الخليفة المستنصر، وبلغ عدد جيوش أتسز ما يزيد على ثلاثين ألفاً ما بين فارس وراجل، وقد قامت خطة بدر الجمالي باستعمال السياسة والدبلوماسية وسلاح المال ليفرق بها صفوف أتسز، فراسل بدر بن حازم الكلبي[٢] واستماله بالأموال، على أن يعمل على مساعدته ويتسبب في هزيمة أتسز، فوافقه على ذلك. واتفق الطرفان على أن يكمن بدر بن حازم الكلبي في الفي فارس خلف جيش أتسز، ثم يخرج من ورائهم ليأخذ البغال المحملة ويضرم النار في عتادهم. ولما نشب القتال نفذ بنو كلب ما تمّ الاتفاق عليه بينما اندفع الفاطميون إلى ميمنة جيش اتسز وضربوها، فانهزم بنتيجتها اتسز وقُتل أخوه وجماعة من أصحابه، وغنم الفاطميون غنائم كثيرة، منها ثلاثة آلاف حصان وعشرة آلاف صبي وجارية[٣].

ترتب على انتصار الفاطميين على السَّلاجقة عودة بعض مدن الشام إلى ولائها للفاطميين، لذلك عزم بدر الجمالي على استرجاع دمشق، فسيَّر إليها عسكراً بقيادة نصر الدولة، وحاصرها، فاضطرَّ أتسز إلى طلب النجدة من تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان، فقدم تتش لنجدته، وعندما اقتربت جيوشه من دمشق بادر الجيش الفاطمي إلى رفع الحصار عن المدينة والرحيل إلى مصر[٤].

= أيام السلطان ملكشاه ثالث سلاطين السلاجقة العظام، ومن دمشق وسع نفوذه في بلاد الشام وتقدم نحو مصر وهددها. وقد تمكن الأمير السلجوقي تتش من أن يقتله ويتولى بنفسه دمشق وما يتبعها سنة ٤٧١هـ. ويقول ابن الأثير في بعض الحديث عن أتسز هذا: «يذكر الشاميون هذا الاسم أقسيس والصحيح أنه أتسز وهو اسم تركي». الكامل: ١٠/ ٣٥.

(١) ابن بلدكوز من أمراء الاتراك الذين خافوا على أنفسهم من استئثار ناصر الدولة الحسن بن حمدان فقتلوه وقتلوا أخوايه فخر العرب وتاج المعالي وجماعة كبيرة من بني حمدان.

(٢) بدر بن حازم الكلبي من قادة بلاد الشام المناوئين لبدر الجمالي، حيث انضم على رأس ألفي فارس من فرسان قبيلته إلى أتسز التركماني، ابن القلانسي، ص ٩٨.

(٣) أبو الفداء المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص٦٧؛ محمد جمال الدين سرور، تاريخ الدولة الفاطمية، ص٣٠٤؛ أمينة بيطار، موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين حتى أواخر القرن الخامس الهجري، دار دمشق، دمشق، ط١، ١٩٨٠، ص١٦٣.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٢٥.

من خلال هذه الوقائع، تجلّت مواهب بدر الجمالي العسكريّة في ضبط الأوضاع وقمع الحركات المناوئة له.

وحاول بدر، مجدداً، استرداد دمشق عام ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م، فسار إليها على رأس حملة، وحاصرها حصاراً شديداً، فدار بينه وبين صاحبها تاج الدولة تتش[(١)] قتال، غير أنه لم يتمكن من التغلُّب عليه، وقفل عائداً إلى مصر. ولم يستطع خلال فترة تولّيه الوزارة استرجاع دمشق من أيدي السلاجقة ولم تُستعد قط بعد ذلك، لذا يُمكننا القول: إنَّ حظّه في بلاد الشام لم يكن مماثلاً لحظّه في مصر حيث كانت الأمور مهيّأة له.

هذا ما حققه بدر الجمالي من انجازات ميدانية في مصر، وفي هذه المرحلة بدأ بدر الجمالي، يُوجّه اهتمامه إلى استعادة النفوذ الفاطمي في بلاد الشام، حتى تمكن سنة ٤٨٢هـ / ١٠٨٩م، من الاستيلاء على معظم مُدن الشام السَّاحلية، فندب عسكراً من مصر بقيادة نصر الدولة الجيوشي، فنزل هذا على صور وحاصرها، واضطرَّ أبناء الدولة بن عقيل، إلى تسليمها له، ثم واصلت القوات الفاطمية بقيادة الجيوشي زحفها على مدن الشام الساحلية، فاستولت على صيدا وعكا، ومن ثم نزلت الجيوش الفاطمية في بعلبك، فسارع ابن ملاعب، صاحبها للدخول في طاعة الفاطميين وأقام الخطبة للخليفة المستنصر بالله. ويُذكر، في هذا الصدد، أن بدراً الجمالي كان قد ولّى رجلاً على صور من قبله يُدعى منير الدولة الجيوشي. ثم عمد عام ٤٨٦هـ / ١٠٩٣م، إلى خلع طاعته وابداء عصيانه له. لجأ بدر عندها لإرسال جيش مصري حيث أُسر منير الدولة ومن معه من أصحابه وحملوا إلى مصر وقد ضرب بدر رقاب الجميع، وفرض على أهل صور ستين الفاً عقوبة لهم[(٢)].

---

(١) هو تاج الدولة بن عضد الدين أبي شجاع ألب ارسلان. تولّى أخوه، جلال الدين أبو الفتح ملكشاه، سلطنة السلاجقة، ثم أوصى لابنه قصير الدين محمود من بعده بالسلطنة، فأقام نحو سنة ثم توفي وخلفه بركياروق، ركن الدين أبو المظفر، فغضب تتش لذلك وخلع طاعته وثار ضدّه، وتقدم من الشام لحربه واجتاز الفرات ودجلة، والتقى الجيشان في معركة حاسمة عند مدينة الري، شمالي فارس، فسقط تتش فيها صريعاً، وكان ذلك عام ٤٨٨هـ. انظر: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، ج١، ص٢١٢.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص١٧٦.

ويلاحظ في هذا المجال، أنَّ بدراً الجمالي اعتمد خطة في مصر لاصلاح ما انفسد فيها، وإعادة النظام، وفرض الهيبة، فأزال أسباب الفساد والخلاف الناتجة عن وجود الأتراك والسودان وغيرهم من العناصر القويَّة، واستبدلهم بعساكر من الأرمن، وهم عنصر جديد لم يسبق له أن تورّط في النزاعات بين الأتراك والسودان(١).

كان دخول بدر إلى مصر، معتمداً على العصبية الأرمنية، ايذاناً ببدء تحول كبير في تنظيم الجيش الفاطمي، إذ أصبح بدر وزيراً وقائداً للجيش، وأمسك بيده أمر تعيين القواد وعزلهم وتعبئة الجيش وإعلان الحرب(٢).

يُضاف إلى ذلك أنَّ بدراً الجمالي أعاد تنظيم الجيش الفاطمي، فزاد من استخدام المصريين في الجيش(٣).

٣ - شخصية بدر الجمالي القيادية:

كان بدر الجمالي مهاباً، ذا قسوة، قضى على العديد من الاضطرابات والفتن وأخمدها وسحق رؤوسها سواء في بلاد الشام أم في مصر. وما يثير الانتباه أن سيرته هذه وشدّته لم ينج منها حتى ولده الأوحد الذي خرج عليه، واجتمع جماعة معه في الاسكندرية وتحصَّن بها، فما كان من بدر إلاّ أن سار إليه وقبض عليه وعلى أربعة من الأمراء ممن واطأهم الأوحد الجمالي على قتل أبيه لينفرد بالسلطة، فأخذ هؤلاء الأربعة وضرب رقابهم وصلبهم، وعفا أثر ولده، وقيل انه: قطع عنه القوت، وقيل أيضاً انه: غرَّقه، أو دفنه حيًّا(٤)، وقيل: لما قبض عليه قتله بيده(٥) في ذي القعدة

(١) Dadoyan, seta B, The Fatimid Armenians Cultural and political interaction in the Near East, New York, 1997,P15..

(٢) ابن ميسر، أخبار مصر ص٧٥؛ محمد حمدي المناوي، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، دار المعارف بمصر، القاهرة، لا.ت، ص٧٥.

(٣) عبد المنعم ماجد، المستنصر بالله، ص١٨٧.

(٤) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دار الثقافة، بيروت، ط١، نسخة مصورة عن طبعة دائرة المعارف، حيدر آباد الدكن، ١٣٥٩هـ، ج٢، ص٣٥.

(٥) ابن حجر العسقلاني، رفع الأصر عن قضاة مصر، تحقيق حامد عبد المجيد وآخرون، =

عام ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤م، ثم استدعى بدر شهود المدينة ومقدّميها، ووبّخهم وقال لهم: أنتم ساعدتم ولدي على المخالفة، وحسَّنتم له ذلك، وقتلتم رجال الخليفة وجنوده، وخسّرتموه الأموال. كما عمد إلى مصادرة كثير من أموال الاسكندرية وأنفق منها على بناء جامع العطارين الذي فرغ منه في شهر ربيع الأول عام ٤٧٧، وأُقيمت فيه الجمعة واستمرَّت إلى أن زالت دولة الفاطميين على يد صلاح الدين الأيّوبي، فأمر الأخير بنقل الخطبة من جامع العطارين إلى جامع أمر ببنائه.

وهكذا أعاد بدر الجمالي الأمن إلى ربوع الديار المصرية بمجهود كبير لم يخل من صرامة وشدَّة، وقد دخلت الدولة الفاطمية نتيجة أعماله في طور جديد من أطوار ازدهارها وعزها.



= الإدارة العامة للثقافة، وزارة التربية والتعليم، القاهرة، ١٩٥٧ - ١٩٦١، ج١، ص١٣٠ - ٢٠١.

ثالثاً: بدر الجمالي
من الدور العسكريّ إلى المهام السياسية

١ - الأحوال العامة في مصر عشية مجيء بدر الجمالي إليها:

كانت الأوضاع السَّائدة في مصر، زمن بدر الجمالي، قلقة على غير صعيد، فمن سوء في الأوضاع الاقتصاديَّة، إلى تدهور في الأوضاع الأمنية، إلى صراعات داخلية وأزمات إداريَّة حادة، حيث تولّى في الفترة ما بين عزل الوزير الحسن بن محمد اليازوري وقتله سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م ووصول بدر الجمالي إلى الوزارة عام ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م، أربعة وخمسون وزيراً واثنان وأربعون قاضياً[(١)]، لم يتمكن بعضهم من مزاولة وظائفه سوى أيام معدودة وهو ما يبين لنا مبلغ تزعزع مركز الدولة الفاطمية، ومن ثم إلى تنابذ بين قادة الجيش نال من هيبة الدولة وسمعتها، وأمسى الخليفة الفاطمي عاجزاً عن تدبر الأمور ما حدا بالمؤرخين أن يصفوا ما حدث بـ «الشدّة العظمى»[(٢)].

من جانب آخر، يُلاحظ أن ضعف المركز يؤدي إلى ضعف الأطراف، وهو ما حدث للدولة الفاطمية أثناء خلافة المستنصر بالله نتيجة للازمات الداخلية، إذ بدأت الدولة المترامية الأطراف التي أسسها المعزّ لدين الله الفاطمي، ووطّد أركانها العزيز بالله تنهار، فسقطت صقلية في يد الملك روجار النورماندي، وشقّ أهل المغرب عصا الطاعة على الفاطميين وخرج المغرب عن سلطان المستنصر، وخلعت الحجاز طاعته سنة ٤٦٢هـ / ١٠٦٩م[(٣)].

---

(١) ابن حجر، رفع الاصر، ج١، ص١٩٩ و٢٠١.

(٢) عبد العزيز سالم، تاريخ مصر الإسلامية حتى نهاية العصر الفاطمي، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ص١٩٧.

(٣) الإسحاقي، كتاب أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، المطبعة العثمانية، ١٣٠٤هـ، ص١٢٠. أحمد صادق الطنطاوي، تاريخ العصور الوسطى في الشرق والغرب، دار الطباعة الأهلية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٦، ص١٥٣.

وكان للشدة العظمى التي انتابت مصر، وازدياد قوة السلاجقة النامية، كبير الأثر على تضعضع سلطان الفاطميين في الشام وفلسطين. وكان ملكشاه أول سلاطين السلاجقة في بغداد قد ارسل جيوشه عام ٤٦٢هـ/١٠٦٩م، فتمكنت من فتح مدينتي الرملة وبيت المقدس. ولكنها عجزت عن فتح دمشق، على أن الجيوش السلجوقية لم تلبث أن عادت إلى دمشق عام ٤٦٧هـ/١٠٧٤م، واستولت عليها، وأسقطت الدعاء للمستنصر من مساجدها وأعادت الدعاء للخليفة العباسي المهتدي.

ومن ضحايا هذه الاضطرابات ما حدث لدور العلم والمكتبات، إضافة إلى المباني والمجوهرات وما شابه، فقد ورد أن كارثة العلم تتجلّى فيما صارت إليه مكتبة القصر الفاطمي التي كانت مجلَّداتها تزيد على مائة ألف، ويتأسف المقريزي على ما أصاب المكتبة في عام ٤٦٢هـ/١٠٦٩م، ويقول بصدد ما حلَّ بها: «إن الكتب الجليلة المقدار، المعدومة النظير في سائر الأمصار، صحة وحسن تجليد وغراية، قد اتخذها عبيدهم واماؤهم من جلودها نعالاً وأحذية ثم احرقوا أوراقها زعماً منهم أنها تحوي كلام المشارقة الذي يخالف مذهبهم»[(١)].

ومُحاولةً منه لإعادة الأمور إلى نصابها، استدعى الخليفة المستنصر بالله بدراً الجمالي إلى مصر، وكان قد كاتبه سراً عن طريق الوزير أبي الفرج محمد بن جعفر بن المغربي، المتولي ديوان الانشاء، يطلب إليه القدوم من عكا - وهي من الثغور البحرية بين صور وحيفا، وكانت لها اسوار حصينة - لإصلاح حال البلاد وكان قد كتب إليه: «فإن كنت مأكولاً، فكن أنت آكلي» فاستجاب لنجدته واعانته، بعد أن وعده الخليفة بتملك البلاد والاستيلاء عليها، فاشترط الجمالي عليه أن لا يُبقي أحداً من عساكر مصر ولا وزرائهم، فأجابه المستنصر إلى ذلك[(٢)].

أبحر بدر إلى مصر، فنزل بتنّيس وقيل بدمياط، ثم سار منها قاصداً قليوب،

---

(١) المقريزي، الخطط، ج١، ص٤٠٨.

(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، منشورات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ط٢، ١٩٩٦، ج٢، ص٣١١.

وبعث إلى المستنصر يقول له: «لا أدخل القاهرة ما لم يُقبض على بَلْدَكوش» قائد الأتراك، فأمسكه الخليفة وأرسل يستقبل بدراً لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ٤٦٦هـ/يناير ١٠٧٤م، وأكرم وفادته وأطلق يده في اصلاح البلاد[(١)].

يُصوِّر لنا المؤرّخون الأحوال السَّائدة وقتذاك في مصر، حيث كانت تسير من سيّء إلى أسوأ، فالمجاعة مستشرية، والاضطرابات طاولت الخليفة نفسه، إذ حُوصر في قصره، «وتجنى الأجناد عليه وأرادوا أن يتزوجوا بناته وأخواته، فأخرجهن مع أولاده من القصر، وسيرهنَّ إلى غزة وعسقلان»[(٢)]، ونُهبت جواهر قصره وتحفه، وفي هذا يقول ابن ميسر: «رأيتُ مُجَلَّدةً تجيءُ نحو العشرين كراسة، فيها ذكْرُ ما خرج من القصر من التحف والأثاث والثياب وغير ذلك»[(٣)]. ويقول ابن ظافر: «أخرج من خزائن المستنصر ثمانون ألف قطعة بلور صغاراً وكباراً وسبعون ألف قطعة من الديباج القديم وأحد عشر ألف درع تجفاف وعشرون ألف سيف محلي»[(٤)].

ويذكر ابن الأثير أن المستنصر «لقي شدائد وأهوالاً، وانفتقت عليه الفتوق بديار مصر، اخرج منها أمواله وذخائره إلى أن بقي لا يملك غير سجادته التي يجلس عليها»[(٥)]. وقد وصل به الحال أن لا يجد من القوت إلاً ما تتصدق به عليه الشريفة ابنة صاحب السبيل في كل يوم، فلا يأكل غير مرة واحدة في اليوم[(٦)]، وساءت حالته إلى درجة أنه كان يستعير من صاحب ديوان الانشاء بغلته ليركب عليها، ويُعبّر

---

(١) المقريزي، المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١، ج٢، ص٣٩٦، أما بلدكوش أو بلدكوز فهو من الأمراء الاتراك الذين خافوا على أنفسهم من استئثار ناصر الدولة الحسن بن حمدان، فقتلوه وقتلوا أخويه فخر العرب وتاج المعالي وجماعة كبيرة من بني حمدان.

(٢) القرماني، أخبار الدول وآثار الأول، تحقيق أحمد حطيط وفهمي سعد، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٩٢، ج٢، ص٢٤٢.

(٣) ابن ميسر، أخبار مصر، ص٣٤.

(٤) ابن ظافر، أخبار الدول المنقطعة، ص٧٥.

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٢٣٧.

(٦) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣٣٢.

المؤرخون عن ذلك بأنه لم «يبق في مصر دابة تمشي على أربع سوى حمار يركبه الخليفة المستنصر»[١] بعد أن كان لديه عشرة آلاف ما بين فرس وجمل ودابة[٢].

وكأن الأقدار لم تكتف للمستنصر بهذه الأزمات الإدارية والفوضى السياسية فجاء النيل - وهو شريان الحياة في مصر وعصبها - ليضيف إلى مشاكل المستنصر مشكلة جديدة. إذ عاد منسوب النيل إلى التناقص في السنوات ٤٤٤هـ / ١٠٥٢م و٤٤٧هـ / ١٠٥٥م و٤٥٧ - ٤٦٤هـ / ١٠٦٤ - ١٠٧١م، فشهدت مصر أسوأ أزمة اقتصادية مرَّت بها في العصر الإسلامي حيث نزع السعر وتزايد الغلاء وأعقبه الوباء حتى تعطلت الأراضي عن الزراعة، واستولى الجوع على الناس لعدم وجود الأقوات[٣].

وكان من الطبيعي أن يستفحل الموت بين السكَّان، فقد كان يموت أَحد أفراد الأُسرة في الليل مثلاً، فلا يمضي ذلك اليوم حتى يموت سائر من في البيت، الأمر الذي سبَّب عجزاً عن مواراة الأموات، لذا صار الناس يحفرون الحفر الكبيرة ويلقون فيها الأموات بعضهم فوق بعض، حتى إذا امتلأت الحفر بالرِّمم من الرجال والنساء والصغار والكبار أُهيل عليها التراب[٤].

وزادت الاوضاع سوءاً ما انعكس على حالة الاستقرار، فاتصلت الفتن والاضطرابات وتدهور الوضع، إلى حدّ أنه أُكلت الكلاب والقطط حتى قلَّت الكلاب، فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير، ثم أكل الناس بعضهم بعضاً، وخاف الأفراد على أنفسهم فكانت بعض الجماعات تجلس بأعلى بيوتها ومعهم سلب وحبال فيها كلاليب، فإذا مرَّ بهم أحد ألقوها عليه، ونشلوه في أسرع وقت وشرحوا لحمه وأكلوه[٥].

---

(١) القلقشندي، مآثر الانافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، ط٢، ١٩٨٥، ج٢، ص٨١٧.
(٢) ابن تغري بردي، النجوم، ج٥، ص١٦.
(٣) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط ٢، ٢٠٠٠، ص٢٠٤.
(٤) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٢٩٧ و٣٠٠.
(٥) المقريزي، اغاثة الأمة بكشف الغمة، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ١٩٨٠، ص٥٩.

إلى جانب ذلك، اندلعت حروب في مصر ساهمت إلى حد بعيد في زيادة أعداد القتلى واضمحلال الموارد الاقتصادية، من بين تلك الحوادث ما وقع في «كومة الريش» من معارك عام ٤٦٤هـ، بين الأتراك والمغاربة، أسفرت عن مقتل قرابة اثني عشر ألفاً[(١)] وحصلت فتن ومنازعات بين الأتراك بقيادة ابن حمدان والعبيد من ناحية أخرى، إذ كانت العناصر التركية من أنصار الخليفة المستنصر في حين أن العبيد (السودان) كانوا من اتباع والدته وتعينهم بالأموال والسلاح، وقد قتل نتيجة ذلك من الطرفين أعداد كبيرة وترتب على ذلك زيادة الاضطراب في البلاد[(٢)].

وقد انهارت القوة الشرائية للعملة، وارتفعت أسعار المواد الغذائية، حتى أن حارة بالفسطاط بيعت بطبق خبز، كل رغيف منه بمنزل، فعرفت لذلك بحارة الطبق[(٣)].

وبلغ الغلاء ذروته آنذاك، وقد رويت حوادث عدَّة حول ذلك يظهر من خلالها صعوبة المرحلة ودقتها، إذ ذُكر أنَّ امرأة كان لها حُلي باعت ما يوازي ألف دينار بثلاثمائة دينار واشترت بالمبلغ حنطة، فنُهبت منها في الطريق، فنهبت مع من نهب، فحصل لها ما جاء رغيفاً واحداً[(٤)]، وهناك قصة مشابهة، إذ أن بعض أهل الثراء وقف بباب قصر الخليفة المستنصر وصاح واستصرخ إلى أن أُحضر بين يدي الخليفة، فطلب منه أن يعرض حاجته، فقال له: يا مولانا، هذه سبعون قمحة وقفت عليَّ بسبعين ديناراً، كل قمحة بدينار، في ايامك، وهو أني اشتريت أردب قمح بسبعين ديناراً، فنُهب مني فنهبت مع من نهب، فوقع في يدي هذه[(٥)]. وورد أنه

(١) ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، دار الصحوة، القاهرة، لا،ت، ص١٠٥.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٨ و١٩. وما يُذكر، في هذا الصدد، أن الحسن بن الحسين بن حمدان هو من أُسرة الحمدانيين التي كانت تحكم حلب، وقد ولّته الخلافة الفاطمية على دمشق عام ٤٣٣هـ/ ١٠٤١م، ثم تولى حكم الريف في مصر. وقد قاد الاتراك خلال فترة ما عُرف بالشدة التي اصابت مصر.

(٣) المقريزي، إتعاظ الحنفا، ج٢، ص٢٩٧ و٣٠٠.

(٤) النويري، نهاية الارب، في فنون الأدب، تحقيق محمد محمد أمين ومحمد حلمي محمد أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣، ج٢٨، ص٢٣٤.

(٥) النويري، نهاية الارب، ج ٢٨، ص ٢٣٤.

خرجت امرأة من القاهرة، في هذا الغلاء، ومعها مد جوهر، فقالت: من يأخذ هذا ويعطيني عوضه دقيقاً أو قمحاً؟ فلم يلتفت إليها أحد، فألقته في الطريق وقالت: هذا لا ينفعني وقت حاجتي فلا حاجة لي به بعد اليوم، فلم يلتفت إليه أحد وهو مبدَّد في الطريق(١).

وحتى أن الناس أكلت الجيف والميتات، ووقف بعضهم في الطرقات، فكان القتل مصير من يظفرون به.

وفي الاتجاه نفسه، يشير القلقشندي إلى هذه الأوضاع السَّائدة، بقوله آنذاك: «ولم يبق في مصر إلاَّ صُبابة من الناس»(٢). وتؤكد حفريات كوبياك وسكانلون التخلّي عن المسكن الفقير وهجرته في الجزء الشرقي من الفسطاط، ويعزو المؤرخ رولان بيير تهدم مدينة المقابر الفاطمية في منطقة اسطبل عنتر الطرفية يُعبّر عن تفسُّخ الخلافة وتدهور المدينة آنذاك(٣).

ويقدر بعضهم أنَّ هذه الأزمات قد أفنت ثلثي أهل مصر، خصوصاً وأن الجدري انتشر بين الأطفال حتى أفنى عدداً كبيراً(٤).

فالمجاعة، وهي إحدى ظواهر هذه الأزمة المستفحلة آنذاك لها أسبابها الموضوعيَّة، ومن بينها: ضعف السلطة المركزيَّة، والفتن والمنازعات، وتزايد نفوذ السُّلطة العسكريَّة فضلاً عن نقص منسوب مياه النيل، وعوامل طبيعية مختلفة، كانتشار الأوبئة والأمراض وغيرها. ويعلل المقريزي هذه الظَّاهرة في كتابه «إغاثة الأمة بكشف الغمة» إذ يعتبر أن المجاعات وأمثالها ليست شيئاً مفروضاً على الإنسان من عل، ينزل بأمر، ويرتفع بأمر، كما أنها ليست ناجمة عن جهل الطبيعة وعماها، دون أن يكون للإنسان نصيب فيها، بل هي ظاهرات ماديَّة اجتماعية، لم تلازم البشر دائماً، ولكنها تقع آناً، وتنقطع آناً آخر: تقع عندما تجتمع أسبابها

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم، ج٥، ص٨٣.

(٢) القلقشندي، مآثر الانافة، ج٢، ص٢٥، والصبابة: البقية القليلة، وتقال لبقية الماء ونحوه في الاناء (المعجم الوسيط مادة «صب» ص ٥٠٥).

(٣) اندريه ريمون، القاهرة تاريخ حاضرة، ص٧١.

(٤) أحمد السيد الصاوي، مجاعات مصر الفاطمية، دار التضامن، بيروت، ١٩٨٨، ص٦٨.

ودواعيها، وتنقطع عندما تنقطع الأسباب والدواعي[1].

ويعلّق النويري على ذلك بأن الغلاء الذي أصاب مصر لم يكن عن نقص النيل، وإنما كان لاختلاف الكلمة وحروب الأجناد، وتغلُّب المتغلّبين على الأعمال. وكان النيل يزيد ويهبط في كل سنة، ولم يجد من يزرع الأراضي[2].

ويشير بعض المؤرخين إلى الأسباب عينها بقولهم: إنَّ الكوارث التي نزلت بمصر وقتذاك لم تكن ترجع إلى أسباب طبيعيَّة لا يَدَ للإنسان فيها بقدر ما كانت تعود إلى عجز النظام السياسي القائم حينذاك عن إيجاد حل للتناقضات بين القوى الانتاجية وعلاقات الانتاج[3].

وعليه، فإن مهمة إنقاذ البلاد من هذه المآسي تحتاج إلى قوة عسكرية قادرة على فرض النظام وإنهاء حالة الفوضى، وهذه القوة ينبغي أن تتمتع بالمهابة والقدرة، وقد تمثلت ببدر الجمالي. من هنا نفهم دوافع دعوة المستنصر بالله لبدر الجمالي واستجابة الأخير لها، ولو بشروط. فقد رأى فيها الخليفة محاولة أخيرة لإنقاذ البلاد من المأزق الذي وقعت فيه، وإعادة الهيبة للدولة. أما بدر، فقد وجد في الاستجابة لطلب المستنصر فرصة ذهبية يحقّق من خلالها طموحه في تبوّء مراكز عُليا في الدولة.

٢ - بدر الجمالي يتولى منصب الوزارة الفاطمية:

ونحن نتحدَّث عن تحول بدر الجمالي وانتقاله من الدور العسكري إلى المهام السياسية، المتمثلة في الوزارة، لا بُدَّ من الإشارة إلى موضوع هام، وهو أنه لم يسبق لأرمني أن تولَّى منصب الوزارة في الدولة الفاطمية قبل بدر، ولم يكتفِ بذلك بل إنه مهد السبيل، أمام أُسرته للاستئثار بهذا المنصب من بعده، وهذه أول مرَّة تجري فيها وراثة منصب الوزارة، حيث يعهد بها الوزير القائم لابنه كي يتولاها من بعده.

(١) المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص٤٣.
(٢) النويري، نهاية الأرب، ج٢٨، ص٣١٣.
(٣) أحمد صادق سعد، تاريخ مصر الاجتماعي الاقتصادي، دار ابن خلدون، بيروت، ط١، ١٩٧٩، ص٢٦٤.

تجدر الملاحظة إلى أن بدراً الجمالي كان أول قائد عسكري يولّيه الفاطميون مهام الوزارة، وأصبحت هذه منذ تولاها بدر، تقوم مقام السَّلْطَنة، أو كما يقول القلقشندي: «إنَّ الوزير إذ ذاك كان في منزلة السّلطان الآن»(١). ويتَّضح ذلك ممَّا وَرَدَ في سجلٍ تولية بدر على لسان الخليفة المستنصر بالله حيث يقول: «... وقد قلَّدك أميرُ المؤمنين جميع جوامع تدبيره، وناط بك النظر في كل ما وراء سريره، فباشر ما قلَّدك أمير المؤمنين من ذلك مدبّراً للبلاد ومُصلحاً للفساد ومدمراً أهل العناد»(٢).



(١) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٢، ج١٠، ص٨٠.
(٢) ابن حجر العسقلاني، رفع الأصر عن قضاة مصر، ج١، ص١٣٢.

رابعاً: نتائج تولي بدر الجمالي الوزارة

١ - منزلته فاقت منصب الوزارة:

حينما وصل بدر الجمالي إلى مصر وولّي وزارة التفويض في عهد المستنصر بالله الفاطمي لم يكن ذلك ليفيد أنَّه ارتقى بهذا المنصب، بل إنَّ معظم المؤشرات تدلُّ على طموحٍ له أوسع من ذلك. وقد ذُكر أنه في عام أربعمائة وثمانية وستين هجرية لبس أميرُ الجيوش بدر الجمالي من المستنصر بالله خلعة الوزارة، وكانت منزلته أجلَّ من الوزير إذ ذاك، ولكنَّ الحكمة من وراء ذلك أنّه لبس خلعة الوزارة حتَّى لا يترتَّب أحدٌ غيره فيها، فينازعه في الأمر[1]، وهو لم يَرَ في الوزارة سوى جسر عبور إلى تحقيق مطامحه وأهدافه الكبيرة. ومن مظاهر ذلك أنه أرسى تقليداً استمر مذ توليه الوزارة إلى نهاية الدولة الفاطمية، وهو أن يكون الوزير وزير تفويض من رجال السيف، لا من رجال القلم، كما كان الحال في النصف الأول من حياة الدولة حيث كان الوزير من رجال القلم، ووزارته وزارة تنفيذ، ومعنى وزارة التفويض أن يجمع الوزير في يديه السلطتين المدنية والسياسية وأن يستحوذ على مقدرات الدولة كافة[2].

ومما عمله بدر، أنه لما جاء إلى مصر خُلع عليه بالعقد المنظوم بالجوهر مكان الطوق، وزِيد له في زيه الحنك مع الذؤابة المرخاة والطيلسان المقور، وهو زيّ قاضي القضاة، كما كان يتقلَّد السيف، وذلك إشارة إلى أنه كبير أرباب السيوف والأقلام[3] ويؤكد على ذلك ما وقعت عليه في بعض الوثائق الفاطمية حيث يشيد

---

(١) حسن الباشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، الدار الفنية، القاهرة، ١٩٨٩، ص٧١ و١٢٩.

(٢) يورد المقريزي ملاحظة في هذا الجانب، تؤيد ما ذهبنا إليه حيث قال عن بدر الجمالي. . . «وصارت الوزارة من حينئذن وزارة تفويض يُقال لمتوليها أمير الجيوش، وبطل اسم الوزارة»، الخطط، ج ١، ص ٤٤٠.

(٣) سأعالج هذا الموضوع مفصَّلاً في الفصل الثاني من هذه الدراسة.

الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ببدر الجمالي، ويخاطبه بـ: «السيد الأجل، أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الإمام، كافل قضاة المسلمين، وهادي هداة المؤمنين، أبا النجم بدراً المستنصري - عضد الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته - وهو الفرد في هذا الزمان، الناظر بنور الإيمان، الشاهد بفضائله على كل إنسان كل لسان...»[1]. مستعيضاً عن لقب «الوزير الأجل» بلقب «السيد الأجل أمير الجيوش» الذي كان لقباً عاماً لصاحب ولاية دمشق. وقد تلقب به جميع من جاء بعد بدر الجمالي من أمراء الجيوش حتى نهاية العصر الفاطمي، فكان الخليفة يُوقّع على الظلامات والمسامحات بخطه: «وزيرنا السيد الأجل... أمتعنا الله ببقائه يتقدم بنجاز ذلك إن شاء الله تعالى». وفي هذا إشارة إلى انتقال السُّلطة في مصر إلى أيدي رجال الحرب. وقد أضاف بدر الجمالي إلى ألقابه ألقاباً أخرى تشي باستئثاره بالسلطتين القضائية والروحية، إلى جانب سيطرته الكاملة على مؤسسة الجيش، وقد أُضيف إلى ألقابه نحو سنة ٤٧١هـ / ١٠٧٧م «كافل قضاة المسلمين، وهادي المؤمنين، وناصر الإمام»[2].

---

٢ - معالجته للأزمات الاقتصاديّة واهتمامه بالنواحي الإدارية والمالية:

قام بدر الجمالي بأعمال ساهمت إلى حد بعيد في تحسين الأوضاع وانقاذ الدولة وقمع الفساد وضبط الأمور، إذ أنه لما تولى مسؤولياته في الدولة كانت عليه مهمة شاقة تمثلت باعادة تنظيم الدولة وانقاذ اقتصاد البلاد. فبعد قضائه على أسباب الفساد، اهتم بالنواحي المالية فأطلق الخراج للمزارعين ثلاث سنين، ثم جنى نصف الخراج في السنة الرابعة[3] وكان من مظاهر الشدة العظمى التي استمرَّت سبع سنين إهمال الزراعة وارتفاع اسعار الحبوب، وحين ولي بدر الجمالي الوزارة سعى لتنظيم الزراعة، وهذا ما أسهم في تراجع الاسعار، حتى صار القمح يُباع بسعر زهيد، إذ

---

(١) عبد المنعم ماجد، السجلات المستنصرية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٤، ص٥٣.
(٢) عارف تامر، المستنصر بالله الفاطمي، دار المسيرة، بيروت، ط١، ١٩٩٠، ص٤٢.
(٣) ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٣٠.

بيع «التليس بربع دينار»[(١)] ساعد على ذلك عودة منسوب مياه النيل إلى وضعه الطبيعي إذ بلغ في ارتفاعه آنذاك خلال عام ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م نحو ثمانية عشر ذراعاً، فزرعت الأرض أول سنة بعد الشدة، فجاءت المحاصيل الزراعية وفيرة من جميع الاصناف[(٢)] ووجه اهتمامه إلى اصلاح البلاد وعمَّر الريف وأصلح الترع والجسور حتى صلحت الأحوال واستغنى أهل الريف، وشعر الفلاحون بالأمن والرخاء، ولتنظيم الرقابة أعاد تقسيم البلاد إدارياً إلى واحد وعشرين عملاً وقسّم الأعمال إلى نواحٍ، والنواحي إلى كفور وقرى. أما كلمة كورة وجمعها كور - بمعنى مركز، التي كانت اساس التقسيم الاداري القديم، فلم يعد لها وجود[(٣)].

وقسمت مصر في عهده تقسيماً جديداً بحيث أصبحت أربع ولايات رئيسية: قوص، والشرقية، والغربية، والاسكندرية، اضافة إلى القاهرة والفسطاط. وقد حفظ هذا النظام الجديد لحكام هذه الولايات سلطة متزايدة. وكان والي قوص أقوى الولاة الأربعة ويحكم على جميع بلاد الصعيد، وتلي رتبته رتبة الوزير في الأهمية، وقد اتّبع الفاطميون استراتيجية شرقية، تولّى فيها والي قوص أمر الاشراف على الاسطول المعد في ميناء عيذاب لحماية «مراكب الكارم» من غارات القراصنة. أما والي الشرقية، فكان يلي والي قوص في الرتبة ويحكم على عمل بِلْبَيْس وقليوب وأشموم[(٤)].

كما شجع أصحاب رؤوس الأموال وذوي اليسار بالحضور إلى مصر، فكثر ورود التجار في أيامه بعد نزوحهم عنها وخروجهم أيام الغلاء وأخذت القوافل ترد من كل مكان[(٥)].

واستطاع بعزمه ومهارته أن يُعيد إلى مصر الفاطمية الرخاء الذي عرفته قبل

---

(١) ابن حجر، رفع الاصر، ج١، ص٥٩.
(٢) ابن المقفع، ذيل سير الآباء، ص٨٧.
(٣) أبو صالح، تاريخ الكنائس والأديرة، ص ١٩.
(٤) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية في مصر، ص٢١٧.
(٥) محمد حمدي المناوي، المرجع السابق، ص١٤٦؛ علي حسني الخربوطلي، مصر العربية الإسلامية، مكتبة الانجلو المصرية، ص١٦٦.

الشدة العظمى التي استمرَّت سبع سنوات (٤٥٧-٤٦٤ هـ) فزاد خراج مصر في أيامه زيادة كبيرة جداً، فبعد أن كان خراج البلاد قبل توليه الوزارة يبلغ ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار أصبح ٣,١٠٠,٠٠٠ دينار في عام ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م[١].

على صعيد آخر، وبما يتعلَّق بكيفية الاقطاع وجباية الضرائب، كانت لبدر الجمالي اسهاماته في هذا المجال، إذ انه فور وصوله إلى مصر وعمله على التخلص من الامراء المصريين جعل لكل واحد من قواده الأرمن قتل احد الامراء المصريين «سائر ما بيد ذلك الأمير من إقطاعٍ وجارٍ ودارٍ ومالٍ وجوارٍ وغير ذلك»[٢]. ويبدو انَّ الدولة الفاطمية بدأت منذ هذه المرحلة تستخدم نوعاً من الاقطاع في تدبير شؤون جزء من جيشها، فمنذ وصول بدر الجمالي إلى السلطة أخذ العسكريون يحلون تدريجياً محل أرباب القلم في جباية الخراج، وجُعلت لكل من أولئك الجباة العسكريين جهات ذات قيمة ضرائبية يؤدونها للدولة أُطلق عليها «اقطاع» هي عبارة عن منطقة زراعية مؤجَّرة مقابل مبلغ اتفاقي يُطلق عليه «قبالة» ويسمّى المزارع المقيم في البلد «فلاحاً قراراً»، كما أُطلق على القيمة الضرائبية «عبرة»[٣]، بمعنى ان يتعهد كل مُقْطَع من أولئك المقْطَعين بدفع مقادير معينة من الحصالات الضرائبية السنوية للإنفاق منها في أوجه نفقات الدولة ومصالحها، ويحتفظ لنفسه ببقية عائد الاقطاع. ولم يكن هذا الإقطاع الذي أدخله بدر الجمالي بحالٍ من الأحوال اقطاعاً عسكرياً، بل وسيلةً ماليةً لإعادة زيادة انتاجية الأرض الزراعية بعد سنين الجفاف التي صاحبت الحرب الأهلية والازمة الاقتصادية في عقدي الستينيات والسبعينيات من القرن الخامس الهجري[٤].

وإذا أردنا إعطاء لمحة موجزة عن انجازات بدر الجمالي، يمكننا القول إنَّه أنقذ

---

(١) Stanly. Lane-poole, A history of Egypt, in the middle ages, london, 1901, P151.

(٢) المقريزي، المقفى الكبير، ج٢، ص٣٩٦.

(٣) العبرة: مقدار المربوط من الخراج أو الأموال على كل اقطاع من الأراضي وما يُتحصَّل من كل قرية من عين وغلة. ابن مماتي، قوانين الدواوين، ص٣٦.

(٤) Rabie, H,the Financial system of Egypt 564-641/1169-1341, London, 1972, P43.

مصر من الفوضى العارمة، وعالج الفقر معالجة جذرية، وأعفى الفلاحين من الضرائب مدّة ثلاث سنين، فأنقذ بعمله هذا البلاد من المجاعة المستشرية.

إلى جانب الاصلاحات التي أدخلها على نظم الإدارة الفاطمية في مصر، فقد عيَّن مراكز الولايات التي تتحكم في مصر العُليا والسُّفلى لتأمين الطرق المؤدّية إلى مراكز البلاد إلى جانب إنشاء العديد من التحصينات المتقدمة التي تصدُّ ما يمكن أن تتعرَّض له البلاد من أخطار.

وقد أحدث تغييرات عدّة في المواريث، حيث كانت الدولة الفاطمية تُلزم رعاياها باتّباع الفقه الشيعي في الميراث، إلى أن وضع أمير الجيوش، زمن وزارته، نظاماً جديداً، قاعدته «إن كل من مات يُعمل في ميراثه على حكم مذهبه»[١]، وقد أدَّى ذلك إلى أن يؤول كثير من أموال المواريث إلى ديوان المواريث الحشرية.

٣ - وفاة بدر الجمالي:

اختلف في وفاة بدر الجمالي، فقد ورد في المقريزي[٢]، أنه توفي في سنة أربعمائة وسبع وثمانين هجرية/ ١٠٩٤ ميلادية، في شهر جمادى الأُولى، وعند غيره في شهر ربيع من دون تحديد أي الربيعين، أمَّا النويري فيحدّد وفاته في شهر ربيع الأوَّل، ويذكر ابن الأثير أن وفاته كانت في ذي القعدة، فيما يشير ابن القلانسي إلى أن وفاة بدر حصلت في العاشر من شهر جمادى الأولى ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م، وقد عُرف مكان قبره بالتربة الجيوشية خارج باب النصر بحري مصلّى العيدين وقد اتخذ الناس هنالك مقابر موتاهم. وما زالت هذه التربة باقية إلى الآن خارج باب النصر، وتُعرف بقبة الشيخ يونس، وقد سُمّي المقطّم بـ «جبل الجيوشي»، لأنه شيّد عليه مشهداً يزعم الناس أن «سيدي الجيوشي مدفون فيه»[٣].

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٨٩.

(٢) المقريزي، الخطط، ج٢، ص٣٥.

(٣) فؤاد افرام البستاني، دائرة المعارف، ج١٠، ص٣٤٩؛ Yusuf Ragib,art. "Notes Et Documents Le Mausolée De Yunus Al-Sa'di Est-il celui De Badr-Al-Gamali", ARABICA, Année 1973,.. Leiden 1973.

يقول ابن تغري بردي في «النجوم الزاهرة»: إن السنة التي مات فيها بدر الجمالي سُمّيت «سنة موت الخلفاء والأمراء»، ففيها مات الخليفة المقتدي بأمر الله العباسي، وآق سنقر (والد زنكي) صاحب حلب مات قتلاً، وبوزان بالشام، وبدر الجمالي بمصر، ومحمد بن أبي هاشم أمير مكة، والخليفة المستنصر بالله الفاطمي في مصر[١] عن عمر يناهز السابعة والستين، قضى منها في الخلافة ستين سنة.

استمر حكم بدر الجمالي في مصر الفاطمية إحدى وعشرين سنة وأشهراً، ابتدأت في جمادى الأولى من عام أربعمائة وستة وستين هجرية واستمرت حتى ربيع الثاني من عام أربعمائة وسبعة وثمانين هجرية.



(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص١١.

الفصل الثالث

الدعوة الفاطمية
في
عهد الأسرة الجمالية

أولًا: لمحة في أصول الإسماعيلية

عُرفت الإسماعيلية، احدى فرق الشيعة، بنسبتها إلى إسماعيل بن جعفر الصادق. قالوا بنبوة محمد ﷺ، ووصاية علي بن أبي طالب، وإمامة ابنه الحسن، فالحسين، فعلي بن الحسين زين العابدين، فمحمد بن علي الباقر، فجعفر بن محمد الصادق، فهم على هذا النحو يتفقون في تسلسل الإمامة مع الشيعة الاثني عشريَّة. وبعد وفاة جعفر الصادق سنة ١٣٨هـ / ٧٥٥ م، انقسم الشيعة إلى فرقتين أساسيتين: فرقة قالت بإمامة إسماعيل بن جعفر وهي الإسماعيلية، وتعتقد بانتقال الإمامة من إسماعيل إلى ابنه محمد المكتوم، ثم إلى ابنه جعفر الصدق، ثم إلى ابنه محمد الحبيب، ثم إلى ابنه عبيد الله المهدي أول خلفاء الفاطميين ببلاد المغرب، وهو جدُّ الخلفاء الفاطميين بمصر.

وفرقة ثانية، قالت بإمامة موسى بن جعفر وهي الإمامية الاثنا عشرية، وتسوق الإمامة بعده إلى ابنه علي بن موسى الرضا، ومن بعده إلى محمد بن علي الجواد، ثم إلى علي بن محمد الهادي، ثم إلى الحسن بن علي العسكري، فمحمد بن الحسن المهدي.

إنَّ الإمامة لدى الشيعة الإسماعيلية تقتضي أن تنتقل من الأب إلى الابن، ولا تنتقل من أخ إلى أخ بعد انتقالها من الحسن إلى الحسين ابني علي بن أبي طالب، فالأب ينصُّ على ابنه في حياته. وهذه العقيدة أصل من أصول المذهب في تسلسل الإمامة عند الإسماعيليين. وقد أوّلوا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[(١)] بأنَّ الله سبحانه وتعالى لا يترك العالم خالياً من إمام ظاهر مكشوف، أو باطن مستور، تنتقل الإمامة إليه بعد أبيه الإمام من نسل علي بن أبي طالب[(٢)].

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٢٨.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص٢٣٦؛ محمود حلاوي، النثر الفني في العصر الفاطمي، اطروحة دكتوراه، الجامعة اللبنانية، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، إشراف د.أسعد ذيبان، نوقشت عام ١٩٩٣، ص٤٠؛ =

ويكمن سبب التزام الإسماعيليين بهذا النظام من نظم الوراثة أنهم كانوا يعتقدون أن للإمامة صفاتٍ وعلوماً خاصة تنتقل بالوراثة كما تنتقل الصفات الخَلْقِيَّة تماماً، وربما كان لهذا النظام بعض الفوائد كونه كان عاملاً من عوامل الاستقرار، وقد جنَّب الأسرة والدولة - إلى حدٍ كبير - عوامل المنافسة والنزاع والتخاصم في سبيل العرش(١).

إنَّ الشرط الوحيد اللازم توافره في شخص الإمام لديهم هو «الوصيَّة» أي النصّ عليه من الإمام السابق، وبالتالي فلا يتطلَّب الفاطميون تحقق شروط خاصة في الإمام أو الخليفة مثل التي يتطلبها كثير من المذاهب الإسلامية، الذين يبيحون أن تنتقل الخلافة أحياناً إلى الأخ أو إلى ابن العم أو إلى أكبر أفراد الأسرة سناً.

والإسماعيلية يتَّفقون على أنه لا بد من إمام معصوم، ظاهر أو مستور. فالأئمة الظاهرون هم الذين يُظهرون أنفسهم ويدعون الناس إلى إمامتهم، والمستورون هم الذين يستترون ويُظهرون دعاتهم. وآخر الظاهرين عندهم إسماعيل الذي يُنسبون إليه، وأول المستورين ابنه المكتوم(٢).

ولعلَّ من أبرز ما يُمكن أن يُستنتج من عقائد الإسماعيليين من خلال ما ذكر في كتبهم ومصادرهم، هو هذه القواعد الأساسية:

- توحيد الله وتنزيهه ونفي الإشراك والقرناء له.
- الاعتراف بالأنبياء والرسل وأنهم معصومون من كلّ خطأ وأنَّ محمداً خاتم النبيين.
- القول بإمامة علي بن أبي طالب وولاية الأئمة من ذريته وعصمتهم جميعاً.
- التصديق بما جاء به القرآن الكريم والعمل به ظاهراً وباطناً.
- إبطال الرأي والقياس في كل أمور الدين ووجوب الأخذ عن الأئمة...(٣).

= Robert. L.Tignor, art. "Egypt", Encyclopedia Americana, U.S.A, 1997, p.12.

(١) جمال الدين الشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ص٢٠.

(٢) القلقشندي، المصدر نفسه، ج١٣، ص٢٣٩.

(٣) الملطي، المجالس المستنصرية، تحقيق محمد زينهم، محمد عزب، مكتبة مدبولي، =

- وجوب معرفة إمام الزمان، وإن من مات ولم يعرف إمام زمانه أو لم يكن في عنقه بيعة إمام مات ميتةً جاهلية.

- إن العلم لا يكون إلاّ بالتعلم من الأئمة خاصة، وإن الأئمة هم هداة الناس.



= القاهرة، ط١، ١٩٩٣، ص٤؛ Farhad Daftary, art. "The Earliest Ismailis ARABICA, année 1991, Leiden 1991, P.215.

ثانياً: تنبه الدعاة حول مستقبل الدعوة

إنَّ خطورة الوضع السَّائد آنذاك في الدولة الفاطمية من جراء ضعف مقام الخلافة الفاطمية لصالح منصب الوزارة، ومن ثم انتقال الوزارة من وزارة تنفيذ إلى تفويض، على يدي أرباب السُّيوف، بدءاً ببدر الجمالي دفعت دعاة الفاطميين لإدراك حقيقة ما يجري وما يُخبئه القدر من خطرٍ على مستقبل الدعوة الفاطمية. ومن بين هؤلاء الّذين شعروا بذلك كان داعي الدعاة، المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي - الذي يُعدُّ آخر أهم الدعاة الفاطميين[1] - وهو كان قد لعب دوراً هاماً في بلاد فارس لاظهار الدعوة للفاطميين، وساعد أبا الحارث أرسلان البساسيري لاقامة الدعوة الإسماعيلية في بغداد، وتبرز أهميته كذلك في دفنه في دار الحكمة عند وفاته[2]؛ حيث أدرك حقيقة هذا الموقف ودقته، فأشار في «سيرته الذاتية» - التي كتبها قبل قدوم بدر الجمالي إلى مصر بأكثر من عشر سنوات - إلى مدى ضعف الخلافة، وكيف أصبح المستنصر أُلعوبةً في أيدي وزرائه[3]. وتنبّه أيضاً إلى ما يمكن أن يصيب الدعوة والعقيدة الفاطمية في ظلِّ سيادة الوزراء، عندما رأى تدخّلهم بشؤون المذهب، وعدم تمسّكهم بنصوصه وقواعده، واهمالهم لأحكامه، اثر قدوم بدر الجمالي إلى مصر عام ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م، فعمل - لأجل ذلك - على نقل تراث الدعوة من مصر إلى اليمن وذلك قبل وفاته عام ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م، بواسطة

---

(١) المقريزي، الخطط، ج ١، ص ٣٨٢.

(٢) وُلد إما سنة ٣٩٠هـ وإما سنة ٤٠٠هـ ، في شيراز حيث كان أبوه داعية للمذهب الفاطمي هناك، اضافة لتمتعه باحترام الناس وتقديرهم له. أخذ المؤيد يترقّى في مدارج الدعوة الإسماعيلية وقد سافر إلى الأهواز والموصل حيث بث الدعوة هناك، وقرر بعدها الرحيل إلى مصر ليصلها سنة ٤٣٩هـ ، ويتقلّد فيها ديوان الانشاء. وقد توفي سنة ٤٧٠هـ . ابن عبد الرحمن الملطي، المجالس المستنصرية، ص٧.

(٣) المؤيد في الدين، سيرة، ص٨٤؛ H.A.R.GIBB and P.KRAUS, art. "ALMUSTANSIR". EI2, VII, P.732.

رسله ودعاته حيث يوجد هناك مؤمنون حقيقيون بالدعوة الفاطمية حسب اعتقاده[١].
وأميل إلى الاعتقاد بأنَّ هذا الاجراء من كبير دعاة الفاطميين وقتئذٍ يدعو إلى التوقف عنده ملياً، إذ تصوّر هذا الداعية أنه حتى في قلب موطن الإسماعيلية ومركزها فانها تتعرَّض لخطر حقيقي، ليس من قبل عدو خارجي، وإنما من داخل أعمدة الدولة آنذاك عبر ما كان يقوم به الوزراء من تقييد لحركة الدعوة.

إنَّ هذا الداعية الإسماعيلي قد استشرف المستقبل ورأى الأوضاع على حقيقتها، واستوعب دقائق المرحلة، وهذه المسائل قد لا يدركها معظم الناس، وقد صدق حدسه، إذ بعد وفاته أضاف الخليفة المستنصر بالله إلى مهام أمير الجيوش بدر الجمالي وظيفة أُخرى وهي الاشراف على القضاء والدعوة وذلك في شهر شعبان سنة ٤٧٠هـ/ مارس ١٠٧٨م، وزاد في ألقابه لقباً آخر تأكيداً على هذا المعنى وهو «كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين»[٢].

يؤكد ذلك أنَّ الكتابتين التاريخيتين اللتين تحملان اسم بدر الجمالي، ويرجع تاريخهما إلى صفر وربيع الأول سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م، والسجلات المدوّنة قبل ٣٠ ذي القعدة من العام نفسه لا تشير إلى هذه الألقاب[٣].



(١) أيمن فؤاد سيد، تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٨، ص١٣٧.
(٢) ابن حجر، رفع الأصر، ج١، ص٢١٠.
(٣) ابن الطوير، نزهة المقلتين في أخبار الدولتين، ص٤٦، Hamdani, H. "Some unknown ismaili authors and their works" JRAS (1933) PP.362,376,377.

ثالثاً: تأثير الأُسرة الجمالية في الدعوة الفاطميَّة

مارست الأُسرة الجمالية دوراً كبيراً في تاريخ الدعوة، كان له أثره البالغ في مسار العقيدة وحياة الدولة نفسها. سنحاول عرض أعمال الجماليين على الصّعيد الديني التي اختلفت ردّات الفعل تجاهها والموقف منها.

١ - بدر الجمالي والدعوة الفاطمية:

يقتضي الأمر منّا، بادىء ذي بدء، معرفة عقيدة بدر الجمالي، قبل تناول دوره في الدعوة الفاطميَّة.

يستفاد مما ذكره المؤرّخون[١] أنَّ بدراً الجمالي كان شيعيَّاً على مذهب الدولة الفاطمية، ولو ان الفاطميين لم يتبنَّوا شرط آن يكون وزراؤهم على مذهبهم، ويدل على ذلك أنه كان من بين وزرائهم اليهودي والمسيحي والمسلم السني، دون أن يُسبِّب هذا إحراجاً لهم.

وممَّا قام به بدر الجمالي في مجال العقيدة والدعوة أنه حمل الناس أَن يكبروا خمساً على الجنائز، وأن يسدلوا أيمانهم في الصلاة، وأن يتختموا في الأيمان، وأن يثوبوا في صلاة الفجر «حيّ على خير العمل» وقد حبس أقواماً رووا فضائل الصحابة[٢]. ما يعني أن بدراً الجمالي كان متحمساً لمذهبه، يعمل على ترسيخ قواعده وأُسسه عبر فرض أحكامه على السكان. وأنه نظم أحوال المذهب الفاطميّ الذي خَفَّ وهجه بسبب ضعف الخليفة الفاطمي ووزرائه؛ الأمر الذي جعل النَّاس لا يعيرون اهتماماً للمذهب وشعائره. كما رتّب بدر دروساً في المذهب، فعُرف بالباب أو باب الدعوة لذلك، وهي مرتبة من مراتب الدعوة[٣].

(١) ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٣٢

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج٩، ص١٦.

(٣) السجلات المستنصرية، سجل رقم ٥٩، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٢٠.

ثمة أمر آخر، عمله بدر الجمالي، بعد استتباب الأُمور له في مصر، كان له أثره البعيد في الدعوة الإسماعيلية، وهو أن أصبح الوزراء منذ بدر المشرفين على شؤون الدعوة والدعاة، وبذلك سيطروا سيطرة تامة على المذهب، ولم يعد القائم بالدعوة يخضع لسلطة الخليفة الذي كان يفوّض هذا المنصب إلى شخص يحمل هذا اللقب(١)، بل أصبح وزير التفويض، بدءاً من بدر الجمالي، له سلطة داعي الدعاة، وتلقب بـ«هادي دعاة المؤمنين»، ويعمد الوزير بنفسه إلى تقليد سجل التولية إلى نائب عنه يحمل لقب «داعية» فقط، ويقوم بمهام الدعوة كلها(٢).

---

٢ - الأفضل الجمالي والدعوة الفاطمية:

كانت للأفضل الجمالي مواقف بارزة في مسار الدعوة الفاطمية، إذ عمد إلى إحداث تغييرات هامة في قواعدها، تمثلت في اسهامه بالبيعة لابن المستنصر بالله الأصغر أحمد الذي منحه لقب المستعلي بالله. بناءً على ذلك، ثار جدل واسع بعد وفاة المستنصر بالله ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م، حول من يخلفه وكان ذلك بمثابة أعظم أزمة داخلية تتعرَّض لها الدولة الفاطمية، وقد دارت حول مزاعم كُلٍّ من ولدي المستنصر بالله نزار والمستعلي وأحقيتهما بالخلافة(٣).

ظهرت بوادر الخلاف، عندما سارع الأفضل الجمالي بدخول قصر الخلافة في يوم وفاة المستنصر (١٨ ذي الحجة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) وأجلس أبا القاسم أحمداً على سرير الخلافة، وجلس هو على دكة الوزارة.

وقد أوفد الأفضل إلى الشريفة عمة أحمد، وهي أخت المستنصر. فقد كان لهذه العمة - على ما يبدو - طموحها للعب دور هام في الدولة، ويورد المؤرخون أَنَّ المستنصر ترك لها امر إعلان تولية خليفة عهده(٤)، ربما يكون تصرّف المستنصر

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص٤٣٤.
(٢) المقريزي، الخطط، ج ١، ص ٣٨٢، النويري، نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٠١.
(٣) ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٦٥، ابن منجب الصيرفي، الإشارة، ص ٥٩.
(٤) ابن خلدون، العبر، ج٤، ص٦٦.

نابعاً من رغبته لتجنّب قيام خلاف بين زوجاته، حيث إن كُلاً منهن تريد الخلافة لولدها، فلعلّه رغب أن يحل النزاع بعد وفاته، فوكل هذا الأمر لأُخته لما اتصفت به من شخصية قوية، كما يبدو كذلك أن الأفضل الجمالي ربّما قد اتفق معها على أن تكون لها كفالة الخليفة والدولة(١). وحضر قاضي القضاة المؤيّد بنصر الأنام علي بن نافع بن الكحال والشهود معه، وأخذوا البيعة على مقدّمي الدولة ورؤسائها وأعيانها(٢). اثر ذلك، سَيَّر الأفضل إلى نزار وعبد الله وإسماعيل، اخوة المستعلي بالله، من يعلمهم بوفاة أبيهم، والطلب إليهم بسرعة الحضور إليه، فلما جاؤوا وشاهدوا أخاهم الصغير وقد جلس على تخت الخلافة، امتعضوا من هذا التصرُّف، فقال لهم عندها الأفضل تقدّموا وقبّلوا الأرض لله تعالى ولمولانا المستعلي بالله وبايعوه، فهو الذي نصَّ عليه الإمام المستنصر بالله قبل وفاته بالخلافة من بعده، فأجابه نزار: لو قُطّعت ما بايعت من هو أصغر منّي سناً، وخطُّ والدي عندي بولاية العهد، وأنا أُحضره(٣)، وخرج مسرعاً من القصر، ليُحضر الخطّ. وقد كان هذا حجَّة من نزار، لكي يهرب من أمام قوة الأفضل، إذ كان لنزار قوم من رجال الدولة يؤيدونه للخلافة، بمن فيهم بعض المقرَّبين من بدر، والد الأفضل، لذلك مضى نزار إلى الاسكندرية، وأفلت من قبضة الأفضل. فأنفذ الأفضل وراءه جماعة كبيرة من الفرسان، ليقبضوا عليه ويعيدوه، فساروا في أثره فلم يلحقوه، ولم يعرفوا أي طريق سلك، فانزعج الأفضل لذلك اشدَّ الانزعاج(٤).

تحمل هذه الحادثة بعض الدلالات، من بينها سيطرة الأفضل على الخليفة

---

(١) ابن ميسر، أخبار، ص٦٧؛ السجلات المستنصرية، سجل رقم ٥١؛ نريمان عبد الكريم أحمد، المرأة في مصر في العصر الفاطمي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣، ص٢٢٧.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٤٣.

(٣) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٨، ص٢٢٤.
وقد اختلف المؤرخون حول حصول لقاء نزار مع أخيه المستعلي والأفضل في القصر أم لا. وهناك من يذهب إلى لقاء إسماعيل وعبد الله فحسب وقد استجابا لطلب الأفضل لمبايعة المستعلي، وبايعاه بالفعل. انظر: ابن ميسر، أخبار مصر، ص٣٥.

(٤) ابن الوردي، تتمة المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص٢٣.

الجديد، ومساهمته القوية في إيصاله لمركزه، ساعد على ذلك سرعته في المبادرة وتخطيطه المسبق وتخطّيه للعقبات، وقد ظهرت مواهب الأفضل من خلال اتفاقه مع الشريفة عمة الخليفة الجديد، ومن ثم استدعاء الاخوة والطلب إليهم بالمبايعة استجابة للأمر الواقع، ما يُنبىء عن مقدرة سياسية وبعد نظر من جانبه، لتأمين الاستقرار السياسي من جهة، وإمساكه بزمام الأمور بغطاء الشرعية الدينية المتمثلة بشخص الخليفة المعين من قبله.

لم تكن الأُمور لتقف عند هذا الحدّ، إذ بادر نزار بالخروج مع أخيه عبد الله ومعه محمود بن مصال اللكي(١) الذي وُعد من قبل نزار بتولّي منصب الوزارة إن أصبح هو الخليفة، إلى الاسكندرية وكان واليها ناصر الدولة افتكين(٢)، حيث عاونهم في مهمتهم وانضمّ إليهم، اضافة إلى ابن عمار، قاضي الاسكندرية، وكذلك وقف أهل الاسكندرية إلى جانب نزار؛ لأن بدراً الجمالي قد أساء معاملتهم عند ثورة ابنه الأوحد (ذو القعدة، عام ٤٧٧هـ / ١٠٨٤م). وقد شاءت الصدف أن يكون مصير كُلٍّ منهما غامضاً.

عندما وصل نزار إلى الاسكندرية، بويع بالخلافة عام ٤٨٧هـ / ١٠٩٤، ولقُب بـ«المصطفى لدين الله»، وقد استجاب لدعوته جمع غفير من العرب والسودان والمغاربة الذين استولوا على معظم الدلتا (بلاد الريف)(٣).

في المحرم من العام التالي (٤٨٨هـ / ١٠٩٥م)، خرج الأفضل الجمالي من القاهرة، وتوجّه إلى الاسكندرية لقتال نزار ومناصريه، حيث اندلعت معركة، هُزم على أثرها الأفضل ورجع من حيث أتى(٤)، ليعود إلى مهاجمتهم ثانية في العام نفسه

---

(١) يُنسب محمود بن مصال إلى بلدة الك، وهي من نواحي برقة، بين الاسكندرية وطرابلس الغرب، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٢٣.

(٢) الأمير ناصر الدولة افتكين التركي، أحد غلمان أمير الجيوش، بدر الجمالي، ترقى في الخدمة إلى أن ولاه الاسكندرية. المقريزي، المقفى، ج٢، ص٢٢٩.

(٣) المقريزي، الخطط، ج ٢، ص ٣٤.

(٤) ابن ميسر، أخبار مصر، ص ٣٥، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٤٥؛ عبد المنعم ماجد، المستنصر بالله ، ص١٩٥.

بعد أن جمع عسكراً كبيراً، كما أخرج من خزائنه أموالاً كثيرة وخلعاً وسلاحاً ليوزعها على جنوده، وقد استمال إلى جانبه جماعة من العربان ممن كانوا مع نزار. وبلغ القتال أشدّه في موقع كوم الريش بجوار القاهرة، ليعمد نزار وافتكين إلى التقهقر للاسكندرية. فحاصر الأفضل الاسكندرية براً وبحراً، وإن توقف القتال في شهر رمضان، لقيام فريضة الصيام، لكن وبعد انتهائه ضربها الافضل بالمنجنيق، وقد استمر القتال حولها من صفر إلى ذي القعدة من عام ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م؛ أي قرابة عشرة شهور، فلما رأى أهلها أنهم مغلوبون، وقد فرغت المؤن، وبعد هروب ابن مصال اللكي إلى بلاد المغرب[١]، طلب افتكين الامان له ولنزار ولأهل البلد، فأمَّنهم الأفضل، ثم دخل المدينة واستولى عليها وألقى القبض على افتكين ونزار وتتبَّع من كان معه من وجوه القوم، وبخاصة القاضي محمد بن عمار الذي اعتقله مدّة ثم قتله ليعين مكانه أبا الحسن بن حديد، وجاء بأفتكين ونزار إلى القاهرة، ليذبح الأول صبراً، وليبني على الآخر حائطاً إلى أن مات[٢]. هكذا انتهت عسكرياً ثورة نزار، لكن لم تنته فصولاً، إذ بدأ بعد ذلك صراع وتنافس بين أقطاب الدعوة الفاطمية، سنعرض له في الصفحات التالية.

أ - موقف الأفضل من نزار:

يرد تساؤل، هنا، عن أسباب تأزم العلاقة بين الأفضل الجمالي ونزار بن المستنصر بالله الفاطمي، وعن دوافع إقصاء الجمالي لنزار عن مركز الخلافة، واسهامه في إيصال أحمد المستعلي إليها. يذكر المؤرّخون أنَّ المستنصر قد عهد بولاية العهد لابنه الأكبر أبي منصور نزار، إذ كان أحقّ بالخلافة - حسب عقيدة الاسماعيليين - وأراد أخذ البيعة له قبل موته، لكن مساعي المستنصر لم تفلح

(١) قيل في سبب فرار اللكي أنه رأى في منامه أنه راكب فرساً وقد سار والأفضل ماشٍ في ركابه، فقال له المعبّر: الماشي على الأرض أملك لها. فلما سمع بذلك تراجع وانهزم ليعود بعد ذلك إلى الأفضل الذي عفا عنه - ابن ميسر، أخبار مصر، ص٣٧.

(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام، تحقيق عمر تدمري، دار الكتاب العربي، ط١، بيروت، ١٩٩٤، (حوادث سنة ٤٨٧هـ).

لكراهة الأفضل لنزار(١)، حيث كانت للجمالي خطط ومشاريع مختلفة، إذ تكمن رغبته بتولّي أحمد الخلافة بدلأمنه؛ كونه ابن اخته، وزوج شقيقته، ست الملك، فكان ذلك أحد أسباب تفضيله على نزار الذي كان يخاصمه. ثم هناك عامل السنّ، حيث إن أحمداً ما زال صغيراً ويسهل التعامل معه، على عكس أخيه نزار(٢) الذي ربّما قد يقف في وجه طموحات الأفضل في المستقبل، واستنادنا في ذلك إلى ما يرويه النويري من ان الافضل كان قد حذّر الأمراء والقادة من نزار وقال لهم: ان هذا (يعني نزاراً) كبير السن ولا نأمنه على نفوسنا، والمصلحة أن نبايع لأخيه الصغير أبي القاسم أحمد(٣).

ولعلّه اعتقد أيضاً أن اعتلاء نزار للخلافة سيُسهم في اضعاف نفوذه، وقد يصل الأمر للحيلولة بينه وبين تقلّده الوزارة الفاطمية.

وثمة سبب شخصي لتعليل موقف الأفضل من نزار، وهو أنَّ الأخير كان خارجاً ذات يوم في حياة أبيه المستنصر، فالتقى الأفضل راكباً وقد دخل من أحد أبواب القصر، فصاح به نزار: انزل يا أرمني يا نجس، فحقد عليه الأفضل من يومها، وصار كلٌّ منهما يكره الآخر(٤). ومع ذلك لا يمكن الركون إلى مثل هذه الحادثة للتدليل على الخصومة بين نزار والأفضل، وحتى لو أن نزاراً قد وجّه مثل هذه الاهانة إلى الأفضل في ثورة غضب، إذ لا يُعقل أن تبقى في نفس الأخير طيلة سنوات عدّة، ومن ثم تكون العامل الأساسي في حجب البيعة عن نزار، ولو أنني أعتقد أنها من الأمور التي كشفت عما يعتمل داخل نزار من هواجس ومخاوف إزاء

---

(١) ابن ميسر، أخبار مصر، ص٣٥؛ ويعتبر برنارد لويس إبعاد نزار وتولية المستعلي انقلاباً سياسياً - واضح المعالم قام به الوزير الأفضل شاهنشاه، محافظةً على السلطان القوي الذي كان يتمتع به منفرداً منذ أواخر عهد المستنصر، Lewis,B., art "al-Mustali" EI2VII,P.726.

(٢) كان لنزار من العمر آنذاك ٥٠ عاماً؛ لأنه ولد عام ٤٣٧هـ؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص١٨٠.

(٣) النويري، نهاية الإرب، ج٢٨، ص٢٤٥.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص٤٢، Wiet, G., art."al-Afdal", EI2, I,P.222.

الأفضل الجمالي ودوره المستقبلي، وصدق ظن نزار، إذ ظلَّ الأفضل طوال الخمسة والعشرين عاماً التالية هو المدبّر الحقيقي لدولة الفاطميين.

ب - انقسام الإسماعيلية:

لم تمر حادثة إعلان خلافة المستعلي بالله أبي القاسم أحمد (٤٨٧ - ٤٩٥هـ / ١١٠١ - ١١٣٠م) من دون تأثيرات بالغة وانشقاقات حادة. فبعد أن خُولف نظام الوراثة، كما نصَّ عليه المذهب الإسماعيلي، حدث انقسام مذهبي - سياسي هزّ الدولة هزَّات عنيفة، وكان من عوامل إضعاف مركز الدعوة والدولة على حد سواء. من نتائج دلك أن افترقت الإسماعيلية منذ ذلك الحين إلى فرقتين رئيستين:

- الإسماعيلية النزارية، وهم الذين ساقوا الإمامة لنزار بن المستنصر، وطعنوا في إمامة المستعلي.

- والإسماعيلية المستعلية، ويعتقدون بصحة إمامة المستعلي خلفاً للمستنصر، ومن قام بعده من الخلفاء بمصر(١).

وقد كان لكلٍ فرقة من هاتين الفرقتين المتنافستين وجهة نظرها، وأدلّتها وحججها التي تدعم بها موقفها ورأيها.

١ - الإسماعيلية النزارية

تستند النزارية في دعواها بأَحقيَّة نزار بالخلافة إلى جملة مبادىء إسماعيلية وحوادث وقضايا تاريخية حصلت أيام خلافة المستنصر بالله.

تعتمد العقيدة الإسماعيلية على انتقال الإمامة في الأعقاب من الأب إلى الابن الأكبر، وتبعاً لهذه القاعدة فإنَّ نزاراً، الابن الأكبر للمستنصر، هو صاحب الحق الشرعي في خلافة أبيه في منصب الإمامة. رغم أنه لم يجر أي احتفال لتنصيبه ولياً للعهد، بسبب تدخّل الأفضل الجمالي في هذا الشأن؛ لأنه كان يغار من نزار أيام

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٧.

حياة أبيه، ويرد شفاعاته، ويضع من قدره، ولا يرفع رأساً لأحدٍ من غلمانه وحواشيه، بل يحتقرهم ويقصدهم بالأذى والضرر. وتأسيساً على ما تقدم، لما عزم المستنصر على أخذ البيعة لنزار اجتمع الأفضل بالأمراء والقواد، وخوّفهم من نزار، وحذّرهم من مبايعته، وأشار عليهم بولاية أخيه أحمد(١).

يُضاف إلى ما سبق، فإن الحسن بن الصباح، رئيس الطائفة الإسماعيلية في بلاد فارس(٢)، اثناء قدومه إلى مصر في زيّ تاجر عام ٤٧٩هـ /١٠٨٦م، واجتماعه بالمستنصر بالله، وبعد أن كلّمه في اقامة الدعوة له في بلاد العجم، وقد اذن له في ذلك سراً، وقال للمستنصر: «من إمامي بعدك؟» فأجابه: «ابني نزار»(٣).

وقد عاد ابن الصباح من مصر إلى الشام مروراً بالجزيرة وديار بكر وبلاد الروم، ودخل خراسان، وعبر إلى ما وراء النهر، وهو يدعو إلى إمامة المستنصر وابنه نزار من بعده. وقد تكفَّل ابن الصباح وحرص على تكوين مجتمع إسماعيلي صرف يخضع كل رجاله لرئيسهم الروحي ويعملون جميعاً على نشر المذهب الإسماعيلي، الذي عُرف بعد وفاة المستنصر بـ«الإسماعيلية الجديدة»(٤).

ويشير مؤرِّخ إسماعيلي(٥) إلى أهميَّة اكتشاف دينار ذهبي، عام ١٩٩٤م، يعود

---

(١) ابن ميسر، أخبار، ص٦٢، المقريزي، اتعاظ، ج ٢، ص ١٥.

(٢) وُلد الحسن بن الصباح المشهور بالحميري؛ لامتداد نسبه إلى ملوك حمير اليمنيين في الري عام ٤٣٠هـ/١٠٣٨م أو ٤٣٢هـ/١٠٤٠م، في بيتٍ عُرف بالتشيُّع، وكان الحسن منذ شبّ يهتم بالتزوّد بالعلوم والمعارف. اشتغل في دواوين الدولة السلجوقية في عهد ألب أرسلان، وتقرَّب من ملك شاه، ولكنه خرج من الدواوين بسبب تآمر نظام الملك، الذي وزر لملك شاه. تعرَّف على دعاة فاطميين فآمن بعقيدتهم وقد تتلمذ على يدي أحمد بن عطاش، داعي الدعاة في بلاد الري، وانضم إلى صفوفه، فعيَّنه وكيلاً عنه ونصحه بالتوجه إلى مصر لحضور مجالس الحكمة فيها. توفي سنة ٥١٨هـ، ودفن في قلعة ألموت. انظر: الشهرستاني، الملل والنحل، ج١، ص١٩٥ - ١٩٨، الذهبي، ميزان الاعتدال، ج١، ص٥٠٠.

(٣) ابن ميسر، أخبار مصر، ص٢٧.

(٤) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص٢٢٤.

(٥) Farhard Daftary, A short history of the Ismailis, Markus wiener publishers, U.K,1998, P107.

إلى عام ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م، وهو أول نموذج معروف من هذا النوع ضرب في الاسكندرية يتضمن نصاً على خلافة نزار، في الوقت الذي ثار فيه نزار هناك، يحمل الكتابة التالية: «المصطفى لدين الله - ودعا الإمام نزار»، ويؤكد المؤرخ نفسه أن هذا الدينار محفوظ الآن ضمن مجموعة معهد الدراسات الإسماعيلية في لندن.

وتعتقد النزارية بأمر آخر وهو بقاء نزار حياً وأنه لم يتعرَّض للقتل، حيث يذكر أتباع النزارية بأن نزاراً تمكن من مغادرة الاسكندرية أثناء حصار الافضل لها متخفياً بزي التجار، وقصد سجلماسة(١) سرّاً برفقة خمسة من الفدائيين الإسماعيليين الذين أوفدهم ابن الصباح، حيث مكث عند عمته هناك بضعة أشهر، ثم سار إلى جبال الطالقان مع أهل بيته ومن بقي معه من دعاته وخدمه، واستقرَّ بقلعة «الموت»(٢)، لذا فالنزارية تعتقد أنَّ الإمامة في وُلْدِ نزار الذين استقاموا في «الموت»، وهي متوارثة بالنصّ.

إنتشر أتباع النزارية في عددٍ من المناطق، لا سيّما في إيران، وشمالي سوريا، حتّى ان الكثيرين منهم كانوا يقيمون في مصر نفسها، ويثيرون القلاقل والاضطرابات بوجه الخلافة القائمة المتمثلة بالآمر ووزيره الأفضل الجمالي إلى أن تمكنوا من قتل الأخير في (آخر شهر رمضان ٥١٥هـ / ١١٢١م) كونه - برأيهم - الباعث على تنحية نزار عن مقام الخلافة.

---

(١) سجلماسة: مدينة في جنوب المغرب الأقصى، بُنيت عام ١٤٠هـ، بينها وبين فاس عشرة أيام، وهي في منقطع جبل درن. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص١٩٢، وهي بحكم وضعها الجغرافي على حافة الصحراء الكبرى في جنوب المغرب، اكتسبت مركزاً هاماً لتجارة الذهب.

(٢) مصطفى غالب، اعلام الإسماعيلية، دار اليقظة العربية، بيروت، ١٩٦٤، ص٥٨٣ و٥٨٥؛ عارف تامر، تاريخ الإسماعيلية، رياض الريس، لندن، ط١، ١٩٩١، ج٣، ص٢٢٤. أما قلعة «الموت» فهي تقع في إحدى الوديان المنيعة في الشمال الغربي من قزوين. قيل في أمر بنائها: إنَّ ملكاً من ملوك الديلم، يسمّى شمس الملوك كان كثير الصيد، فأرسل عقابه وتبعه، فرآه قد سقط على موضع هذه القلعة، فأُعجب به وأمر ببناء القلعة في المكان نفسه وسمّاها «اله موت» ومعناها بالديلمي تعليم النسر. انظر: الشهرستاني، الملل والنحل، ج١، ص٣٤٠.

يذكر ابن ميسر أسباب مقتل الأفضل، فيعزوها إلى تآمر جماعة من النزارية كان من بينهم شخصٌ يُعرف بالبديع كان قد نفاه الافضل من مصر، ثم أُعيد بشفاعة وقد صار له أَتباع، وهمَّ الأفضل هذه المرة بنفيه إلى اليمن، لكنّه عاد وقبض على ما يزيد من عشرين من أنصاره وقتلهم. وقد كثر تحرّسه أثناء ركوبه وخروجه نظراً لازدياد عدد مناوئيه. وكان قد اعتاد أن يقوم بتوزيع عطاءات الجند والهبات المالية على الناس في الأعياد، وكانت داره الخاصة في مصر، وخزانة السلام في دار الخلافة والعسكر، فإذا ما أهلَّ العيد يخرج من داره في موكب عظيم ويتوجه إلى خزانة السلام ويباشر في توزيع المال على الناس.

خرج الأفضل من داره كعادته في اليوم الأخير من شهر رمضان عام ٥١٥هـ/ ١١٢١م، وراح موكبه يخترق شوارع القاهرة، فلما وصل إلى مكان الجسر القائم عند نهاية السويقتين، برز إليه رجل وأشهر في وجهه سيفه محاولاً الهجوم عليه وطعنه، وبادر حراس الأفضل نحو الرجل لمنعه من الاقتراب وحاولوا القبض عليه، فسادت الفوضى وانشغل مرافقو الأفضل بمطاردة المهاجم واعتقاله، وهُنا وجد بقية أفراد المجموعة أنَّ الفرصة مؤاتية لهم، فباغتوا الأفضل من الخلف وأعملوا فيه خناجرهم. وقد حُمل الأفضل إلى داره وهو في النزع الأخير(١)، وإن كان هُناك من المؤرّخين من يعتقد أن مقتل الأفضل كان تدبيراً من الخليفة الفاطمي الآمر وأنصاره لبواعث سياسية وحزبية، وذلك أن الآمر الذي ضعفت سلطته كثيراً بوجود وزيره الأفضل، شعر بالحاجة إلى التخلّص من وزيره، وقد دبّر مكيدة اغتياله بطريقة لا تثير حفيظة الناس الذين كانوا يقدّرون الأعمال التي ادّاها الأفضل وأبوه للأسرة وللدولة الفاطمية. لذا، عهد الخليفة الفاطمي بالمهمة إلى أحد معتنقي المذهب الفاطمي الذي أُعطي من العهود ما يضمن له مركز الوزارة إذا نجح في هذا السبيل، وقد وقع اختياره على أبي عبد الله المأمون بن البطائحي الذي نفذ العملية(٢).

---

(١) ابن ميسر، أخبار، ص٥٧؛ أديب السيد، مرجع سابق، ص٢٨٧.

(٢) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٠٤؛ حسن إبراهيم حسن، الدولة الفاطمية، ص١٧٤.

ويبدو أنَّ قضيَّة نزار ظلَّت محل مناقشات داخل الدولة وبين أتباع الدعوة؛ الأمر الذي دعا الخليفة الآمر أن يعقد مجلساً في القصر عام ٥١٨هـ / ١١٢٤م، ودعا الفقهاء من الإسماعيلية إلى الاجتماع، وقال لهم وزيره المأمون البطائحي: «ما لكم من الحجة في الرد على هؤلاء الخارجين على الإسماعيلية، فقال كل منهم: لم يكن لنزار إمامة، ومن اعتقد هذا فقد خرج عن المذهب وضل ووجب قتله»(١).

وكانت أخت نزار إذ ذاك تجلس في قاعة صغيرة بجانب الإيوان في القصر وعلى الباب ستر؛ فلما فرغ فقهاء الإسماعيلية من الإدلاء برأيهم في أقوال الخارجين على الخليفة، قالت: «اشهدوا عليَّ يا جماعة الحاضرين وبلغوا عني جماعة المسلمين أن أخي شقيقي نزاراً لم يكن له إمامة وإنني (برية) من إمامته جاحدة لها لاعنة لمن يعتقدها . . .».

ولما انفض المجلس، عهد المأمون البطائحي إلى ابن الصيرفي بكتابة رسالة لابن الصباح يدحض فيها آراء النزارية في الإمامة، غير أن هذه الرسالة لم يتح لها أن تصل إلى يد ابن الصباح لعدول رسل الخليفة عن مواصلة السفر بسبب الأنباء التي وصلت إلى مصر عن ازدياد نفوذ طائفة النزارية في بلاد المشرق، واتصالها بأتباعها في مصر لتدبير مؤامرة لقتل الآمر ووزيره المأمون. لذلك لا نعجب إذا رأينا الآمر يتتبع حركاتهم في جميع البلاد الخاضعة لنفوذه ويعمل على التخلص ممن تحوم الشبهات حول انحيازه إليهم، لكنه رغم اتخاذه الحيطة لدرء خطرهم عنه اغتاله فريق منهم(٢).

---

٢ - الإسماعيلية المستعلية:

إنَّ لدى المستعلية عدداً وافراً من الأدلّة والحجج التي تُثبت موقفها وتؤيد ما ذهبت إليه، وتدحض - حسب رأيها - مقولات النزارية. فالمستنصر بالله أفصح بالنصّ على المستعلي وبالغ في الإشارة بالإمامة إليه، وذلك لما علم بما يكون من

---

(١) المقريزي، الخطط، ج ١، ص ٤٠٦.
(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر ص٦٥ - ٦٨، المقريزي، الخطط، ج١، ص٤٠٧.

الخلاف في أمره والفتنة فيه سمَّاه باسم النبي وكنّاه بكنيته(١) ليجعله رمزاً خفياً «يعلمه العارف الخبير، ويفهمه الناقد البصير». ثم إنه لما بُشّر بميلاده بحضور خاصته وأولاده قالوا له: «ليهنك يا أمير المؤمنين الأمير»، فقال: بل قولوا: «ليهنك الإمام»؛ ولم يعتمد هذا مع أحدٍ من سائر أولاده.

يضاف إلى ذلك أنه لما زوّج المستعلي من ابنة أمير الجيوش بدر الجمالي أقعده أبوه المستنصر - يوم عقد النكاح - على يمينه، وأقعد سائر أولاده على يساره، وفي ذلك اليوم نعت المستنصر المستعلي بوليّ عهد المؤمنين، ولم ينعت كلاً من ولديه الآخرين، عبد الله ونزار إلاّ بوليّ عهد المسلمين، «وبين ولاية عهد المؤمنين وولاية عهد المسلمين» - كما ورد في السجلات المستنصرية - «ميزة لا تخفى على أحدٍ، وحقيقة لا ينكرها إلاّ ذو بغي وحسد»(٢).

ويذكر أتباع الخليفة المستعلي أنه لما تشاجر ولدا المستنصر، عبد الله ونزار، في الإمامة بين يديه، قال لهما: «لا تتشاجرا ولا تتنازعا، فليس واحد منكما بصاحب هذا الأمر، وإنما صاحبه ههنا» وأشار بيده إلى ظهره، «وكان مولانا المستعلي حينئذٍ لم يُحمل بعد، وهذا كان في يوم مشهود، ومقام غير خفي ولا مجحود»(٣). ويضيف هؤلاء أنه لما حضرت المستنصر ساعة الوفاة وحانت دقيقة الانتقال «وهو الوقت الذي يعوّل فيه على النصّ أشار إليه (أي إلى المستعلي) ونصَّ مصرّحاً عليه، وأمر من حضره بطاعته، وعرَّفهم ما خصّه الله به من وراثة رتبته ومقامه ودرجته»(٤).

وقد استشهد أنصار الفرقة المستعلية ببعض الأبيات التي قيلت في رثاء

---

(١) اسم المستعلي «أحمد» وكنيته «أبو القاسم»؛ وقد ورد في رسالة أرسلها المستنصر إلى علي بن محمد الصليحي في اليمن يحمل إليه البشرى بولادة المستعلي، وفيه: «. . . وقد وهب الإله من فضله العميم، وطوله الجسيم، ولداً ذكياً، ونجلاً رضياً، . . . سماه أحمد وكنّاه أبا القاسم. . .» السجلات المستنصرية، ص٤٧.

(٢) مجموعة الوثائق الفاطمية، ص٥٤، ٢٠١.

(٣) أبو شامة، الروضتين، ج١، ص٥٠.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٨، ص٢٣٩ - ٢٤١.

المستنصر، وتدعم حق المستعلي بالخلافة. ومما جاء في قصيدة الشاعر حظيّ الدولة، أبي المناقب، عبد الباقي بن علي التنوخي:

وليس ردى المستنصر اليوم كالردى ... ولا أمره أمرٌ يقاس به أمرُ
لقد هاب ملك الموت اتيانه ضحى ... ففاجأه ليلاً ولم يطلع الفجرُ
فأجرى عليه حين مات دموعنا ... اسماء، فقال الناس لا بل هو القطر
وقد بكت الخنساء صخراً وإنّه ... ليبكيه من فرط المصاب به الصخرُ
وقلَّدها المستعلي الطهر حسب ما ... عليه قديماً نصَّ والده الطهرُ[(١)]

من جهة أخرى، يفند أرباب المستعلية طروحات النزارية، ومن بينها لقاء الحسن بن الصباح بالمستنصر، إذ أن هناك من يُحاول نفي حصول مثل هذا اللقاء، ويشير بالتالي إلى أن المستنصر، رغم ما أظهره من تقدير وعطف اتجاه ابن الصباح، فإنه لم يتمكن من مقابلته خوفاً من بدر الجمالي[(٢)].

وثمة أمر آخر تعتقده النزارية، وتنفيه المستعلية وهو مسألة نهاية نزار، فمعظم المصادر التي اطلعت عليها تدلّ على مقتل نزار، وإن اختلفت حول الكيفية إذ ينقل المقريزي قولين، يفيد الأول منهما أن الأفضل الجمالي عندما قبض على نزار وأفتكين سيَّرهما إلى القاهرة، وأنه سلَّم نزاراً لأهل القصر من أصحاب المستعلي، وبُني عليه حائط ومات، ويُفهم من القول الثاني أن نزاراً قد قُتل بالاسكندرية[(٣)]. أما النويري فيعتبر أن الأفضل جعل نزاراً بين حائطين فمات[(٤)]، ولا نجد لدى ابن تغري بردي موافقة أو مخالفة لأيٍّ من الرأيين إذ يعزو ذلك بالقول: «إنه (الأفضل) قبض على نزار وأفتكين، وبعث بهما إلى مصر، وكان ذلك آخر العهد بنزار»[(٥)].

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣٣٤؛ حسن الأمين، الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ط٢، قم، إيران، ١٩٩٧، ص٨٦.
(٢) طه أحمد شرف، دولة النزارية أجداد اغاخان كما أسَّسها الحسن الصباح، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٠، ط١، ص٥٥.
(٣) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٤.
(٤) النويري، نهاية الإرب، ج٢٨، ص١١٥.
(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٤٨.

ج - الأفضل الجمالي ومواقفه الدينية:

إلى جانب تأثيرات الأفضل الجمالي في بعض مجالات الدعوة الإسماعيلية وانقسامها بسببه، هناك بعض الأعمال التي قام بها، تحمل بعض الدلالات الهامة على تدخّلٍ منه في العديد من أُمور الدين والعقيدة، ونورد، هنا، بعضاً منها.

من بين المسائل الدينية التي تأثرت في عهد الأفضل الجمالي صلاة العيد، حيث جرى تقليص دور الخليفة فيها، ومنعه من التوجه لادائها في المصلى وإلقائه خطبة العيد(١).

وجانب آخر من أعمال الأفضل الدينية، ما يُروى عن أبي مقارة الثاني المتوفّى سنة ١٠٩٤م، الذي قدمه اليعاقبة بطركاً بدير بومقار، حيث قيل إنه في أيامه حدثت زلزلة عظيمة بمصر، هُدمت فيها كنيسة المختار بالروضة، وقد اتُّهم الأفضل بهدمها، فإنها كانت في بستانه، ويضيف المقريزي على هذا القول بأنَّ الأفضل أبطل عوائد كثيرة للنصارى، فبطلت بعده(٢). وبعد تسلّم الافضل لمقاليد الوزارة ذُكر بأنه أمر باغلاق جميع قاعات الخمارين وختمها في القاهرة والفسطاط، وذلك في آخر جمادى الآخرة من كل عام.ولعل سبب تصرّف الافضل يعود إلى شعوره بأهمية استقبال الأشهر الحرام بعد جمادى الآخرة (رجب، شعبان، رمضان) حيث ينصرف المسلمون إلى إحياء مناسباتها الدينية بجو ملؤه الخشوع والتقوى، ما دفعه لإغلاق تلك الاماكن أثناء المواسم الدينية.

وهنا حادثة أُخرى، حصلت في سنة ٤٩٠هـ، خلال حكم الأفضل الجمالي، يظهر فيه حزمه وعدم تساهله تجاه بعض التصرُّفات العاطفية، إذ ذكر بعض المؤرخين أنه بلغ الجمالي خبر اجتماع عددٍ من الناس في يوم عاشوراء بمشهد السيدة نفيسة، وجهروا بسبّ الصحابة، وقد هدموا عدّة قبور، فسيَّر الأفضل إليهم من منعهم من ذلك(٣).

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣ ص٨٣.

(٢) المقريزي، تاريخ الاقباط المعروف بالقول الابريزي للعلامة المقريزي، تحقيق عبد المجيد دياب، دار الفضيلة، القاهرة لا، ت، ص١١٦؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٣١٩.

(٣) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢١.

ونجد، لدى الأفضل الجمالي، من جانب آخر، أعمالاً تنمُّ عن تعرُّضه لبعض مبادىء الشيعة الإسماعيلية وتقاليدهم، إذ قام باجراءات تقضي بإلغاء الاحتفالات بمولد الرسول محمد، ومولد السيدة فاطمة الزهراء ابنته، ومولد الإمام علي بن أبي طالب، ومولد الخليفة الفاطمي[١]، ثمَّ إنه أغلق دار العلم التي أنشأها الخليفة الحاكم بأمر الله، حيث كانت تحوي آلافاً من كتب الشيعة[٢]. ولكن نلاحظ، من زاوية أُخرى، أن الأفضل تمسك ببعض التقاليد الشيعيَّة وحث عليها. منها ما ذُكر أنه كان في يوم العاشر من شهر محرَّم، ذكرى مقتل الحسين، يكثر النياح والصياح والبكاء والعويل في داره التي شيَّدها عام ٥٠١هـ، ونقل إليها دواوين الدولة[٣].

مما تقدم يمكننا استخلاص أمور عدّة ترتبط بمواقف الأفضل الدينية، منها: إنه ليس هناك من تعارض بين اقدام الأفضل على ايقاف الاحتفالات بذكرى مواليد الرسول وابنته السيدة الزهراء التي ينتسب إليها الفاطميون، والإمام علي والخليفة الفاطمي، إذ ربّما تكون هذه الاحتفالات الجماهيرية قد سبَّبت بعض ردود الفعل من قبل المصريين، وغالبيتهم من أهل السنة حيث كان يحرص على كسب ودّهم، يضاف إلى هذا أن تلك الاحتفالات كانت تحصل في الأماكن العامة، وتؤدّي إلى إغلاق الأسواق عادةً، وهذا أمر لم يكن يستسيغه بعض المصريين، أما بما يتعلق

(١) يصف لنا المؤرّخون جزءاً من هذه الاحتفالات وكيفية تقديم الطعام اثناءها، حيث كان هناك «السماط» الذي كان يقدم ويشتمل على الكعك والحلوى وعلى الأخصّ الخشكنانج (وهو نوع من الحلوى المصنوعة من الرقاق على شكل حلقة مجوفة يُملأ وسطها باللوز أو الفستق) والسندود والفانيد، التي كانت تعمل بدار الفطرة وكان يُوفر لها ما يلزم من السكر والعسل واللوز الدقيق. وكان يُعمل بدار الفطرة ما يقرب من خمسة قناطير حلوى تفرق على المتصدرين والقراء والفقراء بالمشاهد والمساجد الستة. أما عدد الصواني التي كانت تقدم على سماط الخليفة في هذه المناسبات فكانت ما يقرب من أربعين صينية خشكنانج. انظر: ابن المأمون، أخبار، ص٣٦ و٦٢، ابن الطوير، نزهة، ص٢١٧.

(٢) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٠٣؛ W.Madelung, art. "Ismai liyya" EI2, PP.199-200.

(٣) علي إبراهيم حسن، مصر في العصور الوسطى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٤، ص١٧.

بذكرى عاشوراء، فالأمر مختلف بعض الشيء، فقد كان الأفضل يحييها في داره، بعيداً عن الرَّأي العام، لاستذكار معاني ثورة الحسين الإنسانية، المناهضة للظلم، وما تثيره في النَّفس من أسًى وتحفيز للهمم والضمائر.

ثم إنَّ موقفه بوجه من قام بسبّ الصّحابة وتهديم بعض القبور، لا يُعدُّ تخلياً منه عن عقيدته الشيعية وميله نحو السنيين على حد تعبير بعض المؤرخين المحدثين[(١)]، بل إنها من الاجراءات التي تصبُّ في اتجاه ضبط الانتظام العام ومنع الفوضى والاضطراب وتهدئة المناخ العام الإسلامي وتجنب ردات الفعل والحساسيات المذهبية بين المسلمين.

---

٣ - أحمد بن الأفضل الجمالي والدعوة الفاطمية:

عَمَدَ الأكمل أحمد بن الأفضل الجمالي إلى إجراء تغييرات عديدة في مجال عقيدة الفاطميين، لم تحدث من قبل في أيّ محطّة من محطّات الدولة.

ونودُّ الإشارة في هذا الصَّدد أنه رغم المدّة الزمنية القصيرة نسبياً التي حكم فيها الأكمل بحيث لم تتجاوز سنة واحدة وشهرين، (١٥ ذي القعدة عام ٥٢٤هـ ، ١٦ محرَّم عام ٥٢٦هـ)، فإنه استطاع القيام بما يُشبه الثورة العقيديَّة.

وُصف أحمد بن الأفضل بأنَّه أحد الوزراء العظام الذين لعبوا دوراً بارزاً في مسار الدولة الفاطميَّة، وقيل عنه انه «كان شهماً مهيباً عالي الهمَّة كأبيه وجدّه»[(٢)]، و«بطلاً شجاعاً»[(٣)] إضافةً لحنكته وحسن درايته وكثرة مطامحه. وقد أُودع السجن بعد مقتل أبيه الأفضل آخر شهر رمضان سنة ٥١٥هـ ، على يد الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله أبي علي منصور (٤٩٥ - ٥٢٤هـ / ١١٠١ - ١١٣٠م). ولعلَّ الخليفة

---

(١) من هؤلاء: حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ص١٧٣؛ محمد جمال الدين سرور، تاريخ الدولة الفاطمية، ص٢٤٩، وغيرهما.

(٢) الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج٢، ص٤٢٨.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٩، ص٥٠٩.

الآمر أراد بسجنه لأبي علي أحمد الجمالي أن يُبعد تأثيره وخطره على الفاطميين، وخوفاً من محاولة استيلائه على السلطة إن تُرك حُرّاً طليقاً.

بقي الأكمل في سجنه سنوات عدَّة، يتحيَّن الفرص للثأر ممَّن قتل أباه، إلى أن حدث في اليوم الثالث من شهر ذي القعدة عام ٥٢٤هـ / ١١٢٩م، أن خرج الخليفة الآمر من القاهرة متجهاً إلى الجزيرة، وبينما هو يعبر الجسر إذ وثب عليه نفر من جماعة الأفضل الجمالي وعاجلوه بسيوفهم، فأثخنوه بالجراح ثم ولَّوا الأدبار. حُمل الآمر في موكب إلى القصر، حيث توفي مساء اليوم نفسه عن عمر يناهز الرابعة والثلاثين عاماً. بعد إعلان موت الآمر بُويع لأبي الميمون عبد المجيد بن محمد بن المستنصر بولاية العهد وتدبير المملكة، ولقب بالحافظ لدين الله ريثما يتم وضع غلام للآمر حيث كانت زوجه حاملاً، فغلب عليه الأكمل الذي أُخرج من السجن صبيحة يوم بيعته وحظي بمبايعة الجند(١).

استهلَّ الوزير أحمد الجمالي حكمه بوضع الخليفة الحافظ لدين الله تحت الحجر ومنعه من الظهور، ثم أمر بأن لا يدع أحداً يدخل عليه إلاَّ بأمر منه(٢). ثم قصد دار الخلافة واستولى على جميع ما فيها من ثروات وأموال وكنوز، مبرراً ذلك بقوله: إنَّ هذا كلّه مال أبي وجدّي(٣).

أ - الأكمل الجمالي والاختلاف في عقيدته:

ثمة اضطراب لدى المؤرّخين بما يخصُّ عقيدة أبي علي أحمد الجمالي، فتارة يُوصف بأنه سنّي، وأُخرى بإنه شيعي إمامي، فالحافظ الذهبي عدّه سنياً في كتابيه «سير أعلام النبلاء»، و«العبر» بينما وصفه كل من المقريزي وابن الأثير بـ«الإمامي الاثني عشري».

إزاء ذلك لا يُمكننا سوى العودة إلى سيرته ومواقفه التي ربّما يتبين لنا، من خلالها، حقيقة عقيدته.

---

(١) ابن الظافر، أخبار الدول المنقطعة، ص٩٤.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٢، ص٢٠١؛ البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٠١.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣٩٥.

قام أحمد بن الأفضل، باجراءات لم يسبق أن اتخذت من ذي قبل لدى الفاطميين، ومن ذلك ما أشار إليه المؤرخون من أنه عيّن في مناصب القضاء أربعة قضاة، يحكم كل قاضٍ بمذهبه، ويورّث بمقتضاه. فكان الفقيه سلطان(١)، قاضي الشافعية، واللبنى(٢)، قاضي المالكية، وأبو الفضل ابن الأزرق(٣)، قاضي الإسماعيلية، وابن أبي كامل(٤)، قاضي الإمامية(٥). وقد علّق ابن ميسر على ذلك بقوله: «لم يسمع بهذا قط في ما سلف»(٦). ربما أراد الأكمل من خلال هذه التعيينات إدخال المذهب الإمامي في لائحة المذاهب المتداولة آنذاك، حيث لم تكن أحكام مذهب الإمامية الاثني عشرية متبناة، بل كان الفاطميون يستعيضون عنه بالمذهب الإسماعيلي.

ومما يُلاحظ، في هذا الصَّدد، أنَّ أبا علي الجمالي لجأ إلى محاولات أُخرى لإضعاف المذهب الإسماعيلي، مذهب الدولة الرسمي، عندما أسقط اسم إسماعيل بن جعفر الصادق الذي ينتسب إليه الإسماعيلية من الخطبة، كما أنه صكّ النقود باسم الإمام المهدي المنتظر، ونقش عليها: «الله الصمد - الإمام محمد»(٧).

لكن هناك أمر، دفع بعض الشيعة آنذاك للتشكيك بتشيعه، عبر اسقاطه من الأذان عبارة «حيَّ على خير العمل» أو «محمد وعلي خير البشر»، ثم نفورهم منه إثر ذلك(٨).

---

(١) هو سلطان بن إبراهيم بن مسلم المقدسي، المعروف بابن رشا، والمتوفى سنة ٥٣٥هـ/ ١١٤٠م، انظر: المنتقى من أخبار مصر، ص١٣٣.
(٢) هو محمد بن عبد المولى بن محمد بن عبد الله اللبنى المغربي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٤٢.
(٣) هو هبة الله بن عبد الله بن حسن بن محمد، المعروف بابن الأزرق. اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٤٢.
(٤) هو المفضل بن هبة الله بن عبد الله.
(٥) النويري، نهاية الإرب، ج٢٨، ص٢٩٧.
(٦) ابن ميسر، أخبار مصر، ص٧٤.
(٧) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٤١. أحمد حسين، موسوعة تاريخ مصر، دار الشعب، القاهرة. لا،ت، ج٢، ص٥٨٩.
(٨) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، تحقيق أحمد رفعت البدراوي، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٩٧٠، ج٢، ص٥٩.

يمكن مناقشة هذه المقولة عبر التذكير انه لا يمكن اعتبار أنَّ مجرَّد إسقاط عبارة من الأذان أنها كافية للدلالة على تغيير في مسار عقيدته، حيث إن الأذان برمته هو عمل مستحبٌ ومندوب في الشريعة الإسلامية وليس بواجب أجرى عليه الاكمل تعديلاً؛ فهو إعلام لحلول موعد الصَّلاة، ولا يغيب عن بال المؤرِّخ المحيط والبيئة التي كان يعيش فيها الأكمل، وهي مصر، إذ أن هناك السُّنَّة الذين ربما ساءهم ذلك.

ب - مخاوف وهواجس من تغييرات عقائديَّة:

بَرَزَ إلى العلن ما كان كامناً في نفوس الإسماعيليين من خوف شديد على مستقبل دولتهم جرَّاء أعمال الأكمل الجمالي، إذ عُدَّت سنة حكمه بمصر سنة قيام دولة شيعية إمامية. وكان هناك هاجس، يعتمل في الصدور من إطالة مدّة حكمه، عبر الخوف من القضاء تدريجياً على الدولة والمذهب الإسماعيلي معاً.

إنَّ هذه المسائل قد عجلت بالتفكير بتصفية الأكمل سريعاً قبل استفحال خطره على الإسماعيلية، وخوفاً من إكمال مشروعه. إنَّ ما دفعنا إلى تبنّي هذا القول هو قصر فترة حكمه إذا ما قورنت بفترتي حكم أبيه وجدّه، فالأول منهما تجاوزت مدَّة وزارته الثمانية والعشرين عاماً ونيفاً، بينما بلغت ولاية الثاني قرابة الاحدى والعشرين سنة وأشهراً، بينما اقتصرت وزارة الأكمل على سنة واحدة وبضعة شهور.

أما عن كيفية مقتل الأكمل فقد ذُكر أنَّ معارضيه بزعامة يانس الأرمني، وبالتنسيق مع الخليفة الحافظ، المحجور عليه، ظلوا يتربَّصون به الدوائر إلى أن كان يوم السادس عشر من شهر محرم من سنة ٥٢٦هـ، عندما ركب وخرج إلى البستان الكبير، خارج باب الفتوح، على عادته، فكمن له هناك عشرة رجال، «فصاح أبو علي - على عادة من يُسابق بالخيل - : راحت، فقال العشرة: عليك، وحملوا عليه وطعنوه حتى قُتل»(١).

قُضي إذاً على الوزير أحمد الجمالي، وقضي بطبيعة الحال على محاولته الرامية لجعل الدولة إمامية، وعادت الدولة إسماعيلية كما كانت، وأُعيد الحافظ بعد رفع

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص١٣٤؛ عبد الحميد يونس وآخرون، تاريخ وآثار مصر الإسلامية، الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة، ص٧٠٩.

القيود عنه إلى منصب الخلافة وجدّدت البيعة له، وقد دُعي له على المنابر بدعاء اختاره، وهو: «اللهم صلِّ على الذي شيَّدت به الدين بعد أن رام الأعداء دثوره، وأعززت الإسلام بعد أن جعلت طلوعه على الأمة ظهوره، وجعلته آية لمن تدبَّر الحقائق بناظر البصيرة، مولانا وسيدنا وإمام عصرنا وزماننا عبد المجيد أبي الميمون»[١].

وللدلالة على أهمية هذه الحادثة التي أودت بحياة الأكمل الجمالي، فقد اعتبر اليوم الذي قُتل فيه عيداً - لا للحافظ لدين الله نفسه بمناسبة إطلاق سراحه واعادته للحكم - بل للدولة كلها، وللمذهب الإسماعيلي وأتباعه، إذ كان المذهب على وشك التفكك والانهيار[٢] بسبب ما قام به الأكمل الجمالي.



(١) ابن الظافر، أخبار الدول المنقطعة، ص٩٥.
(٢) مجموعة الوثائق الفاطمية، ص٩٨.

بعض الاستنتاجات

قامت الدولة الفاطمية على أساسٍ تشابكت فيه السياسة مع الدين في معظم المجالات، لذا فإنَّ الدعوة كانت عماد هذه الدولة وأهم ما يميّزها عن الدول والأنظمة الإسلامية الأخرى. من هُنا أدَّى ازدياد نفوذ الوزراء في العصر الفاطمي الثاني بدءاً ببدر الجمالي ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م إلى استحواذهم على مختلف مفاصل الدولة الفاطمية وشؤونها، ولم يعد هناك من سلطة تحدُّ من نفوذهم وإلى هذا المعنى أشار ابن الأثير بقوله: «فالوزارة في مصر لمن غلب، والخلفاء من وراء الحجاب، والوزراء كالمتملكين»(١).

وعمد الوزراء الجماليون (بدر، الأفضل، الأكمل) إلى إعطاء مركز الدولة أهمية فاقت منزلة الدعوة، ربما يعود سبب ذلك إلى إيمانهم أنَّ حماية مكتسبات الدولة آنذاك لها الأولوية على نشاطات الدعوة والدعاة؛ هذا الأمر دفعهم لعدم الاحتفاظ بمظاهر المذهب الإسماعيلي حيث كان له أثره البالغ فيما أصاب الدعوة من وهن وانحلال.

وثمة أمر هام تقتضي الاشارة إليه لتفسير مواقف الجماليين الدينية، يتعلّق بالظروف والمعطيات التي عاشها كلٌّ منهم، فدور الافضل قد اختلف وتباين عن دور أبيه، حيث ان اسهامه بإيصال المستعلي إلى سدّة الخلافة ولو أدَّى ذلك إلى تغيير في عقائد الاسماعيليين قد يبدو للباحث جوهرياً لاستمراره في منصب الوزارة وإلاَّ سيعرّض مصالحه للخطر على يدي نزار إن تركه يسعى للخلافة الفاطمية.



---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص١٨٥.

الفصل الرابع

العلاقات الخارجيَّة
للدولة الفاطميَّة
في عَهْدِ الوزراء الجَماليين

أولًا: علاقة الفاطميين مع الحجاز في عهد الوزراء الجماليين

من الملاحظ أنَّ علاقات الفاطميين بالحجاز قد تأثرت إبَّان الأزمات الاقتصادية والسياسيَّة التي تعرَّضت لها مصر، إذ أن ذلك أدّى إلى توتر روابط مصر بالأراضي الحجازية التي كانت ترتبط بمصر برباط اقتصادي سياسي، قوامه حصول الحجاز على المواد الغذائية والمعونات المادية مقابل اقامة الدعوة الفاطمية بالأراضي المقدسة وقد كان الاضطراب سيّد الموقف منذ انقطاع ما كانت ترسله مصر من نفقات وأموال طائلة في سبيل الدعوة للفاطميين في الحجّ، وقُدِّرت بمئتي ألف دينار سنوياً [(١)]، الأمر الذي ترتّب عليه قطع الخطبة للفاطميين بمكة سنة ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م، ومن ثمَّ الدعوة للعباسيين، خصوم الفاطميين، الذين بذلوا لأبي هاشم محمد بن جعفر الحسني، أمير مكة، الأموال الكثيرة لأجل إستعادة نفوذهم المعنوي هناك، وقد تمَّ للعباسيين ذلك بالفعل، وقد ورد، في هذا المجال، أنه في عام ٤٦٢هـ / ١٠٦٠م، وصل موفد أمير مكة إلى السلطان ألب أرسلان يُخبره بإقامة الخطبة للخليفة القائم بأمر الله العباسي وللسلطان بمكة واسقاط الخطبة للمستنصر بالله وترك الاذان بـ «حي على خير العمل» فأعطاه السلطان ثلاثين ألف دينار وخلعاً نفيسة وأجرى له كل سنة عشرة آلاف دينار، وأخبرهم بأنه سيمنح أمير المدينة مهناً عشرين ألف دينار، وفي كل سنة خمسة آلاف دينار[(٢)].

لكن مع قدوم بدر الجمالي إلى مصر عام ٤٦٦هـ / ١٠٧٤م، وتبوئه منصب الوزارة الفاطمية، وبعد استتباب الأمن وعودة الرخاء في عهده، أدرك عندها الفاطميون ضرورة العمل على استعادة الخطبة لهم في الحجاز، فأرسل المستنصر بالله لهذا الغرض رسولين من قبله إلى صاحب مكة، الحسني، قبَّحا عليه خطبته

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣٠٣.
(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص٢٠.

للخليفة العباسي، والسلطان ألب أرسلان السَّلجوقي، الذي خلف عمه طغرلبك[١] في تولّي سلطنة السلاجقة عام ٤٥٥هـ /١٦٠٣م[٢]، وبذلا له المال لإعادة الخطبة للفاطميين. شعر العباسيُّون بهذه المحاولة الرامية لتقليص نفوذهم، واضعاف موقفهم، وارسلوا مع «السلار» الذي يرافق الحاج العراقي أموالاً طائلة وهدايا ثمينة، قُدِّمت لأمير مكة، وقد لاقت مهمة «السلار» نجاحاً، إذ أعرض صاحب مكة اثر ذلك عن رسولي المستنصر بالله وأبعدهما عنه، وجعل الدعاء للعباسيين[٣].

في العام التالي (٤٦٧هـ / ١٠٧٤م) حدثت أمور أدَّت إلى استعادة الخطبة للفاطميين، جرى ذلك بعد أن توفي الخليفة العباسي القائم بأمر الله، وتولّي المقتدي بالله[٤] زمام الخلافة العباسية، وقد انشغل بترتيب أوضاع خلافته الداخلية عن إرسال الأموال والصلات، كما جرت العادة، إلى الحجاز. في هذه الأثناء، قويت شوكة الفاطميين على يدي بدر الجمالي، فما كان من المستنصر بالله إلاَّ أن أرسل سفارة مثقلة بالتحف والهدايا العظيمة إلى أمير مكة، يقول له فيها: «إنَّ أيمانك وعهودك كانت للقائم وللسلطان ألب ارسلان، وقد ماتا»[٥]. عندها جمع أمير مكة أصحابه، واستشارهم فيما طلبه الفاطميون، فأشاروا عليه بقبول العرض الفاطمي، مبرّرين موقفهم بالقول: إنَّا سلَّمنا هذا الأمر لبني العباس لما عدمنا المعونة من مصر، ولما رجعت المعونة فإنَّا لا نبتغي بابن عمنا بديلاً، فأجابهم إلى ذلك على كُرهٍ منه بخاصّةٍ بعد أن اشتدّ الغلاء في الحجاز عقب انقطاع ما كان يرسله العباسيون

(١) هو أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق، أول ملوك الدولة السلجوقية، وُصف بالكرم والحلم وسديد الأفعال. انظر: النجوم الزاهرة، ج٣، ص٥.
(٢) ابن الطقطقى، الفخري، ص٢٥٥.
(٣) ابن فهد، اتحاف الورى، ج٢، ص٤٧٥؛ صبحي عبد المنعم محمد، العلاقات بين مصر والحجاز زمن الفاطميين والأيوبيين، دار العربي، القاهرة، ١٩٩٣، ص١١٩.
(٤) بُويع الخليفة المقتدي بالله ابن الأمير ذخيرة الدين بعد موت جدّه القائم بأمر الله في الثالث عشر من شعبان سنة ٤٦٧هـ / ١٠٧٤م، ووُصف بأنه كانت له همة عالية وقد عُمرت في أيامه بغداد. أما القائم بأمر الله أبو جعفر عبد الله بن أحمد القادر فقد وُلد سنة ٣٩١هـ / ١٠٠٠م، وولي الخلافة عام ٤٢٢هـ / ١٠٣٠م، وتوفي كما ذكرنا سنة ٤٦٧هـ / ١٠٧٤م.
(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص٤٠٧.

إليه، فخطب أمير مكة للمستنصر بمكة(١) وأعاد ألقاب الفاطميين التي خلعها من قبّة المقام ومن حول الكعبة حين دعا للعباسيين، وقام بتوزيع الأموال التي أرسلها المستنصر بالله على أصحابه(٢). وبذلك أشاد الخليفة المستنصر بالله بما أنجزه بدر الجمالي في هذا المجال من خلال كتاب بعثه إلى الصليحيين في اليمن بتاريخ ٢٧ شعبان من عام ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م، يقول فيه: «كان من استفتاح عمله أن نظر فى أمر الحرمين المحروسين واعادتهما إلى ملكة الدولة، بعد أن علت منابرهما الاقدام الرجسة من الفئة الأموية والعباسية، فلو لم يكن في هذا الأمر القريب إلاّ هذه المنقبة لكان فيها كفاية»(٣). وفي شهر رمضان من سنة ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م، وصل إلى مكة من بغداد منبر كبير منقوش عليه بالذهب: «لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله. الإمام المقتدي بأمر الله أمير المؤمنين. ممّا أمر بعمله محمد بن محمد بن جهي». فاتفق وصوله وقد أُعيدت الخطبة للمستنصر، فكسر هذا المنبر وأُحرق(٤). واستمرَّ الأمر على هذا المنوال، في ظلِّ وزارة ابنه، الأفضل الجمالي، ولكن حادثةً في عهده (عام ٥١٢هـ / ١١١٨م) كادت أن تطيح بهذه العلاقات وأن تشعل نيران حرب بين الطرفين.

تفصيل ذلك: إنَّ قافلة تجاريَّة مصريَّة اعتُرضت في الحجاز وسرقت اموال وبضائع بعض التجار منها، عندما قدم هؤلاء إلى مصر، شكوا إلى الأفضل ما جرى عليهم من تعديات، فغضب وقال: «صاحب مكة يأخذ تجاراً من بلادي، أنا أسير إليه بنفسي بأسطول أوله عيذاب(٥) وآخره جدّة».

---

(١) م. ن، ج٢، ص٤٠٨.

(٢) ابن عنبة، عمدة الطالب، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٥، ص١٧.

(٣) السجلات المستنصرية، سجل رقم ٥٨، ص١٩٣.

(٤) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣١٩.

(٥) عيذاب: ميناء صغير على البحر الأحمر، تصل إليه المراكب القادمة من عدن والحبشة والهند إلى صعيد مصر، كما كانت على طريق الحج المصري، يسير إليها الحجاج من مدينة قوص بصعيد مصر معجم البلدان ج٥، ص٣٥؛ ويصفها ابن جبير الذي زارها سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م أنها «من أحفل مراسي الدنيا بسبب أنَّ مراكب الهند واليمن تحطُّ منها وتقلع فيها زائداً إلى مراكب الحجاج»، الرحلة، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧، ص٤٥.

وعلى الأثر كتب الأفضل إلى أشراف مكة، مبدياً انزعاجه مما فعله رئيسهم الشريف أبو محمد قاسم بن أبي هاشم، كما ضمن كتبه التهديد والوعيد، وأمر بمنع المصريين من تأدية فريضة الحج في ذلك العام، وقرر قطع المعونات والمؤن التي كانت ترسل لمساعدة أهل الحجاز وأمر بإعداد المراكب الحربية التي كانت تسمّى «الحراريق» كونها ترمي بالنيران وذلك لتأديب أمير مكة لما فعله بالتجار المصريين[١].

لما وصلت رسائل الأفضل إلى أشراف مكة ضاقوا بذلك ذرعاً ولاموا أميرهم على ما فعله تجاه المصريين، واشتدَّت الأمور عليهم نتيجة قطع المعونات والمؤن ووقف قافلة الحج المصريَّة، ولما علموا بالحملة التي يعدها الوزير الفاطمي للهجوم عليهم أرسلوا رسولاً إلى مصر لاستطلاع الأمور. عندما حضر الرسول إلى مصر أُهمل شأنه ولم تجر عليه ضيافة، وقيل له: ما يُقرأ لك كتاب ولا يُسمع منك كلام قبل اعادة المأخوذ من التجار إليهم، فتعهَّد عندها موفد الحجازيين بإعادة الأموال والبضائع التي أُخذت من التجار كما أنه لما رأى الاستعدادات العسكرية الجارية التي تُعدُّ للهجوم على بلده[٢] أسرع بالعودة إلى بلاده وقد اشتدَّ به الهلع بما سمع ورأى، ليرجع بعد فترة زمنية قصيرة، ومعه كل ما أُخذ من البضائع والأموال التي سُلبت من التجار، فحملت إلى جامع عمرو بن العاص سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م، حيث حضر التجار، وأخذوا بضائعهم وأموالهم، وأكرم الفاطميون الرسول وأحسنوا إليه، وعاد إلى بلاده بعد أن أطفأ فتيل الحرب التي كادت أن تندلع بين مصر والحجاز.

بقيت علاقة أمير مكة بالفاطميين طيبة إلى حين وفاته سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م، وخلفه ابنه فليتة الذي استهلَّ حكمه بالدعوة للعباسيين، بسبب ما كان يحضره أمير الحاج العراقي «نظر الخادم» من أموال وخلع في كل موسم[٣] واستمر الأمر على ذلك إلى زمن وفاته سنة ٥٢٧هـ / ١١٣٢م[٤].

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٥٨.
(٢) المقريزي، نفسه ج٣، ص٥٩؛ النويري نهاية الارب، ج٢٨، ص٢٧٩.
(٣) عبد العزيز بن فهد، غاية المرام، ج٢، ص١٩٧.
(٤) ابن خلدون، العبر، ج٤، ص١٣٤.

ما يجدر قوله في هذا المجال، ومن خلال ما استعرضناه من بعض أوجه العلاقة القائمة بين الفاطميين وأمراء الحجاز، آنذاك، حيث إن الحجاز لم يشكل سلطة مستقلّة عن بغداد وعن القاهرة وكانت العلاقة مبنية تبعاً لموازين القوى التي حكمت بين الخلافتين العباسية والفاطمية قوة نفوذ أيٍّ منهما أو ضعفه، ويعلّل ابن الجوزي سبب التحوّل السريع من قبل أمير مكة الذي كان يغير مواقفه تجاه هذا الفريق أو ذاك نتيجة حسابات ومصالح، ويُورد للتدليل على ذلك ما حدث سنة ٤٦٨هـ من اعادة الخطبة للخليفة العباسي إذ أن حاكم مكة كان قد بعث رجلين ليتعرّفا على مدى قوة خليفة مصر، وإن كان يُرجى من وراء الخطبة له صالحاً، فعادا إليه وقالا: ما بقي ثمَّ شيء يُرجى عنده بعد نفاد الأموال وفساد الأحوال، فأعاد بسبب ذلك الخطبة للعباسيين(١). وقد استفاد أمير مكة من هذا التنافس القائم بينهما بسبب الأهمية التي كان يوليها كلٌّ منهما، فالخطبة من على منابرها تشكل قوة معنوية للطرف الذي يُدعى له، وتكسب خلافته قوة أمام العالم الإسلامي من جهة، وأمام الشعوب التي يحكمونها وأمام العالم كله من ناحية أُخرى، فمكة والمدينة، الحرمان المقدسان، يشكلان بالنسبة للمسلمين مصدراً من مصادر المشروعية، والخليفة الشرعي باعتقادهم هو من يُدعى له على منابرهما(٢).

(١) ابن الجوزي، المنتظم، ج٨، ص٣١٢.

(٢) إن علاقة الفاطميين بالحجاز، بدأت تحديداً منذ عام ٣٥٨هـ بالدعوة للخليفة المعز لدين الله الفاطمي، وخطب بعد وفاته للعزيز سنة ٣٦٥هـ، ولكن الخطبة قطعت بعد ذلك حتى سنة ٣٦٧هـ، وهي السنة التي ولي فيها ابن كلس الوزارة، فأرسل حملة على رأسها ادريس الصنهاجي استطاعت الاستيلاء على الحرمين واقامة الخطبة للعزيز، وبقي الوضع على هذه الحال حتى سنة ٣٨٠هـ، حيث استطاع أمير الحاج العراقي أن يدعو على منابر الحرمين للعباسيين ولعضد الدولة بن بويه، الأمر الذي اضطرَّ العزيز لإرسال حملة تمكنت من إعادتها إلى حظيرة الخلافة الفاطمية وظلت على ولائها حتى سنة ٤٠٠هـ، في عهد خلافة الحاكم بأمر الله، وقد جرت تطورات عديدة. للمزيد حول الموضوع يُراجع: المناوي، مرجع سابق، ص٢١٠.

ثانياً: العلاقة مع اليمن وعُمان

روابط الفاطميين ببلاد اليمن قديمة العهد، تعود لبدايات الدعوة الإسماعيليَّة، عندما انتقل إليها بعض الدعاة الإسماعيليين من بلاد الشام نظراً لقربها من بغداد، مركز الخلافة العباسيَّة، وهذا ما أسهم في إعاقة تحركاتهم المناوئة للعباسيين. لذا صار البحث عن مكانٍ آخر يشكل منطلقاً لعملهم، فوقع اختيارهم على اليمن.

ارتبطت دعوة اليمن بشخصيتين رئيسيتين، هما: أبو القاسم الحسن بن فرح بن حوشب الذي عُرف فيما بعد بـ«منصور اليمن» لما أُتيح له من النصر هناك، وأبو الحسن علي بن الفضل الجيشاني(١). وادراكاً من الإسماعيليين لصعوبة بقائهم في اليمن بسبب طبيعتها الجبلية ووعورة طرقها؛ لجأوا إلى تغيير مركزهم لبثِّ دعوتهم فكان مقصدهم المغرب، ومنه أتوا إلى مصر، حيث أسَّسوا خلافتهم على يد المعزّ لدين الله الفاطمي (٣٤١ - ٣٦٥هـ / ٩٥٣ - ٩٧٥م)، واستمرت الرّوابط فيما بين الفاطميين في مصر وحكام اليمن، بعد هذا التاريخ. وممَّا يُذكر، أنه بمجيء بدر الجمالي إلى مصر وضبطه للأُمور هناك، وبعد إصلاحه لأحوال الدولة، أرسل المستنصر بالله في ٢٧ شعبان سنة ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م إلى الصليحيين حكام اليمن آنذاك، كتاباً يستعرض فيه انجازات بدر الجمالي، يقول فيه: «فهو خليفتنا وباب دعوتنا، الحالُّ منا محلاً لم يحله أحد قبله، القائم من أمورنا مقام الأساس لمشكلات الالتباس».

وفي ذلك إشارة إلى الأهمية التي كان يوليها الخليفة الفاطمي لمكانة بدر الجمالي وإنجازاته وضرورة إعلام أمراء اليمن بتقديره له(٢).

بعد وفاة المستنصر بالله عام ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م، خلفه ابنه أبو القاسم أحمد

---

(١) القاضي النعمان، رسالة افتتاح الدعوة، تحقيق وداد القاضي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٠، ص١٥٠.

(٢) السجلات المستنصرية، سجل رقم ٥٨، ص١٩٣.

الملقب بالمستعلي بالله، وقد أيّدت السيدة الحرَّة بنت أحمد الصليحي، زوج المكرم الصليحي - الذي كان المستنصر بالله قد عهد إليه تقلّد زمام الأمور في اليمن - خلافته رغم ما حاط ظروف تولّيه الخلافة من عدم إجماع وخلافات داخلية.

اثر ذلك بعث المستعلي بالله إلى السيدة الحرَّة رسالة مؤرّخة في ٨ صفر سنة ٤٨٩هـ / ١٠٩٥م، تضمنَّت وصفاً لثروة نزار وتغلُّب وزيره الأفضل الجمالي عليها نهائياً، وفيها اشادة بأعمال الأفضل الجمالي وحسن ادارته، ومما جاء في هذه الرسالة: «. . . وإن البيعة انتظمت لأمير المؤمنين على أجمل القضايا والأسباب، ودخل الناس فيها من كل باب، بحسن سياسة فتاه وخليله، السيد، الأجل، الأفضل، أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الإمام، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين» كذلك حاولت والدة الخليفة المستعلي جذب الدعاة في اليمن وشدّهم إلى تأييد خلافة المستعلي، فبعثت إلى السيدة الحرة رسالة، تحدَّثت فيها عن عهد المستنصر لولدها أبي القاسم أحمد وثورة نزار وافتكين بالاسكندرية على خلافته، ومن ثم أشارت إلى الانجازات التي تحققت على يدي الأفضل الجمالي، ومما ورد في هذه الرسالة: «. . . وجعل خليله ووزيره، السيد الأفضل، أمير الجيوش، سيد الإسلام ولياً أعلى الله همته في ارتياد الصلاح واغتنامه، ومدبراً جرى به أمر المملكة على اطراده وانتظامه. . .»(١).

ويستوقفنا هُنا توجّه أهل اليمن للإنضمام إلى المستعلي بالله وعدم تأثرهم بالنزاع الذي دار في مصر حول الخلافة والذي ترتب عليه ظهور فرقتين، عرفت الأولى بالنزارية، وكان رأيها يتمثل بأن المستنصر بالله أوصى بالخلافة من بعده لابنه الأكبر نزار. أما الفرقة الثانية فتعتقد أنه أوصى بالخلافة لابنه المستعلي بالله. وقد انحاز دعاة الإسماعيلية في اليمن إلى هذه الفرقة الأخيرة وظلوا على ولائهم للخليفة المستعلي.

ومما يلاحظ أن تأييد السيدة الحرة ودعاتها للخليفة المستعلي بالله قد أسهم

---

(١) السجلات المستنصرية، سجل رقم ٤٥؛ وسجل رقم ٣٥، ص٧٥، و١١٧؛ فرهاد دفتري، الإسماعيليون تاريخهم وعقائدهم، ج٢، ص١٥٣.

بعدم تبني وجهة نظر النزارية في بلاد اليمن[١]، وبذلك توحّدت كلمة الاسماعيليين في تلك البلاد فيما تفرّقت في مصر بين نزارية ومستعلية[٢].

أما بما يتعلق بعلاقات الفاطميين بعُمان، فإن الدولة الفاطمية كانت تراقب الاضطراب السائد فيها وتحرص على الإبقاء على دعوتها التي قام دعاتها بنشرها في هذا القطر منذ أواخر القرن الثالث الهجري، فلما بلغ المستنصر بالله الفاطمي ضعف النفوذ العباسي هناك، بعث إلى المكرم أحمد، الذي ولي الملك في اليمن بعد وفاة أبيه علي بن محمد الصليحي، خطاباً في ربيع الثاني عام ٤٦٩هـ، طلب إليه فيه القيام بإدارة شؤون ولاية عمان والعمل على استتباب الأمن فيها رغم أنها لا تدخل في نطاق دولته، وقد جاء فيه: «. . . ولقد جدَّد السيد الأجل، أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الإمام، أبو النجم المستنصري في هذا الحين ذكرك بالحضرة، وشيد مالك لديها من الاصطفاء والاثرة. . . ولما انتهى إلى حضرة أمير المؤمنين حال مدينة عمان وما جرى فيها من الغلاء والفساد. . . رأى أمير المؤمنين أن يضيف إلى ذلك وما يجري في نظرك ولاية مدينة عمان، لكونها أيضاً لأعمالك مجاورة»[٣].

وفي ظل وزارة بدر الجمالي أيضاً، كانت بلاد اليمن إذ ذاك تبعث إلى عمان والهند بالدعاة لنشر الدعوة الفاطمية وكان للمذهب الإسماعيلي هناك أنصار كثيرون. ولما ورد على المستنصر خطابات عديدة منهم تتضمن وفاة دعاته ورغبتهم في أن يزود بلادهم بدعاة غيرهم، بعث إلى المكرم أحمد كتاباً في ربيع الأول سنة ٤٧٦هـ أخبره بموافقته على تعيين مرزبان بن إسحاق داعياً في الهند، وإسماعيل بن إبراهيم بن جابر داعياً في عمان[٤].

---

(١) Y.Lev, Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and MAMLUK ERAS, Louven 2001, P24.

(٢) توسعت في بحث هذا الموضوع في الفصل الثالث، فليراجع هناك.

(٣) السجلات المستنصرية رقم٥٤، ص٢٢٦؛ محمد سرور، سياسة الفاطميين الخارجية، ص١٧٦ - ١٧٧.

(٤) السجلات المستنصرية رقم ٦٣/ ص٢٠٥.

صفوة القول: إنَّ الفاطميين كانوا يسعون إلى مدّ نفوذهم إلى مناطق عُمان وما يجاورها وذلك لتحقيق وصولهم إلى السند والهند، وهذا ما حدث معهم(١).



(١) ابن حجر، رفع الاصر، ج١، ص١٩٤.

ثالثاً: العلاقة مع بلاد الشام

ترجع علاقة الفاطميين ببلاد الشام إلى وقت مبكر من ابتداء الدعوة الإسماعيلية، عندما لجأ عبد الله بن ميمون، كبير الدعاة، سنة ٢٦٠هـ / ٨٧٣م، إلى «سلميَّة» شمال شرقي حمص، حيث كانت مدينة عامرة بالتجار الذين يأتونها من جميع الأمصار. وقد اختطَّ كل جماعة منهم حيّاً باسمهم مثل «أهل بلخ» و«أهل حلب» و«أهل الرقة»، وقد استقرَّ عبد الله في هذه المدينة على أنه تاجر وبنى له بها قصراً شامخاً[١]. ومنها انطلقت دعوة الفاطميين إلى اليمن، لتنتقل بعدها إلى المغرب، ومن ثم إلى مصر، خلافة إسلاميَّة في مقابل خلافة العباسيين في بغداد.

وبين مصر وبلاد الشام علاقات اقتصادية كانت مزدهرة وترتكز على استيراد مصر بعض السّلع والبضائع، منها الاخشاب وماء الورد المزّي الذي كان يُعرف بماء الورد الشامي، حيث كان أطباء مصر يصفونه لمرضاهم خلال الفترة الفاطمية، إضافة لاستيرادهم للزجاج الدمشقي والورق الدمشقي[٢].

بعد أن ثبّت الفاطميُّون قواعد حكمهم في مصر، (٣٥٨هـ / ٩٦٩م) بدأوا بالتحضير للاستيلاء على بلاد الشام؛ لأنَّ السيطرة عليها تمثّل دائماً أولوية استراتيجيَّة لكل نظام يتولّى حكم مصر. واضافة إلى تحقيق هذا الهدف، فإنَّ الفاطميين كانوا يرون أنَّ سيطرتهم على بلاد الشام هي مرحلة ضرورية لتنفيذ هدفهم الأساسي، وهو القضاء على الخلافة العباسية. لذلك أرسل جوهر الصقلي جعفر بن فلاح الكتامي، أحد كبار قادة كتامة[٣] الذين شاركوا بفتح مصر، على رأس جيش إلى الشام، تمكن من فتح الرملة ثم دمشق وإقامة الدعوة فيهما للخليفة المعز سنة

---

(١) عادلة علي الحمد، قيام الدولة الفاطمية ببلاد المغرب، دار المستقبل، الاسكندرية، ١٩٨٠، ص١٩٢.

(٢) ناصر خسرو، سفرنامه، ص١٠٤.

(٣) قبيلة كتامة من قبائل البربر الكبرى، كانت تقطن منذ الفتح العربي بين جبال أوراس والبحر المتوسط حول جبل ايكجان بنواحي قسنطينة شرقي الجزائر.

٣٥٩هـ / ٩٧٠م، وأتمَّ جعفر فتح الشام في عام ٣٦٠هـ / ٩٧١م، ودخلت قوّاته في مواجهة مع البيزنطيين في انطاكية. فاعلن الحمدانيون، أمراء حلب، وغيرهم من أمراء الشام، على الأثر ولاءهم للخلافة الفاطمية[١].

كانت بلاد الشام من أكثر املاك الخلافة الفاطمية تأثراً بحالة الضعف التي اتسمت بها مصر أثناء الشدة المستنصرية وبعدها، إذ عجز الفاطميون عن التصدّي لأطماع الأُسر المحلية من العرب أو الاتراك في السيطرة على أملاكها، هذا فضلاً عن عجزها عن الوقوف بوجه الدولة السلجوقية الفتية، التي امتدَّت أيدي عسكرها إلى معظم بلاد الشام وملكتها، فخرجت عن أيدي المصريين ولم تعد إليهم[٢] وقد بدأ خروج معظم الشام عن الخلافة الفاطمية، مع بداية الشدة عام ٤٥٧هـ / ١٠٦٥م، ففي شهر رمضان في هذه السنة تمكن محمود بن مرداس ومعه الأمير ابن خان التركي، من دخول حلب، بعد أن فشل في الاستيلاء عليها عام ٤٥٢هـ / ١٠٦٠م، إلاَّ أن محموداً لم يُسقط الدعوة الفاطمية عند دخوله المدينة، بسبب تخوّفه من احتمال ثورة أهلها، ولكنه عاد واسقطها عام ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م عندما طلب منه ألب ارسلان السلجوقي أن يدعو للعباسيين[٣]، ولم يكتف ألب ارسلان بذلك بل سار إلى حلب سنة ٤٦٣هـ / ١٠٧١م وحاصرها، فخرج له محمود بن صالح فقلّده ولاية حلب من قبله ليؤكد بذلك خروج حلب نهائياً عن الدولة الفاطمية[٤] أما فلسطين، فقد بدأ أتسز بن اوق، مقدم الاتراك، الغزو بالشام للاستيلاء على أعمالها منذ عام ٤٦٣هـ / ١٠٧١م واستولى بداية على الرملة وبيت المقدس، ولما حل عام ٤٦٥هـ / ١٠٧٣م كان قد استولى على معظم فلسطين عدا ارسوف[٥] وقطعت بذلك خطبة المستنصر من أحد الاماكن المقدسة على يد هذا القائد التركماني.

بعد تولي بدر الجمالي الوزارة في مصر عام ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م، كانت أُولى

---

(١) ابن خلدون العبر، ج٤، ص٤٩؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١١، ص١٢٣؛ أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية في مصر، ص١٥٠.
(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣٠٢.
(٣) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج١٦، ص٢١٥.
(٤) محمد جمال الدين سرور، نفوذ الفاطميين في بلاد الشام، ص٦٠.
(٥) ابن القلانسي، ذيل، ص٩٩.

التطورات التي واجهته، تمثّلت بمحاولة أتسز، القائد السّلجوقي، مهاجمة الأراضي المصرية سنة ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م، عن طريق ساحل بلاد الشام، وقد توغّل بقواته، التي بلغ تعدادها قرابة عشرين ألفاً إلى مصر، دون أن يصادف مقاومة تُذكر، حتى وصل الدلتا، وعسكر فيها خمسين يوماً، دون أن يسير إلى القاهرة. لم يكن بدر الجمالي، في هذه الاثناء، مستعداً لمواجهة أتسز لانشغاله باخماد الثورات في بلاد الصعيد، لكن لما استفحل خطر السلاجقة عليه، عاد إلى القاهرة وعمل على تجنيد جميع الرجال القادرين على حمل السلاح، ودعا ثلاثة آلاف حاج كانوا متأهبين للسفر إلى بلاد الحجاز، لمعاونته في قتال السلاجقة، فأجابوه إلى طلبه، وأعدّ جيشاً كبيراً للقائه، وقد استمال إلى جانبه فريقاً من جند السلاجقة، وسار لمواجهة السلاجقة وهزمهم، فَفَرَّ أتسز في نفر يسير من أصحابه، وأقام بالرملة حيث لحق به من بقي من عسكره، ثمَّ عاد إلى دمشق وحصَّنها[(١)]، فاستمرت ومعها العديد من المدن السورية خارج قبضة الفاطميين.

لم ينصرف الفاطميون عن مواصلة جهودهم لاستعادة سيطرتهم على بلاد الشام، إذ سار بدر الجمالي بنفسه عام ٤٧٨هـ / ١٠٨٥، على رأس جيش كبير، محاولاً استرداد دمشق، فحاصرها حصاراً شديداً، وجرى بينه وبين صاحبها تاج الدولة تتش قتال، غير أنه لم يتمكن من التغلُّب عليه، فرحل عائداً إلى مصر[(٢)].

ولم يزل أمير الجيوش، يوجّه اهتمامه إلى بلاد الشام، لاعادة هذه المدن إلى كنف الفاطميين، حتى تمكن في سنة ٤٨٢هـ / ١٠٨٩م، من الاستيلاء على معظم مدن الشام الساحلية، عندما ندب عسكراً بقيادة نصر الدولة الجيوشي، ونزل في البداية على صور وحاصرها، واضطرَّ أبناء عين الدولة ابن عقيل، الذين كانوا يلون أمورها، إلى تسليمها له، وواصل الجيوشي زحفه على مدن الشام الساحلية، حيث استولى على صيدا وعكا، ثم نزل بعلبك، ودخل أميرها في طاعة الفاطميين وأقام الخطبة للخليفة المستنصر بالله.

---

(١) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص١١١؛ خاشع المعاضيدي، الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي، دار الحرية للطباعة، بغداد، ط١، ١٩٧٦، ص٩٢.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٩، ص٤٩.

رابعاً: العلاقة مع الحبشة وبلاد النوبة

العلاقة التي كانت تحكم الدولتين الجارتين، مصر والحبشة، تتمثل في جانبين، هما:

- **الجانب الديني**، فقد كانت الكنيسة الحبشيَّة تابعة لكنيسة الاسكندرية القبطية منذ فترات طويلة، وبقيت مصر ترسل المطارنة إلى الحبشة، كلما خلا منصب المطران فيها، وبذلك يقول المقريزي: «ولا بُدَّ للحبشة من مطران يوليه بطريرك النصارى اليعاقبة في مصر بعد سؤال ملك الحبشة للخليفة الفاطمي في مصر»(١).

- **الجانب الاقتصادي**، حيث إن مجرى نهر النيل ينحدر من الحبشة إلى مصر، وبالتالي فإن الاحباش يعدُّون أنفسهم حماة لمجاري هذا النهر ويقومون باصلاح مساره وتحديد مجراه، تقرُّباً منهم إلى صاحب مصر(٢).

إذاً، هذان العاملان لعبا دوراً أساسياً في توطيد العلاقات فيما بين الطرفين، وبرزت رغبتهما المشتركة في التفاهم والتعاون.

ويورد المؤرّخون أنَّ بدراً الجمالي، أثناء توليه الوزارة في مصر، عزَّز العلاقات القائمة مع الحبشة، حيث شهدت دار البطريركيَّة في القاهرة وفادة عدد غفير من الاحباش الاقباط، كما شهدت أيضاً عهد ملك الحبشة إلى المطران الانبا بطرس أمر الاشراف على شؤون مملكته إلى أن يتمكن من اختيار أحد ولديه لتولِّي الحكم من بعده، كما أن البطريرك استغلَّ نفوذه لتوطيد العلاقات بين البلدين(٣).

كما ساند بدر الجمالي البطريركية في عهد خريستو ذولولس عندما قررت عزل فوريل الذي استولى على كرسي المطرانية بعد وفاة الانبا بقطر مطران الحبشة، حيث استقدمه إلى مصر وأمر باعتقاله وضرب عنقه، ثم أذن للبطريرك كيرلص الثاني

---

(١) المقريزي، الخطط، ج٣، ص٤٩٥.
(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٣٣٣.
(٣) ساويرس بن المقفع، سير الآباء البطاركة، م٢، ج٣، ص٢١٠.

بترسيم الراهب القبطي ساويرس مطراناً على الحبشة، على أن يلتزم بمواصلة إرسال الهدايا التي درج مطران الحبشة على إرسالها إلى مصر، وأن يتعهد كذلك برعاية المسلمين المقيمين في الحبشة، والاهتمام بأموالهم والسهر على شؤونهم وأن ينشىء لهم أربعة مساجد(١).

لم تستمر العلاقات الودية على هذا المستوى، وإنما شابتها توترات، ترجع إلى أن ساويرس، المطران المعيَّن في الحبشة، قد أخفق في أن يفي بالتعهدات التي قطعها للوزير الجمالي، فلم يفِ بالتزاماته تجاه المسلمين، وحتى أن الهديَّة التي حملها أخو المطران إلى مصر عام ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م لم ترضِ بدراً الجمالي، الأمر الذي دفع الأخير لاستدعاء البطريرك كيرلص الثاني، وعشرة من الأساقفة الاقباط، وأرسل في طلب أبي مليح بن زكريا، صاحب ديوان الأبواب، لحضور مجلسه معهم. وعندما وصل هؤلاء إلى مجلس الوزير وجدوا أنه قد أحضر أخا مطران الحبشة، فلما أخذوا أماكنهم في المجلس، خاطبهم الوزير بقوله: أنتم قد جعلتم أخا هذا مطراناً للحبشة، ولنا في ذمته مال، ولم يَفِ بما تعهَّد به لنا من بناء مساجد في بلاد الحبشة، ومن حمل هدايا، . . . ثم وبَّخهم وهدّدهم وطرد البطريرك من مجلسه، وأمر بأخي المطران فقبض عليه واعتقل في خزانة البنود، وأمر كل أسقف من الأسافقة الذين حضروا مجلسه بدفع غرامة يوميَّة قدرها ديناران، وأساء معاملة النصارى في دولته.

وفي سبيل استرضاء الوزير وامتصاص غضبه، عقد البطريرك اجتماعاً مع رجاله في كنيسة المعلّقة واتفق المجتمعون على ارسال مرقص، اسقف اوسيم، وتادرس، اسقف سنجار، إلى الحبشة ليحملا ملكها ومطرانها على الوفاء بما تعهدا به.

لكن ردّة الفعل التي جوبه بها وفد الاساقفة الاقباط إلى ملك الحبشة كانت قاسية، وقد كان بحوزتهم رسالة شديدة اللهجة من بدر الجمالي تدعوه إلى تنفيذ مطالبه وإلاَّ هدمت البيع التي بأرض مصر، إذ لم يبال بذلك(٢).

---

(١) ساويرس ابن المقفع، سير، ص٢١١.

(٢) فايزة محمد الشوحة، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي، اطروحة دكتوراه، الجامعة اللبنانية، كلية الآداب، اشراف الدكتور أحمد حطيط، نوقشت عام ٢٠٠١م، ص٢١٥.

أما في عهد الافضل الجمالي، فقد حدث أن أرسل ملك الحبشة رسولاً إليه يلتمس منه أن يوعز إلى الجهة الدينية المسؤولة لتعيين مطران لبلاده، وتسييره إليه مع رسوله. استجاب الأفضل لرغبة الملك الحبشي، فأصدر أمره بتنصيب الراهب جرجس مطراناً للكنيسة، وجرت مراسم التنصيب في دير «أبي مقار». ولكن ما إن تولى هذا المطران مهامه في بلاد الحبشة حتى أساء التصرّف واقترف أفعالاً شائنة لا تليق بمنصبه الديني، ما حمل ملك الحبشة للقبض عليه، ومصادرة أمواله، وترحيله إلى مصر، وكتب أمره إلى الوزير الأفضل. وحين وصوله إلى القاهرة أمر الوزير الجمالي بالقبض عليه وحبسه في حبس الشرطة، وبقي رهن الاعتقال عدَّة سنوات. يضاف إلى ذلك أن البطريرك المصري قام بخلعه، وترسيم مطران آخر محله، وإرساله إلى الحبشة[1].

ما يجدر ذكره، في هذا المجال، أن بدراً الجمالي وابنه الأفضل وحسب ما لاحظنا كانا يوليان مسألة العلاقات الخارجية للدولة الفاطمية أهمية بالغة، عبر السعي للاحتفاظ بمكاسب الدولة ومصالحها في هذا الاقليم أو ذاك.

وثمة أمر آخر، يحسن التوقف عنده أنَّ علاقات الفاطميين الخارجية كانت متمثلة بالجماليين فحسب، لذا لم يبرز خلال هذه المحطات التاريخية إشارة إلى أدوار قام بها الخلفاء الفاطميون.

أما بلاد النوبة، فكانت تربطها بالفاطميين كثير من الصّلات الإقتصاديَّة والنشاط التجاري، حيث كان تجار مصر يذهبون إلى النوبة، محمّلين بأدوات الزينة من الخرز والامشاط والمرجان، كما أن مصر، كانت تعتمد اعتماداً رئيسياً على رقيق النوبة إلى جانب القمح والذرة والحبوب الأخرى المستوردة منها.

وكانت بين مصر والنوبة عهود ومواثيق، من مقتضاها أن الجيش الفاطمي لا يتجاوز حدود بلاد النوبة أو يعمد إلى تصرّفات تؤذي أهلها، وبالمقابل كان ملوك بلاد النوبة يحرصون على استمرار هذه العلاقات الثنائية عبر إرسالهم الهدايا للخلفاء الفاطميين.

---

(١) ساويرس بن المقفع، سير الآباء، ج٣، ص٢٤٧.

ويبدو أنَّ العلاقات الوديَّة السائدة بين مصر والنوبة استمرَّت أثناء فترة حكم الجماليين، ولا أدلَّ على ذلك من إرسال النوبيين كنز الدولة الذي ثار على بدر الجمالي ولجأ إلى النوبة وتسليمه له، تأكيداً على متانة العلاقة فيما بينهما. وثمة حادثة أُخرى جرت يظهر فيها عطف بدر الجمالي على ملك النوبة عندما خرج الأخير إلى أسوان لزيارة بعض كنائسها، فبالغ الجمالي في إكرامه واتحافه بالهدايا[(١)].

وكان النوبيون يلجأون إلى بدر كلّما حدث خلاف بينهم وبين رؤساء الكنيسة القبطية بمصر كما جرى عندما أرسل الملك بازيل يطلب وساطة بدر ومساعدته حتى يعيّن البطريرك ابنه رئيساً دينياً للنوبة.

ولكنَّ صفو هذه العلاقات قد ساء في عهد الأفضل الجمالي، من دون أن نعرف سبب ذلك، حيث ذكر المقريزي في حوادث عام ٥٠١هـ/١١٠٧م، أن ملك النوبة قد تجهَّز براً وبحراً، وقصد البلاد القبلية، فسيَّر الأفضل عسكراً إلى قوص وطلب إلى واليها أن يسير بنفسه إلى أطراف بلاد النوبة، فورد الخبر بوثوب أخي الملك عليه وقتله واشتدَّت الفتنة، وأُجلس صبيٌّ في الملك، فأرسلت عندها أمه تستجير بالافضل وتسأله أن يسيّر إليهم من يغزوهم فكتب لوالي الصعيد الأعلى بأن يسيّر عسكراً إلى أطراف بلاد النوبة ويبعث إليهم رسولاً «يحدّد عليهم القطيعة الجاري بها العادة وهي ثلاثمائة وستون رامساً دقيقاً كل سنة، بعد أن يستنفذ منهم ما يجب عليهم في السنين المتقدمة»[(٢)].



(١) أمينة أحمد الشوربجي، رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر في العصر الفاطمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤، ص٣٩٠.
(٢) المقريزي، الخطط، ج٢، ص٣١٥.

خامساً: الفاطميون والفرنج

ربما يكون هناك التباس لتفسير موقف الفاطميين تجاه حملات الفرنج التي اجتاحت المشرق الإسلامي، وحول دور الأفضل الجمالي تحديداً في مواجهتها، إذ يعتقد بعضهم أنه تلكأ في جهادهم.

قبل معالجة ذلك، نودُّ الإشارة إلى جملة عوامل ساهمت في غموض الوضع وضبابيته، منها انّ ربط تباطؤ الفاطميين في الدفاع عن الامارات الإسلاميَّة يرده بعضهم إلى الاختلاف المذهبي بين الدولتين الفاطمية والسلجوقية، اللتين تقاسمتا النفوذ في الاماكن التي هاجمها الفرنج، ومحاولة كلٍّ منهما التخلّص من الأخرى. وثمة أمر آخر، يبرز في هذا الاتجاه، هو الضعف والتشرذم الذي انتاب العالم الإسلامي بأسره أواخر القرن الحادي عشر الميلادي وأوائل القرن الثاني عشر حيث كان لذلك أكبر الأثر في تراجع الجبهة الإسلامية.

سنتناول من مجريات أحداث الصراع بين الفاطميين والفرنج ما يتصل منها بالأُسرة الجمالية.

بدأ الفرنج حملتهم الأُولى سنة ١٠٩٧م، وقد وصلوا في السادس من أيار من هذا العام إلى نيقية، عاصمة سلاجقة الروم، وشرعوا في محاصرتها إلى أن استولوا عليها في ١٩ حزيران. وفي الطريق إلى انطاكية، عبر جبال طوروس، انفصل تنكريد، من امراء النورمان في جنوب ايطاليا، وبودوان عن بقية جموع الفرنج، وتوجّها إلى قليقية، واحتلا طرسوس. ثم استولى تنكريد على أضنة، فاسرع بودوان لملاقاته إلى هناك، وانتقل بعدها إلى مرعش، ومنها توجّه شرقاً قاصداً مدينة الرها، الخاضعة لنفوذ الأرمن، واستولى عليها في شباط عام ١٠٩٨م[١]، وقد سقطت أنطاكية بأيدي الفرنج في حزيران من العام نفسه بعد حصار دام عدَّة أشهر، وبعد

(١) وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبيَّة، تعريب سهيل زكار، بيروت، ١٩٩٠، ج١، ص٢٦٥.

سلسلة من عمليات القتل والسبي، التي أشار أبو المحاسن إلى بعض ذلك بقوله: «وأما انطاكية فقتل منها وسبي من الرجال والنساء والأطفال ما لا يدركه حصر»[(١)].

ازاء هذه التطورات المتسارعة تُرى ما كان موقف الأفضل الجمالي منها، وما هي حقيقة ردود الفعل في مصر أمام ما حَدَث؟

إذا حاولنا دراسة موقف الأفضل والدوافع التي الجأته إلى التروي في قراءة الحدث تظهر لنا بدايةً الحالة التي وصلت إليها مصر الفاطمية من فوضى وبؤس وانقسامات في صفوف الجيش وخروج بعض الأقاليم من قبضة الفاطميين في عهد المستنصر بالله. زيادةً على ذلك ما حدث في أول وزارة الأفضل من انقسام بين صفوف المذهب الفاطمي وظهور فرقتين متنازعتين هما النزارية والمستعلية وما تلا ذلك من جهود قام بها الأفضل للقضاء على ثورة نزار.

كانت ردّة فعل الأفضل باتجاهين، الأول هو بالوسائل السّلميَّة التي رأى فيها محاولة يائسة لإيقاف زحف الفرنج، وربما لجأ إليها لاعتقاده أن أطماع الفرنج قد تقف عند هذا الحدّ. وما جرى هو انفاذ الأفضل سفارة إلى الفرنج للتفاوض في عقد اتفاق معهم، يتضمن أن ينفرد الفرنج بأنطاكية، وأن تستقل مصر ببيت المقدس، وفي الوقت نفسه يُسمح للفرنج بزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين وتكون لهم الحرية في أداء شعائرهم الدينية، على أن لا تزيد مدّة إقامتهم بها عن شهر واحد، وألاّ يدخلوها بسيوفهم[(٢)].

ولكن قادة الفرنج فهموا من هذا العرض ضعف الدولة الفاطمية، فردوا على الأفضل بأنهم سيتمكنون من الحجّ فعلاً ولكن بمعونة الله، وهذا يعني أنهم يُعلنون الحرب على الفاطميين، وأنهم سوف ينتزعون بيت المقدس من أيديهم، لا سيّما وأن الاحتكاك بين الطرفين أصبح مباشراً بعد زوال النفوذ السلجوقي من بلاد الشام[(٣)].

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج٥، ص١٤٧.

(٢) ابن الأثير، الكامل ج١٠، ص٢٧٨.

(٣) Wiet, G,art "al - 'Afdal" EI2,V.I p.216.

ولعلَّ الأفضل كان يدرك أن الفرنج كانت وجهتهم بيت المقدس وامتلاكها، وأن هذه الطرق الدبلوماسية والمفاوضات سوف لن تثنيهم عن تقدمهم، ومع ذلك أقدم عليها لاعتقاده أن ليس هناك من قوى إسلامية موحّدة في طريق الفرنج تستطيع التغلّب عليهم والحؤول بينهم وبين وصولهم إلى القدس، فحاول جاهداً اقناعهم بالتوقف عند انطاكية على أن تكون لهم حريَّة زيارة القدس أفراداً غير مسلّحين(١).

أَما الاتجاه الثاني الذي تبناه الأفضل، واعتمده في المرحلة التالية هو مواجهة الفرنج والوقوف بوجه تقدمهم والحيلولة دون تحقيق أطماعهم، وأول ما عمله هو العزم على الاستيلاء على فلسطين لاعتقاده أنَّ السلاجقة، في آسيا الصغرى وبلاد الشام، لن يكونوا في وضعٍ يُمكنهم من مقاومة هجوم جديد، فخرج على رأس جيشه فهاجم بيت المقدس وحاصرها لمدَّة أربعين يوماً، فاستسلمت له بعدما تغلَّب عليها وملكها سلماً(٢) في يوم ٢٦ آب ١٠٩٨م/ ١٥ رمضان ٤٩١هـ ، وكان بها سقمان وايلغازي ابنا ارتق بن اكسب التركماني، اللذان اعترفا بسيادة الأمير دقاق بن تاج الدولة تتش، صاحب دمشق، وقد كان راسلهما الأفضل يلتمس منهما تسليم بيت المقدس إليه من غير حرب، فامتنعا بادىء الأمر عن اجابة طلبه، ثم ليوافقا إثر ذلك، وعندما دخل الأفضل إلى بيت المقدس، أحسن معاملة الأميرين سقمان وايلغازي، واطلق سراحهما، وقد سار سقمان إلى الرها، وايلغازي إلى العراق(٣). وعمد الأفضل إلى اصلاح استحكامات بيت المقدس ليزيد من مناعة المدينة، تحسباً لما قد تتعرض له من اخطار مستقبلية، وعاد إلى مصر، بعد أن استناب على حكمها، الأمير افتخار الدولة(٤).

بدأت بعد ذلك مرحلة جديدة ومحطّة هامة من محطّات الصراع الفرنجي - الفاطمي تمثلت بالمواجهة المباشرة بين الطرفين بعد استيلاء الفرنج على بيت

---

(١) حسن الأمين، مستدركات أعيان الشيعة، دار التعارف، بيروت، ١٩٩٦، ج٧، ص٢٥.
(٢) ابن خلدون، العبر، ج٤، ص٦٧.
(٣) ابن ميسر، أخبار مصر، ص٣٨ . P.M.Holt, Bernard Lewis, The Cambridge History of Islam, volume 1 A,1970, (Egypt and Syria) P.195.
(٤) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٥.

المقدس في الثاني والعشرين من شهر شعبان سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م[(١)].

على أنَّ استيلاء الفرنج على بيت المقدس، لا يعني استقرار الأُمور لهم في هذه البلاد، ذلك أن الأفضل الجمالي لم يقف مكتوف اليد ازاء ما حصل، ورغم أنَّ الكارثة قد وقعت، لكنه لم ييأس، بل لجأ إلى جمع العساكر بل «لم يبقِ ممكناً من مال وسلاح ورجال وخيل»[(٢)] وخرج بهم بنفسه في أوائل شهر رمضان سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م، وتمركز في عسقلان في ١٤ رمضان بقصد استرداد بيت المقدس، وبقي عدَّة أيام هناك منتظراً وصول الاسطول الفاطمي في البحر والنجدات البريَّة التي وعده بها عرب فلسطين، ويميل بعض المؤرّخين إلى الاعتقاد بأن الأفضل بانتظاره هذا قد «أخطأ خطأً فاحشاً، إذ ترك للفرنج فرصة مبادرته بالهجوم وانزال الهزيمة به»[(٣)]. وبعث إلى الفرنج رسولاً يُنكر عليهم ما فعلوه ويتهدّدهم، ويوبخهم على ما كان منهم[(٤)] وأعاد الفرنج الرسول بالجواب إلى الأفضل، وساروا على أثره، ووصلوا إلى الجهة التي تعسكر بها القوات الفاطمية بعسقلان، وما لبث أن فوجىء الفاطميون بهجوم الفرنج، وقد اشتبك الفريقان في عدّة معارك انتهت بهزيمة الجند الفاطميين وتراجعهم تدريجاً، واضطرَّ الأفضل إلى الرحيل مع خواصه والعودة إلى

---

(١) ابن اياس الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١، ص٢٢٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٤٩؛ ما تقتضي الإشارة اليه أن دفاعاً فاطمياً قوياً كان في هذه المدينة المقدسة في وجه هجوم الفرنج رغم ما استعدَّ الفرنج له من آلات الحصار والأبراج المتحركة، وقد أخذت حامية المدينة ترميهم بالنار الاغريقية، واستمرت المعارك على هذا المنوال العنيف سبعة أسابيع من ٧ يونيو إلى ١٥ يوليو ١٠٩٩ م. حسن حبشي، الحروب الصليبيَّة، ص١٤٥.
ويشير إلى الأمر عينه الذهبي بقوله: «سارت جيوش النصرانية من حمص، ونزلت عكا أياماً، ثم ترحّلوا وأتوا القدس، فحاصروه شهراً ونصف ودخلوا من الجانب الشمالي... واستباحوه، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون»، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٢٧، ص١٦.

(٢) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص٣.

(٣) أحمد مختار العبادي والسيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، ص١٠٧.

(٤) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٣.

مصر[١] وقد استمر الفرنج في تضييق الحصار على عسقلان حتى بذل لهم أهلها عشرين ألف دينار، ثم عادوا إلى القدس بسبب الخلافات فيما بينهم[٢].

ثمة أمر قد ينهض دليلاً على أنَّ الأفضل الجمالي كان يبذل قصارى جهده لانقاذ الموقف على رغم النتائج المؤسفة التي وقعت، وقد أدرك في المرحلة الأُولى أنَّ سبب الهزيمة التي مُني بها يعود جزء منها إلى تخاذل جيشه، فعمد إلى اصلاح أحوال جنده، وتنظيم قياداته، وقد أورد ابن الطوير تفاصيل محاولته هذه المتمثلة بحظر نعوت الأجناد، وانشاء سبع حجر، واختيار ثلاثة آلاف رجل من أولاد الاجناد وتقسيمهم في الحجر وجعل لكل مائة زماماً ونقيباً، وزمَّ الكل بأمير يُقال له «الموفَّق»، ولجأ بعد ذلك إلى إطلاق كل ما يحتاجون إليه من خيل وسلاح وغيره، واستغنى هؤلاء عن الأجناد، فإذا دهمه أمر جهزَّهم إليه مع الزمام الأكبر «الموفق»[٣].

لعلَّ في هذه الخطوة الاصلاحية من قبل الأفضل ما يشير إلى ترهّل الجيش الفاطميّ آنذاك وعدم قدرته على مجابهة خصومه، الأمر الذي دفع الأفضل إلى اعادة هيكلة هذا الجيش وضخّ دم جديد فيه عبر فتيان يمكن تدريبهم وتنشئتهم وفق أساليب عسكرية جديدة.

لم يتوانَ الأفضل ولم يألُ جهداً في إرسال الحملة تلو الأُخرى ولم يبخل حتى بأولاده في جهاد الفرنج، وقد أصبحت عسقلان قاعدة الفاطميين الرئيسية لخروج الأساطيل إلى السواحل الشاميَّة والثغور التي يحاصرها الفرنج لإمدادها بالسلاح والأقوات، وكان الأفضل يجهز العساكر في كلِّ عام ويبعثها لمحاربة الفرنج براً وبحراً[٤]. وهناك من يعتبر أنَّ وجود الفاطميين في الساحل السّوري قد أعاق حركة

(١) ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٢٨٦.
(٢) ابن ظافر، أخبار الدول المنقطعة ص٨٢؛ محمد جمال الدين سرور، النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة، دار الفكر العربي، القاهرة، لا، ت، ص٦٣ و٦٨.
(٣) ابن الطوير، نزهة المقلتين، ص٣.
(٤) ابن منجب الصيرفي، الإشارة إلى من نال الوزارة، ص٦١.

الفرنج التوسعية على عكس النواحي الداخلية لبلاد الشام التي عدمت وجود مقاومة إسلامية قوية هناك[١].

أُولى المجابهات التي حدثت بعد ذلك كانت في مدينة أرسوف التي هاجمها الفرنج عام ٤٩٣هـ / ١٠٩٩م، لكن أهلها دافعوا عنها ولم تستطع القوات الفرنجية أخذها، لجأ عقيب ذلك جودفري، ملك بيت المقدس، إلى شن غارات على ضواحي هذه المدينة، وفرض الحصار على مداخلها.

وقد تمكنت قوة من الفرنج في شباط ١١٠٠م/ ٤٩٣هـ من أن تظفر ببعض أهالي هذه المدينة الذين خرجوا لمزاولة نشاطهم في مزارعهم القريبة من بلدتهم، فقبض الفرنج عليهم وانتقموا منهم «بأن قطعوا أنوفهم وأقدامهم وأيديهم»[٢]، فغضب أهلها لما حلَّ بهم، وأرسلوا سفارة عاجلة إلى الأفضل لطلب المعونة، فأرسل لهم قوة صغيرة مؤلفة من ثلاثمائة جندي، فقويت الروح المعنوية لديهم بوصول تلك القوة عن طريق البحر، لكنَّ هذه القوة وقعت في كمين نصبه الفرنج في آذار من هذا العام (١١٠٠م) ما اضطرَّ أهل أرسوف للدخول في تبعية الفرنج[٣].

لم تقف التطورات عند هذا المنحى، بل اختار الأفضل أن يُرسل حملة كبيرة إلى فلسطين سنة ٤٩٣هـ / ١١٠١م، بقيادة سعد الدولة القواسي الذي كان حاكم بيروت من قبل، وقد اتجهت إلى الرملة حيث تستطيع من هناك تهديد كلٍّ من يافا وبيت المقدس. التقى الجيشان الفاطمي والفرنجي في السهل الواقع إلى الجنوب الغربي من مدينة الرملة، ودارت معركة رهيبة، انتصر الفرنج فيها بسبب تماسكهم وقتئذٍ ووحدة صفوفهم وإحكام خطَّتهم. وقد قُتل من المسلمين عدد كبير، في حين فَرَّ الباقون تجاه عسقلان بعد أن سقط قائد الحملة، سعد الدولة القواسي، صريعاً في أرض المعركة[٤] وذلك في شهر أيلول ١١٠١م.

---

(١) خاشع المعاضيدي، الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي، ص١٣٢.

(٢) Grousset, Histoire des Croisades, IP.182.

(٣) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٩.

(٤) ابن ميسر، أخبار مصر، ص٤٠؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبيَّة، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ط٦، ١٩٩٦، ج١، ص٢٣٣.

ما كاد يتلقّى الأفضل أنباء الهزيمة التي حلَّت بجيشه على يد الفرنج حتى جاش غضباً وأسرع باعداد حملة أُخرى كبيرة من العرب والسودان، واجتمعت هذه الحملة التي بلغ عدد أفرادها قرابة العشرين ألفاً في عسقلان في منتصف أيار ١١٠٢م، ونظراً للأهمية التي كان يوليها لهذه الحملة، فقد أوكل قيادتها لابنه شرف المعالي[١]، وكان قد اتخذ بلدوين، ملك بيت المقدس، أهبَّته، فحشد في يافا آلافاً من الفرج، وقد جرت المعركة بين الجانبيين عندما باغت الجيش الفاطمي جموع الفرنج، وقد تحقق انتصار كبير لجيش الأفضل وانهزم الفرنج، وعلى رأسهم بلدوين، وقد أشار ابن الأثير إلى هذه النتيجة بقوله: «فانهزم الافرنج وقتل منهم مقتلة عظيمة وعاد من سلم منهم مغلولين. فلما رأى بلدوين شدَّة الأمر وخاف القتل والأسر ألقى بنفسه في الحشيش واختفى فيه فلما أبعد المسلمون خرج منه إلى الرملة»[٢]. ومن هناك ذهب إلى يافا، وكان فراره ليلاً، وبذلك استطاع أن يفلت من مطاردة الفاطميين الذين لاحقوه عندما سمعوا خبر فراره.

أما الرملة، فقد سقطت بيد الفاطميين في ١٩ أيار سنة ١١٠٢م، فقتلوا معظم من فيها من فرسان الفرنج الذين كانوا مع بلدوين. ويؤكد ابن الأثير أن المسلمين قتلوا داخل الرملة «أربعمائة صبراً وأسر ثلاثمائة إلى مصر»[٣].

وبعد أن حقَّق الفاطميون انتصارهم السريع على بلدوين قرب الرملة لم يلبثوا أن حاصروا يافا، في الوقت الذي كانت مطاردة بلدوين تجري على قدم وساق، وعندما علم بلدوين وهو في طريقه إلى يافا تعرّضها لحصار المسلمين، اتجه نحو ارسوف، شمال يافا، في ١٩ آيار ١١٠٢م، على جناح السرعة لتجميع الجيوش الإفرنجية لمواجهة الجيوش الفاطمية، وحين تمكن بلدوين من دخول يافا عن طريق البحر، لتلحق به كثير من الامدادات الفرنجية. وتلعب الصدفة دورها، ذلك أن مائتي سفينة تحمل عدداً كبيراً من الجند والحجاج الانكليز وصلت إلى ميناء يافا في أواخر شهر أيار، وشقت هذه السفن طريقها إلى الميناء مخترقة حصار الاسطول الفاطمي،

---

(١) ابن خلدون، العبر، ج٤، ص٦٨.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢١٩.

(٣) ابن الأثير الكامل، ج ٨، ص٢١٩.

وبذلك تحقق لبلدوين ما كان يسعى إليه من معونة عاجلة، وفي ٢٧ مايو/أيار ١١٠٢ خرج بلدوين من يافا على رأس قواته لمهاجمة القوات الفاطمية المحاصرة للمدينة ليأخذ هذه القوات بدوره على بغتة، وبفضل ما عمله بلدوين من تنظيم لقواته تمكن من انزال الهزيمة بالجيوش الفاطمية التي استطاعت أن تصل بصعوبة بالغة إلى عسقلان، لتفادي ابادة قواتها من جهة ولتجميعها من جديد بانتظار نجدة سريعة من الأفضل من جهة أخرى، وبالفعل يروي لنا ابن الأثير بأن الوزير الأفضل ما إن سمع بهزيمة ابنه شرف المعالي حتى اسرع على الفور بارسال حملتين، احداهما برية تألفت من أربعة آلاف فارس تحت قيادة المملوك تاج العجم والأخرى بحرية برئاسة القاضي ابن قادوس(١).

بيد أن الفاطميين لم يكونوا عندئذٍ بحاجة لكثرة الرجال أو الشجاعة وإنما كانوا بأمس الحاجة لروح النظام والتعاون وإحكام الخطط الحربية. ويبدو هذا جلياً برفض تاج العجم معاونة ابن قادوس، حيث أخبره أنه لا يمكنه أن يمد له يد العون دون أمر الأفضل وأدار له ظهره، ما اضطر ابن قادوس أن يرسل إلى قاضي عسقلان وشهودها وأعيانها، وأخذ خطوطهم اثباتاً على أنه أقام على يافا عشرين يوماً واستدعى تاج العجم فلم يأته، ولا ارسل رجلاً. لذلك في ظل هذا الغياب من التعاون والتنسيق آثرت الجيوش الفاطمية الانسحاب بعد أن هزمت أمام يافا، خاصة بعد وصول نجدات قوية إلى الفرنج(٢).

جرت بعد ذلك سلسلة حوادث بارزة فيما بين الجانب الفرنجي والفاطمي، كان للأفضل الجمالي فيها اسهامات ميدانية، سنعمد إلى ايجاز عرضها واعطاء لمحة عنها، مقتصرين على إيضاح دور الأفضل في تلك المرحلة.

---

(١) المصدر نفسه، ج٨، ص٢٢٠.

(٢) وصلت هذه النجدات بناء لرسالة عاجلة ارسلها بلدوين الأول إلى تنكرد الوصي على انطاكية وإلى بلدوين دي بورج أمير الرها الجديد وبلغت هذه النجدة خمسمائة من الفرسان وألفاً من المشاة، وكان وصولها إلى يافا في سبتمبر/ايلول سنة ١١٠٢ وعلى رأسها أمير انطاكية والرها. راجع: توفيق مقبل، الفاطميون والصليبيون، الدار الجامعية، بيروت، ١٩٧٩، ص٨٧.

تمثلت الخطوة الهامة التي خطاها الفرنج، في هذه الآونة، بمحاصرة عكا والتضييق عليها في ربيع ١١٠٣م/٤٩٦هـ ، لكن الذي أسرع في إحباط خطط الحصار لميناء عكا وتبديد حماس الفرنج وصول نجدات فاطمية بحرية أرسلها الأفضل على عجلٍ، وبذلك فشلت جهود الفرنج في الاستيلاء على المدينة، وبقي هدف بلدوين الأول مدينة عكا التي هاجمها في السنة التالية أواخر آيار ١١٠٤م، فدارت رحى معركة كبيرة استبسل بها المدافعون بقيادة حاكمها الفاطمي زهر الدولة الجيوشي، الذي وصف بأنه قاتل حتى عجز أمام الحصار الفرنجي المحكم من البر والبحر حتى لم يجد بُداً من الاستسلام[١].

لم يستسلم الافضل الجمالي للأمر، لذا نراه قد قام بمحاولة حاسمة وأخيرة، عبر إرسال حملة كبيرة من مصر لطرد الفرنج من الشام. وفعلاً اندفع الأفضل باتجاه الخطوة المصيرية والهامة، فجمع في صيف ١١٠٥م، في عسقلان جيشاً بلغ نحو خمسة آلاف جندي، واضعاً هذا الجيش بقيادة ولده سناء الملك حسين. وصاحب هذه الحملة مبادرة ملفتة من جانب الأفضل، حيث طلب المساعدة من سلاجقة دمشق السُّنَّة، على رغم الخصومة المذهبية بينهم وبينه، فعرض على طغتكين الذي تسلّم السلطة في دمشق بعد وفاة دقاق بن تاج الدين تتش في صيف١١٠٤م، أن يساعده في قتال العدو المشترك، وقد استجاب طغتكين لنداء الأفضل وأرسل أحد رجاله الثقات وهو اصبهيد صباوا ومعه ألف وثلاثمائة فارس[٢]. ولما علم بلدوين الأول بخطة المسلمين واصرارهم على قتاله خرج من يافا وسار بقواته إلى ناحية الرملة، حيث يستطيع من ذلك المكان حماية يافا من جهة وبيت المقدس من جهة أُخرى، وأصبح لديه عدد كبير من القوات، وقد جرى القتال في شهر آب ١١٠٥م،/٤٩٩هـ ، وكانت النتيجة مقتل عدد كبير من المسلمين قدر بألف ومئتين ومن الفرنج مثلهم، ومن سوء حظ المسلمين في هذه الموقعة أن

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٨٨ ؛ ف.هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، مراجعة عز الدين فوده، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥ ، ص١٥٨.

(٢) مقبل، المرجع السابق، ص٩١.

الاسطول الفاطمي لم يكن له دور في هذه المعركة، بسبب تعرّضه لعاصفة شديدة قذفت نحو عشرين سفينة من سفنه إلى الموانىء الفرنجية فأخذوها غنيمة دونما قتال(١).

لعلَّ الحملة الفاطمية آنفة الذكر (١١٠٥م) على ما يبدو كانت آخر محاولة كبرى يقوم بها الافضل الجمالي في آنفة الذكر الدور من أدوار ضعف الخلافة الفاطمية. إلا أنه قد احتفظ بزمام المبادرة مهدّداً أعداءه الفرنج بين حين وآخر، ولكن في نطاق ضيّق، ومن أشهر غارات الفاطميين الهجومية اغارتهم سنة ١١٠٦م، على قافلة من الحجاج الأوروبيين بين يافا وأرسوف، اضافة لغارتهم على الخليل سنة ١١٠٧م، كما سجلت سنة ١١١٠م، وصول الفاطميين إلى أسوار مدينة القدس نفسها(٢).

قبل أن أختم دراسة مواقف الأفضل تجاه الفرنج عليَّ أن أشير وباختصار إلى عدَّة نقاط جوهرية تتصل بالموضوع، منها: أن بعض المؤرخين ربما يكون قد أغفل الجانب البحري، المتمثل بالاسطول الفاطمي الذي لعلّه كان الوحيد على هذه الجبهة، وعلى رغم خروج السواحل الشامية من طاعة الفاطميين منذ الربع الأخير من القرن الخامس الهجري، وقيام دويلات مستقلّة في دمشق وطرابلس وصور وصيدا، فإن الأفضل لم يكن يتردّد في بذل العون لها بالميرة والأقوات عندما كان ولاتها يستنصرون به من حصار الفرنج لهم براً وبحراً(٣)، وبإمكاننا إعطاء أمثلة على ذلك، من خلال غارة الاسطول الفاطمي على يافا عام ٤٩٧هـ، بقيادة شرف المعالي نجل الأفضل نفسه، وقد صلحت أحوال المدينة بسبب ذلك(٤)، كما ساهم

---

(١) Runciman, S, A, History of the Grusades I. the First crusades and the foundation of the Kingdom of Jeruslem, Cambridge university Press 1951,P90.

(٢) فيليب حتي، تاريخ العرب (مطوّل)، دار الكشاف، بيروت، ١٩٤٩، ج١، ص٢٣٠.

(٣) اهتم الفاطميون مبكراً بالجانب البحري، وأولوه مزيد اهتمامهم لتمكين نفوذهم السياسي في بلاد المغرب ونافسوا القوى البحرية الأموية في الاندلس على السيادة البحرية في البحر المتوسط الغربي كما غزوا السواحل الإيطالية المطلة على البحرين الادرياتي والتيراني، وقد بلغت بحريتهم درجة عظيمة من القوة قبل أن ينقلوا إلى مصر. للمزيد راجع: الفاطميون والصليبيون، ص١٠٠.

(٤) ابن القلانسي، ذيل، ص١٤٢.

الاسطول الفاطمي في الدفاع عن بيروت وصيدا قبيل سقوطهما في سنتي ٥٠٣هـ و٥٠٤هـ ، حيث لم تكد تصل الأخبار إلى الأفضل بزحف الصليبيين بقيادة بلدوين وبرترام بن صنجيل وجوسلين صاحب تل باشر، وإحكامهم الحصار على بيروت من البحر والبر حتى ارسل قسماً من اساطيله لانجادها والدفاع عنها، وقد جهز تسعة عشر مركباً حربياً مزوداً بالمؤن والسلاح والرجال، وعندما وصلت هذه السفن تغلّبت على مراكب الفرنج واستولت على بعضها، لكن بلدوين استنجد بالجنوية الذين قدموا أربعين مركباً، وقد نصبوا عليها مائة منجنيق، وقاتل المصريون بعنف واستبسلوا في الدفاع البحري عن بيروت، وقتل في المعركة مقدم الاسطول المصري وعدد كبير من رجاله لتنتهي المعركة في غير صالح المسلمين(١).

وباتجاه آخر نلاحظ أنَّ الأفضل الجمالي كان يبادر إلى معاقبة من يقصّر في واجباته الدفاعية مع الفرنج، وسأكتفي بذكر حادثتين في هذا المجال: الحادثة الأولى حصلت عندما عاد شرف المعالي، ابن الأفضل، إلى مصر بعد قيامه بقيادة الاسطول الفاطمي ودفاعه عن يافا عام ٤٩٧هـ ، وقد أوكل مهمة قيادته إلى القاضي ابن قادوس، وعيَّن على العسكر قائداً يُعرف بتاج العجم. ويبدو أنَّ الفرنج هاجموا يافا بعد رحيل الاسطول عنها، فكان على ابن قادوس أن يتوجّه بأسطوله إليها ليقتحم الحصار الفرنجي على المدينة من البحر بينما المفروض أن يتوجّه تاج العجم من البر، فمضى ابن قادوس باسطوله إلى يافا، وأقام بها عشرين يوماً، لم تصل خلالها العساكر المصرية لمساعدته من البرّ، الأمر الذي أدّى إلى سقوط يافا في أيدي الفرنج، فبلغ ذلك الأفضل، فأمر بالقبض على تاج العجم واعتقاله لتقصيره وإهماله وأرسل رجلاً مكانه يُدعى جمال الملك جعله مقدماً على العساكر(٢).

أما الحادثة الثانية، فقد جرت في عسقلان، إذ راسل حاكمها شمس الخلافة

---

(١) أحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية، ص١١٥؛ M.Canard, art. "Fatimides", EI2, V.II, P.856.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢١٩.

بلدوين وهادنه وأهدى إليه مالاً وعروضاً[١]. ما إن سمع الأفضل بتلك الأخبار حتى استنكرها وأخذ منه الغضب مأخذه كون عسقلان لها دلالة بالغة على مستقبل الصراع الفاطمي الفرنجي، لذلك أرسل حملة بحجة محاربة الفرنج، ولكنها في الحقيقة اتخذت من هذا الغرض ستاراً إذ أن التعليمات الصريحة لقائد الحملة هي عزل شمس الخلافة وتولي السلطة مكانه[٢]، لكن شمس الخلافة أخذه الشك والحذر وأوجس خيفة من أهداف الحملة، فقرر عدم فتح أبواب المدينة أمام الحملة، كما تمادى في العصيان رافضاً مقابلة قائد الحملة الذي آثر الرجوع من حيث أتى.

بدأ شمس الخلافة العمل لترسيخ سلطانه وقطع علاقاته مع الخلافة الفاطمية مستنداً إلى «احضار جماعة من الأرمن واتخذهم جنداً»، الأمر الذي اساء إلى شعور أهل عسقلان وألَّبهم عليه، فثاروا عليه وقتلوه ونهبوا داره سنة ١١١١، ولم تتردد القاهرة في ارسال حامية على الفور بغية اعادة الأمور إلى نصابها[٣] وعودة السيادة الفاطمية على عسقلان بشكل كامل.

أما بلدوين الذي كان يتربص بعسقلان ما إن سمع بأخبار الثورة ضد شمس الخلافة حتى انتهز هذه الفرصة واسرع إلى عسقلان، ولكن السرعة التي انجزت فيها حامية الخلافة الفاطمية السيطرة على عسقلان وعودة الأمور إلى نصابها فوتت الفرصة عليه ليعود بخفي حنين وليسجل التاريخ لعسقلان أن تظل شوكة في حلق الفرنج وخنجراً في خاصرتهم[٤] ببقائها اربعين سنة أخرى تحت السيادة الفاطمية.

أمر يجدر التنبُّه له، في سياق هذه المواجهات فيما بين الفاطميين والفرنج، هو غياب أيّ ذكر للخليفة الفاطمي آنذاك سواء المستعلي بالله أحمد (٤٨٧ - ٤٩٥هـ / ١٠٩٤ - ١١٠١م) أو الآمر بأحكام الله منصور (٤٩٥ - ٥٢٤هـ / ١١٠١ - ١١٣٠)

---

(١) ابن الأثير، نفسه، ج٨، ص٣٦٠، يقول ابن القلانسي: «كان شمس الخلافة أرغب في التجارة من المحاربة، ومال إلى الموادعة والمسالمة، وإيمان السابلة» ذيل تاريخ دمشق، ص ١٧٢.

(٢) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٧٠.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٨، أحداث ٥٠٤هـ، ص٣٦١.

(٤) Runciman: OP.Cit,II,P.95£ سعيد عاشور، المرجع السابق، ص٢٤٥.

الأمر الذي يفسّر لنا ما كُنّا قد أوضحناه في الفصل الثاني من هذه الرسالة من أنَّ الجماليين كانوا بمثابة الحكام الفعليين لشؤون الدولة الفاطمية، ولم يكن للخلفاء معهم سوى المظاهر فحسب.

ونودُّ تبيين نقطة في إطار معالجة موقف الأفضل تجاه ما حدث، إذ ربّما كان هناك توانٍ من قبله وعدم استيعاب وادراك لحقيقة الحملات الافرنجية في بعض محطات الصراع الفاطمي الفرنجي، ولنا في ما جرى في طرابلس الشام مثل على ذلك، حيث ذكر المؤرخون أن أهل طرابلس استصرخوا الفاطميين، دون أن يصلهم أيّ رد منهم، ولو أن الأفضل اتخذ وقتها إجراءً سريعاً وحاسماً لنجدة طرابلس لكان من الممكن إطالة أمد المقاومة فيها، ورغم ما يعلّله بعضهم حول تقاعس الفاطميين وتأخر وصول أسطولهم بأن خلافاً عميقاً قد نشأ حول فيمن يتولى قيادته وأنه «كلما سار نحو البلد ردّه الافرنج إلى مصر»(١)، مع أن ابن القلانسي يتحدث عن استعدادات الاسطول الفاطمي آنذاك حيث قال: «ولم يكن خرج للمصريين فيما تقدم مثله كثرة رجال ومراكب وعدد وغلال لحماية طرابلس وتقويتها بالغلة الكثيرة والرجال والمال»(٢) حتى سقطت طرابلس ودخلها الفرنج في ١١ من ذي الحجة سنة ٥٠٢هـ /١١٠٨م. ويشير بعض المؤرخين المعاصرين ومنهم أحمد حطيط وبتهكم إلى أسباب تلكؤ الاسطول الفاطمي في نجدة طرابلس، حيث قيل انه وصلها في اليوم الثامن لسقوطها «بسبب معاندة الرياح»(٣) لكن الأفضل استفاد من هذا الدرس، في المراحل التالية من هذا الصراع وبادر إلى تغيير خططه من خلال اشتراكه في الدفاع عن صيدا وبيروت وصور وغيرها من المدن.



---

(١) ابن تغري بردي، النجوم، ج٥، ص١٧٩.

(٢) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٢.

(٣) أحمد حطيط، مقالة «البنان في عهد الفرنجة» ضمن كتاب لبنان في تاريخه وتراثه، مركز الحريري الثقافي، بيروت، ١٩٩٣، ص ١٨٦.

الفصل الخامس

المنجزات الحضارية للفاطميين
في عهد
الأُسرة الجماليَّة

أولًا: دور الأسرة الجمالية في المجال العمراني

أسهم الجماليون إسهامات جليلة في الدولة الفاطمية بمختلف المجالات والصُّعد، وما زالت بصماتهم العمرانية شاهدة إلى يومنا هذا على اهتمامهم البالغ بهذا الجانب. لذلك سأسعى إلى عرض صورة موجزة لما قامت به الأسرة الجمالية من تطوير وتنمية وبناء في انحاء متعدّدة من مصر.

---

١ - تشييد أسوار القاهرة وتوسيعها:

قامت القاهرة مدينة حصينة لتكون معقلاً للدولة الفاطمية الفتية، بمؤسساتها العسكرية والمدنية، حيث ضمَّت قصور الخلفاء ودواوين الحكم وخزائن المال والسلاح ومساكن الامراء والقادة. برزت الحاجة لبناء سور دفاعي حول القاهرة، وقد تم ذلك على يدي جوهر الصقلي عام ٣٥٨هـ / ٩٦٩م. لكن أسوار القائد الفاطمي جوهر التي بنيت من الطوب لم تعمر أكثر من ثمانين عاماً[(١)]، ثم ان الازمات الاقتصادية والفوضى السياسية التي اجتاحت مصر في أواسط القرن الخامس الهجري قد أسهمت مع غيرها من العوامل في امتداد السكن خارج اسوار القاهرة فبُنيت حارات عدَّة، دُمّر عدد كبير من منازلها خلال الاضطرابات.

عندما قدم بدر الجمالي إلى القاهرة عام ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م، وجد الحاجة ملحّة لتحصين القاهرة وتقوية دفاعاتها لتتمكن من صدّ الغزوات الخارجية والفتن الداخلية. ابتكر بدر طريقة عمليَّة هدفها اعادة بناء ما تهدّم وتخرَّب خلال الشدّة العظمى، فأمر بالنداء في القاهرة ومصر ثلاثة أيام بأن كل من له دار خربة أو أرض فضاء فعليه أن يعمرها أو يؤجرها لمن يعمرها، ومن تأخر عن ذلك فلا حقّ له فيها. وقام بنقل «انقاض ظاهر مصر ممَّا يلي القاهرة، حيث كان العسكر والقطائع، وصار

---

(١) حسن الرزاز، عواصم مصر الإسلامية، مطبوعات الشعب، القاهرة، لا،ت، ص٢٤١.

فضاءً وكيماناً فيما بين مصر والقاهرة، وفيما بين مصر والقرافة»[1] وقد استغلّت هذه الانقاض في البناء داخل السور الفاطمي. فكان هذا - كما يقول المقريزي: «أول وقت اختطّ الناس فيه بالقاهرة»[2] وبذلك فقدت القاهرة مؤقتاً مكانتها كمدينة مغلقة وخاصة، وإن كان بدر الجمالي قد تدارك ذلك بعد قليل وحافظ على شكل المدينة وخصوصيتها عندما أعاد تحصينها وجدَّد بناء أبوابها وأسوارها وزاد في مساحتها من جهة الشمال والجنوب بين سنتي ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م و٤٨٥هـ / ١٠٩٢م، إذ قام بنقل جزء من الأسوار الجنوبية مائة وخمسين متراً إلى الجنوب، كما نقل جزءاً من الاسوار الشمالية مثل تلك المسافة إلى الشمال، وكان من نتيجة هذه الزيادة في الجهة الشمالية أن أصبح جامع الحاكم بأمر الله داخل القاهرة بعد أن كان خارجها[3].

ويمتاز بنيان هذه الأسوار بكتلها الحجريَّة المصقولة مسطحاتها، المنتظمة صفوفها، ويبلغ عددها من أسفل الجدار إلى قمته نحو أربعين مدماكاً رصّت فيها الأحجار بعناية فائقة[4]، وتمتاز كذلك باستخدام عمد من الحجارة وُضعت أُفقياً في باطن الجدران لكي تزيد البناء ثباتاً وقوةً وتضيف إلى هيئته رونقاً[5].

وقد استعمل بدر في بناء السّور الطوب واللبن، بينما كانت الأبواب من الحجارة. ولا زالت أجزاء من أسوار بدر باقية للآن كشاهد عيان على عظمة بنائها وبراعة هندستها وكثرة النفقات التي موّلت هذا المشروع الحربي الضخم والذي استمر بناؤه نحواً من ثماني سنوات (٤٧٧ - ٤٨٥هـ / ١٠٨٤ - ١٠٩٢م).

---

(١) المقريزي، الخطط، ج١، ص٣٣٧.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٣٤٠.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص٣٧٩، أحمد فكري؛ مساجد القاهرة ومدارسها في العصر الفاطمي، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩، ج١، ص٢٤ - ٢٨.

(٤) G.Wiet, art. "Égypte Depuis L'Islam" Encyclopaedia Universalis, Paris, 1996, Corpus 8,PP.7,8.

(٥) عبد الله موسى عبده، الفاطميون وآثارهم المعمارية في أفريقيا ومصر واليمن، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ٢٠٠١، ص٢٥٦.

٢ - عمارة أبواب القاهرة وتحصينها:

للأسرة الجمالية دورها البارز في المجال الدفاعي عن مدينة القاهرة، شعوراً منهم بأهمية تحصين عاصمة الخلافة ومركز القرار، إلى جانب الاعتناء بالناحية الفنيَّة. ويعدّ بعض الباحثين الأبواب التي بناها الجماليون لسور القاهرة من أعظم آثار العصر الفاطمي على الاطلاق، وقد صُمِّمت من قبل ثلاثة من المهندسين الأرمن، ويظهر في بنائها التأثير البيزنطي(١). وقد بنيت هذه الأبواب التي شيَّدها بدر الجمالي من الحجارة، وهي أبنية ضخمة من حيث المساحة التي تشغلها كل بوابة، وهي نحو خمسة وعشرين متراً مربعاً، أو من حيث ارتفاعها الذي يتجاوز العشرين متراً، أو لناحية الكتل الحجرية التي استخدمت في بنائها، وقد جُلب الكثير منها من الآثار الفرعونية، وواضحة فيها إلى الآن الكتابة المصرية القديمة(٢).

وسنعرض، بشكل موجز، مميّزات الأبواب التي أقامها بدر الجمالي أثناء تبوئه منصب الوزارة الفاطمية، وهي ثلاثة: باب زويلة، باب النصر، وباب الفتوح.

أ - باب زويلة:

أمر بدر الجمالي بانشاء باب زويلة سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م، وقد سُمّي بذلك نسبةً إلى قبيلة «زويلة»، من قبائل البربر، التي قدمت من شمال أفريقيا مع جيش جوهر الصقلي وأقامت في المنطقة التي بُني فيها الباب(٣)، وهو باقٍ في مكانه إلى يومنا الحاضر هذا.

يتكون باب زويلة من بوابة عظيمة معقودة عرضها نحو (٨٢٤ متراً) وعلى جانبيها برجان عظيمان مقوسان عند القاعدة وأكثر استدارة من برجي باب الفتوح.

---

(١) عبد الرحمن زكي، القاهرة تاريخها وآثارها من جوهر القائد إلى الجبرتي المؤرخ، الدار المصرية، القاهرة، ١٩٦٦، ص٢٥.

(٢) أحمد فكري، مساجد القاهرة، ج١، ص٢٠٧؛ Fuad Sayyid.A., La Capitale de l'Egypte Jusqu'à L'époque fatimide,p 386.

(٣) النويري، نهاية الإرب، ج٢٨، ص٢٣٩؛ صالح لمعي مصطفى، التراث المعماري الإسلامي في مصر، دار النهضة العربية، ط١، بيروت، ١٩٨٤، ص٨.

ويشغل باب زويلة مساحة مربعة تقريباً طول كل ضلع من اضلاعها نحو (٢٥ متراً) يشتمل على ممر مسقوف كلّه بقبة ترتكز على أربع مثلثات كروية[١].

لم يغفل بدر الجانب الدفاعي في باب زويلة، وبخاصة بعد أن ضعفت هيبة الدولة وأصبحت مهدَّدة في مركزها من قبل المناوئين لها، لذا لم يجعل لهذا الباب باشورة[٢] كما هي عادة أبواب الحصون أن يكون في أبوابها عطفة تمنع العساكر من الهجوم على الحصن عند الحصار، بل عمل في بابه زلاّقة من حجارة الصوان، حتى إذا هجم العدو لم تثبت قوائم الخيل على الصوان لملاسته، وبقيت هذه الزلاقة إلى أيام السلطان الكامل بن الملك العادل[٣] عندما زلق فرسه، فأمر أن يخفف من حجارتها، فخفف منها، ولم يبق منها إلا القليل[٤].

ونظراً للإنبهار الذي أبداه المصريون تجاه ما فعله بدر الجمالي في انشاء هذا الباب، بادر بعض الشعراء إلى التعبير عن إعجابهم به، منهم علي بن محمد النيلي التي يقول فيه:

يا صَاحِ لو أبْصَرْتَ بَابَ زُوَيْلَةٍ   لَعلِمْتَ قَدْرَ مَحَلِّهِ بُنْيانَا
بابٌ تَأزَّرَ بالمَجَرَّةِ وارْتَدى الشِّـ   ـعرى وَلاثَ بِرأسِهِ كيوَانَا
لو أنَّ فِرْعَوْناً رآه لم يُرد   صرحا ولا أوْصى به هَامَانَا[٥]

لم يكن الشعراء وحدهم الذين أظهروا انبهارهم بهذه البوابة، بل المؤرخون

---

(١) عبد الرحمن فهمي، أسوار القاهرة وأبوابها، ص٤٦٩؛ أبو الحمد محمود فرغلي، الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٩٩١، ص١٩٣.

(٢) الباشورة بناء ذو منعطفات أمام كل باب أو خلفه، هدفه اعاقة هجوم العساكر على الباب وقت الحصار، واعاقة دخول الخيل في اعداد كبيرة دفعة واحدة، المقريزي، الخطط، ج١، ص٣٨٠.

(٣) هو محمد بن أبي بكر بن أيوب. ولي حكم الدولة الايوبية في الفترة ما بين ٦١٥ - ٦٣٥هـ / ١٢١٨ - ١٢٣٨م.

(٤) ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص٥١؛ النويري، نهاية الارب، ج٢٨، ص٢٣٩.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٣٤٩.

أيضاً ومنهم المقريزي الذي يصف ذلك بقوله: «وقد أخبرني من طاف البلاد، ورأى مدن الشرق أنه لم يشاهد في مدينة من المدائن عظمة باب زويلة، ولا يرى مثل مئذنتيه اللتين على جانبيه»(١).

ويمتاز باب زويلة، بميزة أخرى وهي احاطته بجملة معتقدات، منها اعتقاد الكثيرين أنه مركز لإقامة القطب المتولي، ومهمته مراقبة الأولياء مثل النقباء والأشراف، - حسب تصوّرهم - وهو يظهر دائماً متواضعاً، رث الثياب، ولا يشتد في مؤاخذة من يخالف الدين، من هُنا أصبح بعض الناس يطلق على هذا الباب «بوابة المتولّي»(٢).

ب - باب النصر:

بُدىء ببناء باب النصر عام ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م، كما هو مسجل في نقش كتابي كوفي منحوت على الحجر يتضمن تاريخ البناء «بُدىء بعمله في محرم سنة ثمانين وأربعمائة»، وذلك في ظلّ وزارة بدر الجمالي.

يُفهم من بعض ما ذكره المؤرخون أنَّ باب النصر كان قد انشأه جوهر الصقلي من قبل، وعمل بدر الجمالي على نقله من مكانه السابق إلى حيث موضعه الآن، قرب مصلًى العيد(٣).

وهذا الباب من أنفس الأبنية الحربية الباقية بمصر الإسلامية، فالواجهة تتكون من بدنتين مربعتين، وهما مستطيلتا القاعدة وبارزتان خارج البوابة وخارج الأسوار، كما نقش عليهما في الحجر اشكال تمثل بعض آلات الحرب آنذاك(٤) ويتوسّط البدنتين باب مرتفع شاهق به فتحة من أعلاه كي تصب منها المواد الحارقة على من يحاول اقتحام الباب من المهاجمين، ويعلوها شريط من الكتابات يحيط بالبدنتين

(١) المقريزي، الخطط، ج٢، ص١٠٠.
(٢) جمال الغيطاني، ملامح القاهرة في ألف سنة، دار نهضة مصر، القاهرة، ط٢، ٢٠٠١، ص١٣٥.
(٣) المقريزي، الخطط، ج٢، ص١٠١.
(٤) أبو الحمد محمود فرغلي، مرجع سابق، ص٢٣٢.

والباب تضمنّت اسم المنشىء وتاريخ الانشاء. وينقسم ارتفاع كل من البدنتين حوالي ٢٢ متراً إلى ثلاثة طوابق يتراجع كل منها تراجعاً خفيفاً عن الطابق الذي يدنوه. وتتوسط واجهة الطابق الثاني سرر وجامات زخرفية بارزة منحوته. أما الباب نفسه، فيعلوه عقد نصف دائري محصور داخل إطار زخرفي مستطيل، تتوسطه لوحة حجرية عليها كتابات بالخط الكوفي منها «لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له محمد رسول الله عليٌّ ولي الله»(١). ويُشار في هذا الصدد إلى أنه قد جرى استخدام «اللحامات المتداخلة»(٢) في هذا الباب لأغراض حماية الباب من الناحية الفنية والهندسية.

ج - باب الفتوح:

بني باب الفتوح سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧، وهي السنة نفسها التي انشىء فيها باب النصر، وهو باقٍ في موضعه الحالي إلى هذا اليوم. وقد ربط بدر الجمالي عندما جدَّد أسوار القاهرة باب الفتوح بباب النصر عبر طرق وسراديب بإحكام وعقود متنوعة. ويتكون هذا الباب من برجين مستديرين يتوسطهما المدخل. ويُوجد في جانبي البرجين طاقتان كبيرتان تدور حول فتحتيهما حلية مكونة من اسطوانات صغيرة. وقد استعمل في بناء هذا الباب «المقرنصات» بأشكالها المختلفة في تجميل الواجهات، معطية التنويع والتنسيق بين الظل والنور الناتج من السطوح(٣).

---

(١) اسامة طلعت عبد النعيم، مقالة «ملامح تخطيط المدخل المنكسر في العمارة الدفاعية بين مصر والغرب الإسلامي»، كتاب أعمال الندوة العلمية الأولى لجمعية الآثار بين العرب، القاهرة، ١٩٩٩، ص٣٢٥.

(٢) اللحامات المتداخلة: جرى استعمالها بأشكال هندسية في التشكيل السطحي للواجهات وبخاصة في منطقة الفتحات بالاعتاب وعقود التخفيف، يكون الهدف أحياناً من وراء ذلك منع انزلاق قطع الحجارة القريبة من أول حجر في حالة هبوط كتف الباب. انظر: صالح لمعي مصطفى، مرجع سابق، ص٣٨.

(٣) صالح لمعي مصطفى، مرجع سابق، ص٣٩؛ كمال الدين سامح، العمارة الإسلامية في مصر، مكتبة النهضة المصرية، لا،ت. القاهرة، ص٨٩.

٣ - من إنجازات الجماليّين العمرانية:

عمد الجماليون إلى انشاء عدد من المباني والقصور والمنشآت الحيوية والبساتين والمرافق العامة، وقد بقيت معلماً بارزاً وأثراً رائعاً من آثارهم. ان اجراء المقارنة بين أعمال بدر العمرانية وبين أعمال ابنه الأفضل تظهر مدى التباين في أسلوب كُلٍّ منهما. فقد حرص بدر على تحصين القاهرة بتدعيم اسوارها وأبوابها ولا أدلَّ على ذلك من آثار المنائر الموجودة اليوم في الصَّعيد الأعلى في أسوان والمشهد البحري والمشهد القِبلي والأقصر وإسنا والتي شُيدت وفقاً لطراز اسطواني لتيسير مهمة المرابطين للحراسة، ترجع كلها - تبعاً لما اثبته بعض المؤرخين المعاصرين - إلى عهد أمير الجيوش بدر الجمالي(١).

بينما انحصرت منشآت الأفضل فيما يكفل له وسائل الامتاع والتسلية. وأميل إلى تعليل ذلك بأن سبب الاختلاف في وجهة نظر كليهما إنما يعود إلى اختلاف المرحلتين، حيث كان دور بدر يتمثل بالتأسيس ووضع القواعد والبنى الأساسية، بينما تولى ولده الأفضل الوزارة وأمور الدولة بمعظمها ممهدة له من قبل والده، لذا فانصرف إلى إهتمامات ربّما لم تتأت لوالده.

أ - بحر أبي المنجا:

ابتُدىء العمل بهذا المشروع الحيوي الهام في السادس من شهر شعبان من عام ٥٠٦هـ /١١١٢م، برعاية الأفضل الجمالي وبتنفيذ «أبي المنجّا». وسبب انشائه يعود إلى حاجة بلاد الأعمال الشرقية، من مصر للماء، حيث كان لا يصل إليها الماء إلاَّ من الاماكن البعيدة. عندما بلغ الأفضل ذلك وعرف بقدرة «أبي المنجا» على عمل ترعة يصل منها الماء إليهم، بادر بالطلب منه وعيَّن له المكان المحدَّد للحفر، وخصَّص له المبالغ الطائلة، وقد استمر العمل به قرابة ست سنوات. لما عُرض على الأفضل بعد انتهاء العمل كثرة ما أُنفق استعظمه، وقال: غرمنا هذا المال العظيم،

---

(١) AL-Hawwary,H.M., "Trois Minarets Fatimides a La frontie nubëènne", BIE XVIIC (1934 - 1935) P.146.

والاسم لأبي المنجا. فغير اسمه، وسمَّاه البحر الأفضلي. لكن الاسم استقرَّ على ما كان عليه، ولم تنفذ رغبة الأفضل في تسميته باسمه[١].

ب - جزيرة الروضة:

عُرفت في أوائل العصر الإسلامي باسم الجزيرة لوقوعها في مجرى النيل، وبجزيرة مصر وجزيرة الفسطاط لوقوعها مقابل مدينة الفسطاط. وعرفت كذلك بجزيرة المقياس، حيث يُوجد بها مقياس النيل الذي انشأه اسامه بن يزيد التنوخي عامل الخراج زمن سليمان بن عبد الملك سنة ٧١٥م. ثم لتعرف بعد ذلك بجزيرة الروضة بعد أن انشأ الأفضل الجمالي بستاناً سمَّاه الروضة، وعمَّر بها مناظره[٢] وذلك في سنة ٤٩٠هـ / ١٠٩٦م.

ج - دار الملك:

بنى الأفضل الجمالي لنفسه سنة ٥٠١هـ /١١٠٨م، داراً على النيل جنوب الفسطاط، سمَّاها «دار الملك»[٣]. وكان الغرض من انشائها أن تكون داراً للسُّكنى. ثم نقل دواوين الدولة من القصر الفاطمي إلى موضع أعدّه بها قُبالة هذه

---

(١) ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الامصار، ج٥، ص٤٦، ما يجدر قوله: إن الظاهر بيبرس بنى قنطرة فوق بحر «أبي المنجا» سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م، وما زالت قناطر أبي المنجا موجودة إلى اليوم بمركز قليوب، وقد أورد الأستاذ كريزويل صوراً لها. انظر: Creswell,K.A.C, "The works of sultan Bibars al - Bunduqdäri in Egypt", BIFAO XXVI, 1926,PP.143 - 154.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٤، ص١٧٢، تعتبر جزيرة الروضة في أيامنا من توابع مدينة القاهرة وقد اقيم في نهايتها البحرية، محل بستان الروضة، مستشفى فؤاد الأول. وكانت أراضيها من عهد قريب مخصصة للزراعة إلا أنه قد تحول قسم كبير من تلك الأراضي إلى أرض للبناء. انظر: هامش النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٧٢.

(٣) تقع «دار الملك» الآن بجوار جامع الشيخ درويش في آخر شارع مصر القديمة من الجهة القبلية على النيل، ويُعتبر قسم شرطة مصر القديمة جزءاً من هذه الدار. انظر: أمينة الشوربجي، رؤية الرحالة المسلمين للاحوال المالية والاقتصادية لمصر في العصر الفاطمي، ص٤٣٧.

الدار، وجعل ديواني الانشاء والمكاتبات بجوار القاعة الكبرى بدار الملك، التي اتخذها لمجلسه وسمَّاها «مجلس العطايا»؛ لأنه كان يُكثر من تقديم الاعطيات للشعراء في هذا المجلس عند سماعه لأشعارهم(١).

د - دار الذهب:

لم يورد المؤرخون تاريخ بناء هذه الدار من قبل الأفضل الجمالي، بل إن كل ما أوردوه في هذا المجال أن هناك داراً على شاطىء الخليج تسمى دار الفلك تعود إلى عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي. وقد عمد الأفضل إلى اضافة هذه الدار إلى داره الكبيرة التي اطلق عليها اسم «دار الذهب»(٢). وذكر، أيضاً، أن «دار الذهب» أُضيف إليها دار أُخرى تسمَّى «دار الشابورة»؛ لأنها بيعت أيام الشدَّة بشابورة (حلواء)(٣).

هـ - منظرة البعل:

وهي من جملة ما خلَّفه الأفضل الجمالي، وفيها بستان أنيق حيث أصبح من ضمن المحطات التي يقصدها الخلفاء والوزراء اثناء ذهابهم للنزهة الاسبوعية يومي السبت والثلاثاء، وتقع بظاهر القاهرة من جهتها البحرية بجانب الخليج الغربي، بحري أرض الطبالة (الفجالة الحالية)(٤).

---

(١) ابن ميسر، أخبار مصر، ص٧٦؛ ابن المأمون، من أخبار مصر، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٣، ص١٠١؛ يورد المقريزي بعض التفاصيل المتعلقة بمجلس العطايا وكيفية منح الأفضل الأُعطيات لقاصديه حيث يقول: «إن جميع الشعراء لم يكن لهم في الأيام الأفضلية ولا فيما قبلها على الشعر جار، وإنما كان لهم إذا اتفق طرب السلطان واستحسانه لشعر من أنشد منهم ما يسهله الله على حكم الجائزة. فرأى القائد أن يكون ذلك من بين يديه من الظروف، وكذلك من يتفرع ويسأل في طلب صدقة أو ينعم عليه ابتداءً بغير سؤال يخرج ذلك من الظروف، وإذا انصرف الحاضرون نزَّل القائد المبلغ بخطّه في البطاقة وكتب عليه الافضل بخطه صح ويُعاد المبلغ إلى الظرف ويختم عليه» المقريزي، الخطط، ج١، ص٤٨٤.

(٢) ابن عبد الظاهر، الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تحقيق أيمن فؤاد سيد، أوراق شرقية، بيروت، ط١، ١٩٩٦، ص١١٢.

(٣) ابن عبد الظاهر، نفسه، ص١١٢

(٤) أمينة الشوربجي، مرجع سابق، ص٤٣٩.

و - دار المظفر:

لم تقتصر جهود الجماليين العمرانية على وزرائهم فحسب، بل أسهم بعض أفراد هذه الأسرة في هذا الجانب، ومنهم المظفر بن بدر الجمالي الذي كان يتولّى في حياة أخيه الأفضل العلامة عنه وتقدمة العساكر، وقد توفي عام ٥١٥هـ / ١١٢١م. بنى المظفر داراً كبيرة له بحارة برجوان، أُطلق عليها دار المظفر(١).

---

٤ - تشييد الجماليين للمساجد والمراقد الدينية:

لعلّ أكثر ما يلفت النظر من بين آثار القاهرة بلا نظير هو «العمائر الدينية» وعددها كبير جداً. وقد أدلى الجماليون بدلوهم في هذا المضمار. وسنعرض، بايجاز، لاسهامات أفراد الأسرة الجمالية في بناء الجوامع ومشاهد أهل البيت في مصر، لا سيّما وأن بدراً الجمالي عمل على ابتكار عناصر وتطورات معمارية هامة، أهمها إحلال الحجر محل الآجر، واستعمال العقد المسمَّى بـ« الفارسي» والذي ظهر أولاً في تربة بدر الجمالي حوالي سنة ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م، كما استعمل المقرنص لأول مرَّة، وانتشرت الزخرفة في واجهات المساجد، وتهذبت المنارة وارتفعت القبة ونقش داخلها وتطورت من بساطتها إلى تضليع ظاهرها(٢).

أ - جامع الجيوشي:

يقع جامع الجيوشي على سفح جبل المقطم، شرقي مدينة القاهرة، في الجهة الجنوبية الشرقية من القلعة. بناه بدر الجمالي عام ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م. يتميز بمئذنته الفريدة التي تبدو من مسافة بعيدة، وهي تعلو المدخل. ولهذه المئذنة أهمية خاصة بالنسبة لتطور المآذن في مصر الإسلامية، فهي تتكون من برج مربَّع ينتهي من أعلاه بشرفة حافتها مكونة من المقرنص، وقد استخدمت فيها لأول مرة. ثم يعلو البرج المربع منطقة مكعبة أصغر حجماً من السفلى، وفيها فتحات معقودة من كل جانب ثم

---

(١) ابن عبد الظاهر، الروضة الزهية، ص٦٤.

(٢) المناوي، مرجع سابق، ص١٢٨.

توجد بعد ذلك منطقة مثمنة، في كل ضلع فتحة معقودة أيضاً، وتنتهي المئذنة بقمة على هيئة قبة صغيرة مضلعة(١).

ب - الجامع العتيق بأسنا(٢):

شرع الوزير بدر الجمالي في بناء هذا الجامع في النصف من شهر ذي الحجة سنة ٤٦٩هـ / ١٠٧٧م، وقد فرغ من عمل سقوفه عام ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م، باشراف القاضي أبي الحسين علي بن النضر، وكملت منارته سنة ٤٧٤هـ / ١٠٨١م، وأهم ما بقي من المسجد المنارة القديمة الواقعة في الركن الغربي القبلي، وهي مبنية بالطوب. وقد طرأ على قاعدتها تغير بسيط، وهي محتفظة بجميع تفاصيلها. وتعتبر على الأرجح اقدم نموذج مؤرّخ كامل للمنارات الإسلامية في مصر، وقد بقيت اللوحة التذكارية لانشائها(٣).

ج - تجديد جامع العطارين:

يُعدّ جامع العطارين من أقدم مساجد الاسكندرية، وكان قائماً في سوق العطارين فعرف به، غير أنَّ عوادي الزمن خرَّبته.

في سنة ٤٧٧هـ / ١٠٨٤م، أتى بدر الجمالي إلى الاسكندرية لغرض محاصرة ولده الأوحد الذي ثار عليه، وبعد القضاء على تمرد ابنه وأخذه أسيراً جدَّد بناء هذا الجامع من أموال أخذها من الاسكندرانيين(٤)، وفرغ منه في شهر ربيع الأول من

---

(١) كمال الدين سامح، العمارة الإسلامية في مصر، ص١٩٠.

(٢) وصف مؤرّخو القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي «اسنا» بأنها بلدة كبيرة كثيرة العمران، بها ما يقرب من ثلاثة عشر ألف منزل، وبها مدرستان وحمامان وأسواق، تميزت بوجود أسر كبيرة اشتهرت بالعلم والفضائل، وكانت مركزاً تجارياً لشتى السلع والبضائع. ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، تحقيق حسن محمد الشماع، البصرة، ج٨، ص٢١٥.

(٣) حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية في القاهرة، أوراق شرقية، بيروت، ط٢، ١٩٩٣، ج١، ص٦٦.

(٤) بلغ ما جمعه بدر الجمالي من أهالي الاسكندرية - على سبيل الغرامة فيما يبدو - ١٢٠ ألف =

عام ٤٧٧هـ / ١٠٨٤م، وقد أشار إلى ذلك في لوحة تاريخية لم يبق سواها من المسجد القديم[1]، وقد اكتسب هذا الجامع أهميته من خلال اقامة الخطبة فيه كونه أكبر مساجد الاسكندرية، واستمر الأمر على هذا المنوال إلى أن أمر صلاح الدين الأيوبي بنقل الخطبة من هذا الجامع إلى مسجده الذي انشأه بالاسكندرية سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م، عملاً بخطته في مكافحة الفاطميين[2].

د - جامع الفيلة:

ينسب بناء هذا الجامع إلى الأفضل الجمالي، حيث بناه في شعبان ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م، ويقع على سطح الجرف المطل على بركة الحبش. عُرف بجامع الفيلة؛ لأن في قبلته تسع قباب في أعلاها قناطر إذا رآها المشاهد من بعيد شبهها بمدرعين على فيلة كالتي تعمل في المواكب أيام الأعياد، وقد بنى الأفضل تحته بئراً[3].

إلى جانب ذلك، هناك بعض المساجد التي لم تصلنا معلومات تفصيلية عن تاريخ تأسيسها أو كيفية بنائها، إذ أن كل ما وردنا يشير إلى دور الجماليين في إعمارها، ومنها: مسجد أسوان ومسجد أبي الحجاج في الأقصر، وكلاهما يرجع تاريخهما إلى بدر الجمالي. ثم إن هناك جامع المقياس وجامع الفسطاط القديم وجامع الرصد ومسجد الغمري، وجامع الجيزة حيث اسهم الأفضل الجمالي في بنائها[4].

= دينار خصصها للانفاق على هذا الجامع. انظر: السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة الاسكندرية، ص٢٢٠.

(١) نص اللوحة التاريخية: «بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله مما أمر بإنشائه السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين أبو النجم بدر المستنصري عند حلول ركابه بثغر الاسكندرية ومشاهدته هذا الجامع خراباً فرأى بحسن ولائه ودينه تجديده زلفا إلى الله تعالى وذلك في ربيع الأول سنة سبع وسبعين وأربعمائة».

(٢) ابن ميسر، أخبار مصر، ص٢٧.

(٣) المقريزي، الخطط، ج٢، ص٢٨٩.

(٤) المقريزي، نفسه، ج٣، ص٧٢ كمال الدين سامح، مرجع سابق، ص١٨٧.

وقد جدَّد الأفضل ثلاثة مآذن بناها لجامع عمرو بن العاص هي المئذنة الكبيرة والمئذنة السعيدة والمئذنة المستجدة، كما جدَّد مسجد ابن طولون، سُجّل ذلك على محراب المسجد(١).

هـ - المراقد الدينية:

اعتنى الجماليون بتعمير المشاهد المقدَّسة لدى المسلمين، وأنفقوا لأجل ذلك الأموال الطائلة. من ذلك ما روي من أن الافضل الجمالي لما رجع من قتال الفرنج عام ٤٩١هـ/١٠٩٧م، من بيت المقدس مرَّ بعسقلان، وكان في مكان دارس فيه رأس الحسين بن علي بن أبي طالب ٥، فأخرجه وعطّره وطيّبه، وحُمل في سفط إلى أجلّ دارٍ بها، وعمَّر المشهد، ولما تكامل حمل الأفضل الرأس على صدره وسعى به ماشياً إلى أن ردّه إلى مقرّه(٢)، ثمَّ نُقل إلى مصر سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م، زمن وزارة الصالح طلائع بن زريك عندما خشي أن يتعرَّض لأذى من قبل الفرنج، فبادر إلى بناء مشهد الحسين(٣).

وبنى الأفضل كذلك مشهد الإمام زيد بن علي ابن الإمام الحسين، الذي ثار على الأمويين أيام هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢هـ/٧٣٩م، وقد قتل وصُلب وحُرق وبُعث برأسه إلى الامصار. جيء برأس زيد إلى مصر، فدفنه أهلها في مسجد محرس القيسي. لما بلغ الأفضل خبر هذا الرأس أمر بكشف المسجد وكان في وسط الاكوام، ولم يبق من معالمه إلا محراب حيث وجد الرأس هناك؛ فضمّخه الأفضل

(١) المقريزي، نفسه، ج٣، ص٧٢؛ أحمد السيد الصاوي، مرجع سابق، ص٢١٣.
(٢) النويري، نهاية الارب، ج٢٨، ص٢٤٧.
(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٣٤٧. يُشار، في هذا الصدد، أنه ما إن حلَّ رأس الحسين بن علي في مصر حتى صار المصريون يعتقدون ببركة هذا الرأس الشريف، ويورد القلقشندي انموذجاً على ذلك أن السلطان صلاح الدين حين استولى على القصر الفاطمي الذي يُقابل دار سعيد السعداء بعد موت العاضد، آخر الخلفاء الفاطميين بمصر، قبض على خادم من خدَّام القصر وحلق رأسه وشدَّ عليها طاساً داخله خنافس فلم يتأثر بها، فسأله صلاح الدين عن سر ذلك، فأخبر أنه حين احضر الرأس الشريف إلى المشهد حمله على رأسه، فخلّى عنه حينئذٍ وأحسن إليه: صبح الأعشى، ج٣، ص٣٤٧.

وعطّره وحمله إلى دارٍ حتى عمر مشهداً له ودفنه فيها[(١)].

وكان دور الأكمل بن الأفضل في هذا المجال بناء مشهد السيدة سكينة ابنة الإمام زين العابدين بن الإمام الحسين، في شهر صفر من سنة ٥٢٥هـ/ ١١٣٠م حيث حلاّه بالمحاريب والتعاليق وصاغ له الاعلاق المثمنة[(٢)].



(١) ابن عبد الظاهر، الروضة البهية الزاهرة، ص٩٦؛ علي مبارك، الخطط التوفيقية، ص٢١.

(٢) ابن منجب الصيرفي، الإشارة، ص٥١.

ثانياً: إسهام الأُسرة الجمالية في الدور العلمي والأدبي

عُرف عن الأسرة الجمالية موقفها المبدئي المتمثل بالتأييد والتحفيز للعلم وحامليه والدعوة لتطوير الوسائل العلمية ومأسستها. سنتناول، في هذه الفقرة، بالعرض والتحليل ما حصلنا عليه من معلومات تفيد في هذا الجانب.

١ - تشجيعهم للعلم والعلماء:

لما أرجع بدر الجمالي الاستقرار إلى مصر، أعاد للحياة العلمية والفكرية ازدهارها وقوتها، وبدأ رواج سوق العلم، حيث استمرَّت هذه النهضة إلى حين سقوط الخلافة الفاطمية عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م، وإثر سقوطها همدت الحركة الفكرية، وضعف سوق الأدب، ولعلَّ خير وصف لما آلت إليه حال أهل العلم ما عبَّر عنه عماد الدين الاصفهاني بقوله: «انكسفت شمس الفضائل الزاهرة، ورخص سعر الشعر، وانخفض علم العلم، وضاق فضاء الفضل، واتسع جاه الجهل، وانتشر عقد ذوي النثر، واستشعر الفاقة الشعراء، وعدم البلغة البلغاء»[(١)].

أعطى بدر الجمالي دفعاً للنهضة العلمية في مصر اثناء وزارته، وقد وصفه ابن كثير بأنه كان عاقلاً كريماً محباً للعلماء، ولهم عليه رسوم دارة[(٢)]. يعطي هذا النص دلالة هامة على عناية بدر الجمالي بالعلم ومنحه الأولوية ورعايته لمسيرة العلماء ورفده إياهم بما يلزم.

وسار الأفضل على منهاج والده، لا بل ربّما تفوق عليه؛ لأن زمن الأب كان

---

(١) عماد الدين الأصفهاني، البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان، حققه كلود كاهن، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٣٧، ص١٥٠

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٠١.

زمن التأسيس وتذليل العقبات ومواجهة الأزمات، بينما استقرت الأمور في عهد الابن الذي وجه اهتمامه لتطوير المعارف والعلوم.

مما ذُكر عن الأفضل أنه كان محباً للعلم ولجمع الكتب، وحتى وجد لديه بعد قتله مكتبة بها خمسمائة ألف كتاب. ولقد سمع أن أحد ورَّاقي العراق أراد شراء كتب أفرايتم بن الزمان الطبيب اليهودي، والذي يقال إنه كان يملك أكثر من عشرين ألف مجلد، فأمر الأفضل بشرائها وأضافها لخزائنه. وللتدليل على شدَّة حرصه على اقتناء الكتب وزيادة أعدادها ونُسخها اذكر هنا أنه استعان بيانس الناسخ الذي استقدمه من الشام، براتب شهري قدره عشرة دنانير، وثلاث رزم من الكسوة في السنة، وغيرها من الهبات والرسوم(١).

ومن سيرة الأفضل أنه كان يدعو العلماء والأُدباء والشعراء على طبقاتهم في داره في مجلس يسمى «مجلس العطايا» وقد وضع على يمين المجلس ويساره سبعة ظروف من الديباج يحتوي كل ظرف منها على خمسة آلاف دينار لمنح الهبات لمن يحضرون مجلسه، ثم زاد الأفضل في عطاياه بعد ذلك حتى أصبحت تشمل فقهاء الفسطاط والرباطات بالقرافة(٢).

وفي المجال العلمي شيَّد الأفضل مرصداً كان قد بدأ الحاكم بأمر الله الفاطمي بانشائه ولم يتمه. وسبب اهتمام الأفضل بذلك أنه حُمل إليه تقويم سنة خمسمائة للهجرة/عام ١١٠٦م، فوجد فيه اختلافاً كبيراً، فأنكر ذلك وجمع المنجمين والحُسَّاب وأهل هذا العلم وسألهم عن السبب في الاختلاف فيما بين التقاويم التي

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٥١؛ يشير أيمن فؤاد سيد إلى وجود قسم من نسخة خطية وحيدة من كتاب «التعليقات والنوادر» لأبي علي الهجري بدار الكتب المصرية تحت رقم «٣٤٢ لغة» وبقيتها في مكتبة الجمعية الآسيوية للبنغال في كلكتا بالهند. وترجع النسخة إلى القرن الرابع أو الخامس الهجري ثم أضيفت في نهاية القرن الخامس الهجري: «للخزانة السيدية الأجلية الأفضلية الجيوشية السيفية الناصرية الكافلية الهادية عمرها الله بدائم العز، وهذه الألقاب كلها تعود للأفضل الجمالي. الدولة الفاطمية، ص٦٠٤.

(٢) المقريزي، الخطط، ج١، ص٤٨٤؛ حسن خضيري أحمد، علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب، مكتبة مدبولي، القاهرة، لا،ت، ص١٧٨.

قُدّمت له. فأشاروا عليه باقامة مرصد يصحح الحساب وتحصل به الفائدة والسمعة والذكر الباقي(١).

هذا مع الإشارة إلى أن هذه المهمة اتصفت بأهمية علمية بالغة؛ لأنه منذ زمن الفراعنة اعتمدت اغلب المسائل الجوهرية في حياة المصريين كالبذار والحصاد على دقّة التقويم. يضاف إلى ذلك أنَّ التوفيق بين السنتين الشمسية والقمرية أمر ضروري لأن استحقاق الخراج وجبايته منوطان بالزروع والثمار وكان الموقع الذي اختير لاقامة المرصد عبارة عن هضبة في جبال المقطم إلى الجنوب الشرقي من القاهرة. وقد أبدى الوزير الجمالي اهتماماً بالغاً بمراحل العمل، وقد توجّه بنفسه إلى أعلى الجبل المرّة تلو الأُخرى على رغم معاناته بسبب كبر السنّ(٢).

---

٢ - عنايتهم بالشعر والشعراء:

احتلَّ الشعر مكانة مرموقة لدى العرب لما له من تأثير بالغ الخطورة على الجماهير. من هُنا سعى الفاطميُّون لإيلاء الشعر أهمية بارزة فاستدعوا الشعراء وأغدقوا عليهم الأموال والأعطيات. وممن سار على هذا المنهج الوزراء الجماليون الذين كان بعضهم يكرم الشعراء (كبدر) بينما كان آخران (الأفضل والأكمل) يقولان الشعر ويمنحان جوائزهما السنية للشعراء كذلك.

وما يجدر قوله، في هذا الصدد، إن الشعراء كانوا ييممون وجهتهم صوب الخلفاء الفاطميين. لكن منذ مجيء بدر الجمالي إلى مصر واستقراره بها وبعد استتباب الاوضاع فيها على يديه، وارتقائه منصب وزارة التفويض صار الشعراء يفدون عليه زرافاتٍ ووحداناً، ولم يعد أحد منهم يمدح الخلفاء لأنَّ سلطاتهم غدت معنويَّة.

وحتى أن من يتعرَّض منهم لمدح الخليفة كان عليه أن يقرن معه اسم الوزير،

---

(١) المقريزي، الخطط، ج١، ص١٢٨؛ محمد كامل حسين، الحياة الفكرية والأدبية لمصر من الفتح العربي حتى آخر الدولة الفاطمية، مكتبة النهضة المصرية، لا،ت، ص٦٦.

(٢) هاينز هالم، الفاطميون وتقاليدهم في التعليم، ترجمة سيف الدين القصير، دار المدى، دمشق، ط١، ١٩٩٩، ص١٣٧ و١٣٩.

وإلاّ حلّت عليه نقمة الوزير وسخطه. وإذا اتجه الشاعر بمدائحه إلى غير الوزير يُهمل أمره مهما بلغ شعره من الجودة والمتانة كما حل مع الشاعر إسماعيل بن محمد المعروف بـ«ابن مكنسة» ورغم تفوقه لم ينل الحظوة لدى الأفضل، بسبب انقطاعه إلى مدح «أبي مليح»، أحد عمَّال النصارى[١].

من بين الشعراء الذين قصدوا بدراً الجمالي كان علقمة العليمي الذي روى قصته معه. فبعد أن شاهد الوجهاء والشعراء على بابه وقد طال انتظارهم له ولم يصلوا إليه، بينما هو كذلك خرج بدر يريد الصيد، فتبعه هذا الشاعر، فلما رجع وقف على مرتفعٍ من الأرض وأومأ إليه برقعة كانت في يده وانشأ يقول:

نحن التجار وهذه أعلاقنا — دُرَر، وجود يمينك المبتاعُ
قلِّبْ وَفَتِّشها بسمعك إنَّما — هي جوهرٌ تختاره الأسماعُ
كسدتْ علينا بالشآم وكلَّما — قَلَّ النَّفاق تعطَّل الصناعُ
فأتاك يحملها إليك تجارها — ومطيُّها الآمال والأطماعُ
فوهبتَ ما لم يُعطه في دهره — هرمٌ ولا كعبٌ ولا القعقاعُ
وسبقتَ هذا الناسَ في طلب العلا — فالناسُ بعدك كلهم أتباعُ
يا بدرُ اقسم لو بك اعتصم الورى — ولجوا إليك بأسرهم ما ضاعوا

وكان على بدرٍ بازيّ فألقاه، وانفرد عن الجيش، وجعل يسترد الأبيات إلى أن استقرَّ في مجلسه، ثم قال لجماعة غلمانه وخاصّته: من أَحبَّني فليخلع على هذا الشاعر، فخرج من عنده ومعه سبعون بغلاً تحمل الخِلَعَ، وأمر له بعشرة آلاف درهم. وخرج من عنده وفرّق كثيراً من ذلك المال على الشعراء الذين كانوا على باب أمير الجيوش[٢].

أما الأفضل الجمالي، فقد أسهم في إنماء الحركة الأدبية في مصر وفي مختلف البلدان العربية، عبر ما يهبه للشعراء الذين كانوا يرسلون مدائحهم له وهم في بلادهم، من دون أن يحملهم مشقة الحضور إلى مصر. وقد كان الأفضل نفسه

---

(١) عارف تامر، المستنصر بالله الفاطمي، دار المسيرة، بيروت، ط١، ١٩٩٠، ص١٨١.
(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٤٤٩ - ٤٥٠.

شاعراً، وإن يكن المؤرّخون لم يحفظوا لنا سوى بعض الأبيات المتناثرة هُنا وهناك. فمن شعره الذي يصف فيه علاقته بتاج المعالي:

أقضيب يميس، أم هو قد ... أم شقيق يلوح، أم هو خدُّ
أَنا مثل الهلال خوفاً عليه ... وهو كالبدر حين وافاه سعدُ[١]

وكان الافضل شديد الغيرة على نسائه، اطّلع من سطح داره ذات يوم فرأى جارية من جواريه متطلعة إلى الطريق فأمر بضرب عنقها، فلما وُضعت الرأس بين يديه، أنشد قائلاً:

نظرت إليها وهي تنظر ظلها ... فنزّهت نفسي عن شريك مقارب
أغار على أعطافها من ثيابها ... ومن مسك له في الذوائب
ولي غيرة لو كان للبدر مثلها ... لما كان يرضى باجتماع الكواكب

ومن أشعاره أيضاً ما ورد في قوله:

أَما والذي حجت إلى ركن بيته ... جراهم ركبان مقاصده شهبا
لأَقتحمن الحرب حتّى يُقال لي ... ملكت زمام الحرب فاعتزل الحربا
وينزل روح الله عيسى بن مريم ... فيرضى بنا صحباً ونرضى به صحبا[٢]

ومن شعر الأفضل هذه الأبيات الحكمية التي يقول فيها:

لا غَرْوَ أَنْ نلنا الأَملْ ... بعد تراخٍ ومَهَل
لكُلِّ شيءٍ مُدَّةٌ ... تُفضي به إِلى الأَجَل
والصَّبرُ أقوى عُدَّةٍ ... مُعينةٍ على العمل
والنُّجحُ بالله، فمن ... أعانه الله وصل
أَحْسَن في نُصْرتنا ... وفي أعادينا عدل[٣]

---

(١) النويري، نهاية الإرب، ج٢٨، ص٢٨٧.
(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٧٣، و١٣٣.
(٣) ابن سعيد، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، تحقيق حسين نصار، مركز تحقيق التراث، القاهرة، ١٩٧٢، ص٢١٧.

يبدو الأفضل، من خلال هذه الأبيات الشعرية، أنه صاحب تجربة في الحياة، وقد بثَّ هُنا بعض ما لديه من أفكار وما توصل إليه من قناعات. ولا عجب في ذلك بعد أن عرفنا خبرته الطويلة في مجال العمل السياسي ومقدرته الفائقة على إدارة مرافق الدولة الفاطمية سنوات عدَّة.

أَما بما يتعلّق بشعراء الأفضل، فهم كثر وقد توافدوا عليه من مختلف بقاع الأرض، إذ قدم بعضهم من الأندلس والمغرب وجزيرة صقلية وطرابلس ومعرَّة النعمان، وهو ما يدلُّ على انتشار صيته وكثرة عطائه لقاصديه. سنحاول الاضاءة على الشعر الذي مُدح به الأفضل، موجزين بعض أبرز ما قيل فيه وعبَّر عنه هؤلاء الشعراء تجاه منجزاته.

من بين القصائد التي أشادت بالأفضل، نقتطف أبيات أبي الحسن علي بن جعفر بن البوين، الذي ذكره عماد الدين الأصفهاني بقوله انه «حاز ثقة الأفضل ونال حظوته، وأنه أَفاض عليه من سحائب احسانه، وأدرَّ عليه حلوبة انعامه، ولقبه بأمين الملك واستخلصه»(١) وقد قال فيه:

يا من تنافس فيه السمع والبصرُ ... كما تغاير فيه الشمس والقمر
ومن تحكَّم فيه فاحتكمت ... ألاَّ يحكم فيها بعده بشرُ(٢)

ومن الشعراء الذين ورد ذكرهم لدى المؤرخين، أبو الفتيان مفضل بن حسن بن خضر العسقلاني، حيث امتدح الأفضل، وممَّا قاله فيه:

أقولُ والنجمُ مرقومٌ بغرته ... سطراً نظرتُ وضوءُ الصبح مبتسمُ
أماءُ خدَّيه أضحى في زجاجته ... يدير أم ماؤها في وجنتيه دمُ
صِيغَ الصّباحُ ضياءً من مياسمه ... فاستنبطت حلكاً في شعره الغُتَم(٣)

يشار إلى أنَّ أخبار الأفضل قد شغلت حيزاً واسعاً في صفحات التاريخ، ربما يكون سبب ذلك الظروف المحيطة به وهي بمعظمها غير مستقرة، اضافة لعوامل

(١) عماد الدين الأصفهاني، البستان، ص١٤٣.
(٢) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ص٤٥٠.
(٣) المرجع نفسه، ص٤٥٠.

أخرى، منها طيلة مدّة وزارته، اضافة إلى معالم شخصيته. ومن بين الموضوعات التي نوّه الشعراء آنذاك بها خلال وزارة الأفضل تصدّيه للفرنج. وهكذا ظهر غرض جديد من أغراض الشعر لم يكن معروفاً من قبل، يتناول فيه الشعراء جهاد المسلمين للفرنج، ومن ذلك قول الشاعر أمية بن أبي الصلت(١) في قصيدة يذكر فيها خروج الأفضل لقتال الفرنج:

جرَّدت للدين، والأسياف مغمدة سيفاً تغل به الأحداث والغير
وقمت إذ قعد الأملاك كلهم تذب عنه وتحميه وتنتصر
الله زان بك الأيام من ملك لك الحجول من الأيام والغُرر
لله بأسُك والألبابُ طائشةٌ والخيلُ تَرْدى ونارُ الحرب تَسْتَعِرُ
مَلكٌ تبوّأ فوقَ النَّجْمِ مقعدَه فكيف تطمعُ في غاياتِه البَشَرُ
يُرْجَى نداهُ ويُخْشى عند سَطْوتِهِ كالدهرِ يوجد فيه النَّفْعُ والضَّرَرُ

وقد مكث أمية في مصر سنوات عدة، اتصل فيها بالحياة المصرية، وشارك المصريين أعيادهم وحفلاتهم، وأنشد في ذلك شعراً حُفِظَ بعضه وضاع أكثره. فما حفظ من ذلك قوله في النيل من قصيدةٍ كتبها إلى الأفضل ليلة المهرجان:

أبدعتَ للناس منظراً عجباً لا زلتَ تُحيي السرورَ والطَّرَبا
ألّفتَ بين الضدين مقتدِراً فَمَنْ رأى الماءَ خالطَ اللّهبَا
كأنّما النيلُ والشموعُ بهِ أُفْقُ سماءٍ تألَّقتْ شُهُبا
قَدْ كانَ من فِضَّةٍ فصارَ سَمَا وتحسبُ النارَ فوقَه ذَهَبا(٢)

---

(١) هو أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الأندلسي، كان قد ورد القاهرة أيام الآمر الفاطمي، سنة ٤٨٩هـ / ١٠٩٥م، واتّصل بالأفضل الجمالي. حظي لدى الأفضل بمكانة مميزة، الأمر الذي حزَّ في نفس كتّاب الأفضل الذين أخذوا يتحينون الفرص للإيقاع به، حتى وشوا به، وحبسه الأفضل، نتيجة وشايتهم، مدة ثلاث سنين وشهر، لينفيه من مصر إلى المهدية حيث توفي فيها سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٤م.

(٢) خضر أحمد عطا الله، الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي، دار الفكر العربي، القاهرة، لا ،ت، ص٤١٨، محمود حلاوي، النثر الفني في العصر الفاطمي، ص٩٩.

وكان الأفضل، بدوره، يتذوّق الشعر ويحب الأدب، لذا نراه يكرم اعلام الأدب والشعر الذين قصدوه، وكان لعمله هذا أعمق الاثر في ازدهار الحركة الأدبية برمّتها.

وقد امتازت هذه المرحلة بروعة الشعر وبراعة النثر. ومن بين من أتاه أبو الحسن علي بن إبراهيم الملقب بابن العلاني وهو من أهل معرَّة النعمان، التي ينتسب إليها الشاعر الكبير أبو العلاء المعري. يقول ابن العلاني مشيداً بالأفضل:

مكة مصر والحجيج وفوده ويمناه ركن البيت والنيل زمزم
وشاكر ما تولى بعجزه ولو أنه في كل عضو له فم[(١)]

وسار على هذا النهج شاعر آخر، هو أبو علي الأنصاري، حسن بن زبيد الذي قال في الأفضل:

خلع الزمان على حلة مفخر مشرفاً بمدح الأفضل المفضال
يلقى المدائح بالمنائح واهباً ويصدق الأقوال بالافعال

كما يقول في قصيدة أخرى، منها:

لولا وجودك في الزمان وجودك الـ ـمحيي المكارم بعد وفاتها
لم يعرف المفروض في الدنيا ولو طفنا عليه في جميع جهاتها[(٢)]

وله قصيدة يصف فيها خيمة الفرح التي أنشأها الأفضل، إلى أن ينتهي إلى مدحه، يقول فيها:

لو كنتُ شاهدَ شعري حين أنظمهُ إذن رأيتَ المعالي فيك تَخْتَصِمُ
أزرتك اليومَ من فكري محبرةً في ناظرِ الشمسِ من لألائها سَقَمُ
ترى النجومَ لِلَفْظي فيك حاسدةً تودُّ لو أنّها في المدحِ تَنْتَظِمُ

وقد لقي هذا الشاعر حتفه بسبب حسد الشعراء له، فقد صنع ابن قادوس

(١) محمد كامل حسين، في أدب مصر الفاطمية، دار الفكر العربي، القاهرة، لا،ت، ص١٧٩.
(٢) حسن إبراهيم حسن، مرجع سابق، ص٤٥٢.

الشاعر بيتين هجا فيهما حسناً ولد الحافظ، ودسّهما في رقاع الأنصاري، ثم سعى به إلى المذكور، فوُجِدا معه، فضُرِبَ عنقه[١].

ومن شعراء الأفضل، محمد بن إسماعيل، الذي عُرف بـ«التاريخ» لكثرة اشتغاله به. فمن قوله في الأفضل:

يا جنَّةً للقاصدين تَزخرفتْ لهم وطاب الخُلدُ في رضوانه
فلذاك لما اخضرَّ دَوْحُ نواله غنَّت طيور الحمد في أغصانه[٢]

وهناك ظافر الحداد الشاعر الاسكندري[٣] بدوره، يمدح الأفضل شاهنشاه بهذه الأبيات، ويهنيه بشهر رجب:

الحب مذ كان معنى يصحب الأدبا فإن تغزلت في مدحٍ فلا عجبا
وأحسن الشعر ما أضحى تغزله إلى المدائح في انشاده سببا
والشعر تلقين شيطان الغرام، فلا يملى غرائبه إلاَّ لمن نسبا
إلاَّ مدائح شاهنشاه لا برحت تشرَّف اللفظ والمعنى إذا اصطحبا[٤]

وقد تغنّى ظافر الحداد في الأفضل بعد أن أَذِنَ له بلقائه ومدحه فقال:

فَيا نَفْسُ هذا أَوَّلُ العهدِ بالعُلا وَيَا حَظُّ هذا الوَعْدُ أنْ سأسودُ
وهذا المَقام الأشرفُ الأمجدُ الذي له كنتُ أسعى جاهداً وأرودُ

---

(١) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٢، ص٢٣.
(٢) ابن سعيد، النجوم الزاهرة في حُلى. . .، ص٢١٣.
(٣) هو أبو منصور ظافر بن القاسم الجذامي الاسكندري المعروف بالحداد. كان من الشعراء المجيدين، وله ديوان شعر. كان ظافر ذا موهبة، وجاء شعره طبيعياً لا تكلّف فيه. وقد كان يرتجل الشعر ببديهته، مما جعل الناس في عصره يحبونه ويعجبون به، وها هوذا العماد الأصفهاني صاحب «الخريدة» يحدّثنا عنه بقوله: «ظافرٌ بحظّه من الفضل ظافر، يدلُّ نظمه على أن أدبه وافر، وشعره بوجهِ الرقة والسلاسة سافر، حدَّاد لو أُنصِفَ لسُمِّيَ جوهريّاً، وكان باعتزائه إلى نظم اللآلي حرياً. . . فيا له ناظماً فصيحاً. . .» انظر: عماد الدين الأصفهاني، خريدة القصر، (قسم شعراء مصر) ج٢، ص٦٧.
(٤) محمد عبد الغني حسن، مصر الشاعرة في العصر الفاطمي، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣، ص٢٦٥.

وهذا الجَنَابُ الأفضَلِيُّ يُكنُّني ذُرَى ظِلِّهِ، إنّي إذن لَسَعيدُ

فيُقرِّر الأفضل له راتباً مع من قرّر لهم من الشعراء.

وقد دخل هذا الشاعر مرَّةً على الأفضل، فوجده جالساً على سريره والأمراء قيام بين يديه، فقال على البديهة:

لما رأيتُك فَوقَ السَّرير ولاح المناورُ والمسْندُ
رأيتُ سُليمانَ في مُلكِهِ يُخاطِبني، وأنا الهُدهدُ

ولا يمنع كل ذلك المديح من أن بعض الشعراء كانوا قد نقموا على الأفضل، فهجوه ومن هؤلاء الناجي المصري الذي هجاه بقوله:

قل لابن بدر مقال من صدقه لا تفرض بالوزارة الخلقه
إن كنت قد نلتها مراغمه فهي على الكلب بعدكم صدقه

مع أنه كان في بدء أمره من شعراء الأفضل، وممن كان الأفضل يجزل لهم العطاء ويجلس إليهم ويستمع إلى أشعارهم وروايتهم للشعر، ثم لسبب لا نعلمه هجا الأفضل بهذه الأبيات[1].

ننتقل الآن إلى ذكر ما وجدناه من شعراء الأكمل بن الأفضل الجمالي، ورغم قصر مدّة وزارته التي لم تتجاوز السنة وبضعة أشهر إذ لم يتسن للشعراء أن ينظموا فيه القصائد، ومع ذلك أتى المؤرخون على ذكر بعض ذلك.

عرف عن الوزير أبي علي الأكمل أنه كان - على حدِّ تعبير بعض المؤرخين - ، جواداً يسمع الشعر ويثيب عليه، نال الشعراء منه أسنى مرتبة، ولم يزل منهلاً للواردين ونجعة للقاصدين إلى أن قتل[2].

لما اعتقل الأكمل الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمي عام ٥٢٦هـ / ١١٣٢م، نظم علي بن عباد وكان من الشعراء النابهين قصيدة يهنّىء فيه هذا الوزير على هذه الخطوة، ويقول فيها:

---

(١) محمد حمدي المناوي، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، ص١٩٩.
(٢) ابن سعيد، النجوم الزاهرة في حُلى. . .، ص٨٧.

تبسَّم الدَّهر لكنْ بعد تعبيس وقوَّض الدهر لكن بعد تعريس
إذا دعَونا بأن تبقى لأنفسنا دعاؤنا: فابقَ يابن السادة السوس
وقد أعاد إليه الله خاتمه فاسترجع الملك من صخر بن ابليس

وهذا البيت الأخير الذي هجا فيه ابن عباد الخليفة الحافظ كان سبباً في قتله بعد أن أُطلق سراح الخليفة، واسترجع سلطانه بعد مقتل وزيره الأكمل[(١)].

وممن نال الحظوة عنده من الشعراء أبو المنصور ظاهر الحداد الذي تقدمت ترجمته وقد أشاد بخصائصه في القصيدة التي يقول فيها:

حوى الملك ملك أغاث النُّفوسا فأي نفيسٍ تولّى نفيسا
وإن تك أفعال آبائه بدوراً فقد بثَّ فيها شموسا
وحقك يا باني الافضلين يميناً بدت بره لا غموسا
لقد سستما الملك والعالمين فأعجزتما ملكاً أن يسوسا[(٢)]



(١) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية. ص٤٥٤.
(٢) ابن عبد الظافر، أخبار الدول المنقطعة، ص٩٥.

ثالثاً: الحياة الاقتصادية في عهد الأسرة الجمالية

١ - الزراعة:

حرص الفاطميون على ايلاء الزراعة عنايتهم واهتمامهم؛ لأنها عصب الاقتصاد المصري. وتوقف نجاح الزراعة في مصر على عاملين أساسيين: فيضان النيل، ورعاية الحكومات بتوفير الامكانات اللازمة للعناية بالزراعة. لذلك قسم المصريون الأرض الزراعية إلى حياض يصل إليها الماء في زمن الفيضان بواسطة شبكة واسعة من الترع والقنوات التي تُسدُّ حتى يبلغ ارتفاع النيل حدّاً معيناً اتفق المؤرّخون أنه ستة عشر ذراعاً[(١)]. وحتى يتسنّى غمر هذه الحياض بالماء كان من الضروري أن يبلغ النيل حد الوفاء، وأن يتم تطهير هذه الترع في فصل الجفاف. ويتمثل العامل الثاني في ضرورة عمل الحكام على تحسين الري واصلاح الترع والقنوات والمحافظة على الجسور المقامة على النيل[(٢)].

وبعد الشدّة التي انتابت مصر زمن خلافة المستنصر الفاطمي، ومن ثم تولي بدر الجمالي وزارة التفويض في مصر وجّه اهتمامه للعناية بأمر الترع والجسور وتشجيع الأعمال الزراعية ورفع الضرائب عن المزارعين في فترات محدَّدة، أدّى كل ذلك إلى ارتفاع ايرادات الدولة بزيادة مقدارها ثلاثمائة ألف دينار عما كان الأمر عليه قبل قدومه إلى مصر[(٣)].

وفي عهد الأفضل، بلغ التقدم الزراعي أعلى درجة لم تشهده أرض الكنانة من

(١) ابن مماتي، قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، مطبعة مصر، ١٩٤٣، ص٧٦. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١، ص٥٤.

(٢) راشد البراوي، حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٨، ص٦٣.

(٣) المقريزي، الخطط، ج١، ص١٠٠.

قبل. فحرث الأفضل الأرض حتى أنه استجلب «اردبين» من نوع جديد من القمح، وأراد تجربتهما في الزراعة. فأرسل أحدهما إلى والي «الصعيد» والآخر إلى والي «الدلتا». فجاءه الجواب من أحدهما: بأن الأرض كلها مزروعة، وليس هناك مكان لبذر هذا القمح، في حين ذكر الثاني أنه بذر الأردب... فعرف اهتمام الأول بالزراعة بحيث لم يجد مكاناً غير مزروع يمكن زراعة هذا القمح فيه، في حين أهمل الثاني الزراعة حيث بقيت هناك أرض معطلة زرع فيها هذا الاردب، وكان أن كافأ الأول، وعاقب الثاني[1]، وكان من نتائج سياسته الزراعية أن ارتفع الخراج خمسة آلاف دينار، وقدر متحصل الامراء ألف ألف اردب[2].

لا بد من القول، في هذا المضمار: إن الفاطميين كانوا يعاملون الفلاحين معاملة تنطوي على قدر كبير من التسامح والرعاية فلم يتركوا تقدير الخراج للمقطعين، بل حددوا مقداره، كما حرصوا منذ امتد نفوذهم إلى مصر على عدم انتزاع الأراضي من أيدي أصحابها. أما الأراضي التي تمتلكها الدولة، فأخذوا في توزيع أجزاء منها على بعض أعوانهم والمختصين بهم. وكانت هذه الأراضي إذا تنازلت عنها الدولة صارت ملكاً للمقطعين، ولكن إذا منحت الأرض لبعض الأفراد مقابل دفع مبلغ معين من المال تصبح إقطاع استغلال، وهذا النوع من الاقطاع كان يُعطى للأجناد في العصر الفاطمي.

وقد أُدخل تعديل كبير على الاقطاعات في عهد وزارة الأفضل بن بدر الجمالي، ذلك أنه لما شكا صغار المقطعين من قلة دخل اقطاعاتهم، في حين زاد المتحصل من اقطاعات الأمراء، أمر الأفضل الجمالي بحل جميع الاقطاعات واعادة توزيعها، ولم يتعرَّض للأرض المملوكة، بل أبقاها في أيدي ملاّكها، وقد قال في هذا الصدد: «إن كل من كان له ملك فهو باقٍ عليه لا يدخل في الاقطاع وهو محكم إن شاء باعه وإن شاء أجره». وكان أكثر المقطعين في ذلك الوقت من الأجناد، وقد سمح لهم الأفضل بأن يستغلوا في اقطاعاتهم مدّة ثلاثين سنة، وفي

---

(١) عارف تامر، تاريخ الإسماعيلية، ص٢٣٨.

(٢) ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، وزارة الثقافة، دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٩، ص١٢٦.

ذلك يقول المقريزي: «وكتبت السجلات بأنها باقية في أيديهم إلى مدّة ثلاثين سنة لا يقبل عليهم فيها زائد»[١].

وكان المقطع في أواخر العصر الفاطمي يدفع ضريبة منتظمة عن كل فدان مقدارها دينار وخمسة قراريط، وإذا انقطعت مدّة الإقطاع، عليه أن يرد الأرض المقطعة كما تسلّمها، ولا ينقل شيئاً من المنشآت التي اقيمت عليها[٢].

وما ان علم الأفضل أن ضامن أي أرض لا يأمن أن يزيد عليه آخر، فتنزع منه قبل انقضاء مدّة ضمانه، حتى أبطل ذلك، وأقرَّ كل ضامن على أرضه، إلى أن تنتهي مدَّة ضمانه، ما دام منفذاً لتعهداته[٣].

من جانب آخر، وفيما يتصل بالموضوع نفسه فإن بدراً الجمالي قد حبس على عقبه وقت وزارته عدداً من النواحي عرفت بـ«الحَبْس الجيوشي»، بعضها في البر الشرقي وهي بَهْبيت والأميرية والمنية، وبعضها في البر الغربي جهة الجيزة هي: سَفْط ونَهْيا ووسيم. وظلَّت جميع البساتين المختصة بهذا الحَبْس بأيدي ورثة أمير الجيوش حتى وزارة المأمون البطائحي فلما توفي الخليفة الآمر واستولى أبو علي الأفضل كتيفات حفيد بدر الجمالي على السلطة أعاد جميع الحبس إلى الملاَّك لكون نصيبه في ذلك الأوفر، فلما قتل كتيفات وأُعيد الخليفة الحافظ أمر بالقبض على جميع الاملاك وحلَّ الأحباس المختصة بأمير الجيوش لولا تدخل غلامي الأفضل عز الملك ويانس واقنعا الحافظ بإبقائهما. ولما انقرض عقب أمير الجيوش ولم يبق

---

(١) المقريزي، الخطط، ص٨٣؛ محمد جمال الدين سرور، الدولة الفاطمية في مصر سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٧٠، ص١٣٧.

(٢) ابن مماتي، قوانين الدواوين، ص٣٩٧.

(٣) وقد أصدر لذلك منشوراً جاء فيه ما نصه:

«إن أي واحد من الناس ضمن ضماناً من باب، أو ربع، أو بستان، أو ناحية، أو كفر، وكان لأقساط ضمانه مؤدياً، ولما يلزمه من ذلك مبدياً، وللحق متبعاً، فإن ضمانه باقٍ في يده، لا تقبل زيادة عليه مدّة ضمانه على النقد المعقود عملاً بالواجب، والنظام المحمود. فأما من ضمن ضماناً، ولم يقم بما يجب عليه فيه، وأصرَّ على المدافعة، والمغالطة التي لا يعتمدها إلا كل سفيه سيء الطباع... فذلك الذي فسخ حكم ضمانه بنقضه الشروط المشروطة عليه». انظر: ابن المأمون، أخبار مصر، ص٤٥.

منه سوى امرأة افتى الفقهاء بأن الحبس باطل فصار ماله يُحمل إلى بيت المال لينفق في مصالح المسلمين(١).

---

٢ - الصناعة

التطور الكبير في تجارة مصر الدولية وافتتاح أسواق جديدة لها، قد أديّا إلى ازدهار مختلف فروع الصناعة في مصر الفاطمية(٢). اشتهر المصريّون بما قدّموا للعالم من صناعة اثبتت مهارة الصانع المصري دقةً وجودةً. وأهم الصناعات التي ازدهرت في العصر الفاطمي صناعة النسيج والسكر والورق والحفر على الخشب والسفن والزيوت والخزف والفخار والعاج والزجاج وغيرها من الصّناعات. ويُلاحظ أنه كان للنسيج في مصر صناعة أهلية فرضت عليها الدولة رقابة شديدة وضرائب فادحة، ولكن صناعة النسيج ازدهرت في المصانع الحكومية التي أُطلق عليها «الطراز»(٣) وكان هناك نوعان من هذه المصانع الحكومية: الأول «طراز الخاصة»، وكان لا يشتغل إلاَّ للخليفة ورجال بلاطه وخاصّته؛ والثاني «طراز العامة»، وكان يتبع أيضاً بيت مال الحكومة، ولكنه كان يشتغل لحساب بلاط الخليفة وافراد الشعب على السَّواء.

يُذكر، في هذا الصدد، أن الشدَّة العظمى التي انتابت مصر في منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي لم تكن لتقضي على صناعة النسيج، إذ سرعان ما استعادت مصر مكانتها فيها، ولعل من أبرز الشواهد على ذلك الكميات الكبيرة من المنسوجات التي وُجدت في تركة الأفضل الجمالي التي كان من بينها

---

(١) ابن المأمون، المصدر نفسه، ص١٠٥.

(٢) Ashtor,E., A social and Economic History of the Near East in the Middle ages, London, collins, 1976, P.198.

(٣) الطراز: لفظ فارسي معرَّب يعني في الأصل المدبَّج أو الموشَّى أو المزركش، ثم أصبح يُقصد به بعد ذلك ملابس الخليفة الرسمية وأصبحت رمزاً من رموز السيادة، فمتى تولى الإمام أو سُمِّي ولي العهد «نُقش اسمه على الطراز». أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص٤٧٤.

ثلاثون حُلّة من الذهب العراقي المعمول برسم الرَّقم، وتسعمائة ثوب ملوّنة من الديباج وخمسمائة صندوق من دقّ دمياط وتنيس، وتسعون ألف ثوب من أصناف الديباج وما يجري مجراه من العتّابي وغيره...

وكانت «تذكرة الطّراز» - التي تشتمل على مصروف السَّنة فيما تنتجه دار الطراز - بلغت في أيام الأفضل الجمالي واحداً وثلاثين ألف دينار، منها خمسة عشر ألف دينار للسلف (أي للقماش نفسه) وستة عشر ألف دينار للذهب العراقي والمصري الذي يُستخدم في نسجه[١].

٣ - التجارة:

حثّ الإسلام على التجارة[٢] وعدَّها من طرق التعاون الإنساني والتكافل الاجتماعي بين بني البشر، وقد وضع القواعد الأخلاقية والضوابط المادية والآداب المرعية للتجارة، وذلك حتَّى تؤدي دورها في الحياة على أكمل وجه وأفضل هيئة[٣].

إنَّ للتجارة أهدافاً عدّة، من بينها إسهامها في التطور الحضاري والنمو الاقتصادي، إذ أنَّ التجار عندما كانوا ينتقلون من إقليم لآخر يعملون على نشر ثقافات مختلفة وأفكار مغايرة وأساليب معيشة غير مألوفة.

لم تكن مصر تلعب دوراً هاماً في التجارة في بداية العصور الوسطى بسبب الأهمية التي اكتسبتها بغداد، بوصفها مركزاً تجارياً هاماً، وقد أوجد الفتح الفاطمي

(١) ابن المأمون، أخبار مصر، ص١٠٠.

(٢) عرّف ابن خلدون التجارة بقوله: «إعلم أن التجارة محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء أياً ما كانت السلعة من رقيق أو زرع أو حيوان أو قماش وذلك القدر النامي يسمى ربحاً. فالمحاول لذلك الربح إما أن يختزن السلعة ويتحين بها حوالة الأسواق من الرخص إلى الغلاء فيعظم ربحه وإما أن ينقله إلى بلدٍ تنفق فيه تلك السلعة أكثر من بلده الذي اشتراها فيه فيعظم ربحه» ابن خلدون، المقدمة، ص٤٥.

(٣) أحمد الدريوش، أحكام السوق في الإسلام وأثرها في الاقتصاد الإسلامي، دار عالم الكتب، الرياض، ١٩٨٩، ص٩٠.

لمصر سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م، موقفاً جديداً تماماً، بحيث انتقل حجم التجارة الإسلامية في أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي تدريجياً من العراق والخليج إلى مصر والبحر الأحمر، وخدمت المتغيرات في أراضي الخلافة العباسية سياسة الفاطميين، الّذين كانوا في أوج قوتهم، بينما كانت الاضطرابات المتتالية في جنوب العراق إضافة إلى عدم الاستقرار في الخليج عاملاً في صالح الموانىء المصرية والتجارة الفاطميَّة(١). وقد هجر قسم كبير من الناس بغداد والعراق خوفاً من هذه الاضطرابات وفروا إلى مصر. وأدت استراتيجية الفاطميين الشرقية ومحاولة قضائهم على العباسيين إلى إحكام سيطرتهم على طرق التجارة المؤدية إلى الهند، سواء للانتعاش الاقتصادي أو لنشر الدعوة الإسماعيلية على طول الطرق التجارية، وذلك بالإضافة إلى تجارتهم مع جنوب أوروبا وشمال أفريقيا وصقلية وبيزنطة في الشمال.

برزت في مصر قاعدتان للتجارة الفاطمية هما: الفسطاط والاسكندرية، فالأولى كانت تمثل المركز التجاري الهام لمصر، وكان يتجمع بها مختلف أنواع البضائع. وكانت البضائع التي تُرسل إلى ما وراء البحار تُحصَّل مكوسها مسبقاً في الفسطاط، ولم يكن يُسمح بنقلها إلى الاسكندرية دون أن تكون مصحوبة بما يُثبت دفع المكوس عنها هناك، وحتى أن السّلع التي كانت تجلب من موانىء البحر المتوسط إلى الاسكندرية لم تصل إليها إلاَّ باذنٍ من الفسطاط. أدّى هذا النشاط التجاري والمالي في مدينة الفسطاط إلى رخائها وثرائها وازدياد أسواقها، وقد وصفها الرحالة المقدسي بقوله: «إنَّ الأسواق قد التفَّت حول جامع عمرو، إلاَّ أن بينها وبينه من نحو القبلة دار الشط وخزائن وميضأة، وهو أعمر موضع بمصر، وزقاق القناديل عن يساره، وما يدريك ما زقاق القناديل... ويطول الوصف بنعت أسواقها وجلالته غير أنه أجلُّ أمصار المسلمين وأكبر مفاخرهم وأهل بلدانهم»(٢).

لا شكّ أن هذه التجمعات والأسواق كانت بحاجة إلى تنظيم وضبط. ويرى

---

(١) أيمن فؤاد سيد، الدولة الفاطمية، ص٤٨٣.

(٢) المقدسي، احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، نشر دي خويه، ليدن - بريل، ١٩٠٦، ص ١٩٩؛ أيمن فؤاد سيد، مرجع سابق، ص٤٨٧.

بعض الباحثين ومنهم ماسينيون أَنَّ الحركة الإسماعيلية التي ارادت أن تجمع كل العالم الإسلاميّ تحت شعار العدالة الاجتماعية هي التي أوجدت في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي الطوائف والحرف اليدوية وأعطتها ميزتها الخاصَّة(١)، و«الطوائف الحرفية» هي تجمعات تضم كل رؤساء حرفة معينة، وتنظم طريقة ممارستهم لها، وتتولى الاشراف على بعض انشطة المنتمين إليها وخاصة في مجالي الدين والتضامن الاجتماعي؛ حيث تضع قواعد معينة واجراءات لتعليم من هم تحت التدريب وتدريبهم داخل الطائفة، وفي الوقت نفسه تقوم الطائفة بحماية افرادها ضد المنافسات الخارجية.

وأورد المؤرّخون كيفية تنظيم الأسواق في الفسطاط، زمن الفاطميين، حيث أشار المقريزي في معرض حديثه عن أزمة سنة ٤٤٤هـ / ١٠٥٢م: «وكان في كلّ سوق من أسواق مصر (الفسطاط) على أرباب كل صنعة من الصنائع عريف يتولّى أمرهم»(٢) وقد سمَّى ابن الطوير هؤلاء العرفاء بـ«عرفاء الأسواق، وأرباب المعايش»(٣) وكان اختيار هؤلاء العرفاء يتم بموافقة المحتسب، ممثل الحكومة المسؤول عن الاشراف على الأسواق لمراجعة الاسعار والمكاييل والأوزان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكثيراً ما كان الوالي يلجأ إلى العرفاء لمعاونته في فرض الأمن والتعرف على مثيري الفوضى والاضطراب(٤).

وتبدو أهمية الاسكندرية من كونها ميناءً كبيراً واقعاً على البحر المتوسط، وكانت طرق التجارة، سواء القادمة من الاسكندرية أو من داخل أفريقيا أو من البحر الأحمر، تلتقي كلها في الفسطاط بسبب قربها من النيل حيث تمرّ من خلالها مختلف أنواع البضائع من منسوجات وجلود ومعادن وعطارة وتوابل. ويُشار إلى أنَّ الطريق الذي تسلكه التجارة الشرقية هو الطريق نفسه الذي كان يسلكه ركب الحجيج مروراً

---

(١) Massignon,L., WT. "Sinf" EI2 IV.P355.

(٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢ ص٢٢٤.

(٣) ابن الطويري، نزهة المقلتين، ص ٢٥.

(٤) ابن نغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٨٤.

بالصعيد تجاه مدينة قوص، وقد أصبح لهذه المدينة أهمية بالغة ومكانة أساسية في حركة التجارة الشرقية في أعقاب الاصلاحات الإدارية التي أدخلها نظام بدر الجمالي على الإدارة المصرية، وتمثلت المرحلة الأساسية في هذا التطور في فرض وتحصيل مكوس على البضائع الواردة إلى قوص(١).

عمل بدر الجمالي بعد وصوله إلى مصر وتوليه أعباء الوزارة الفاطمية على تنشيط التجارة، واستثمار رؤوس الأموال المصرية المهاجرة، فأرسل قاضي القضاة أبا عبد الله محمد إلى بلاد الشام ليتصل بأرباب الأموال واليسار من المصريين ويطلب منهم استثمار أموالهم في وطنهم. ويشير المؤرخون إلى نجاح مهمة أبي عبد الله حيث استطاع أن يقنع أصحاب رؤوس الأموال - الذين فروا بأموالهم من مصر أثناء الشدة المستنصرية - بالعودة إلى دولتهم واستثمار أموالهم فيها. وقد منحهم بدر الجمالي الأمان والثقة، وخفَّف عنهم القيود، فكان ذلك سبباً مباشراً في انتعاش الحركة والتجارة، وازدهار الأسواق، وزيادة الثروات، وتحسُّن الأحوال المعيشيَّة(٢).

وقد سار الأفضل شاهنشاه وفق منهج والده في ايلاء عنايته للجانب التجاري في الدولة الفاطمية، حيث كان عادلاً، حسن السيرة مع الرعية والتجار ويذكر ابن ميسر، في هذا المجال، أنه «لم يُعرف أحدٌ صودر في زمانه ولا قُسّط»(٣). وبعد الأفضل تسلّم الوزارة المأمون البطائحي، وقد تولاَّها من بعده الراهب أبو نجاح بن قنا حيث كثرت المصادرات على يديه، ولم يسلم منه جميع رؤساء الديار المصرية وقضاتها وكتابها وغيرهم(٤) فلما قام أبو علي أحمد بن الأفضل بانقلابه في أعقاب وفاة الخليفة الآمر «أعاد على الناس ما أُخذ من أموالهم»(٥).

أما لناحية الضرائب التي كانت تفرض زمن الفاطميين، فقد قُسّمت إلى قسمين

---

(١) ناصر خسرو، سفرنامة، ص١١٨؛ أيمن فؤاد سيد، المرجع السابق، ص٨٦.
(٢) ابن ميسر، أخبار مصر، ص٣٠؛ فايزة الشوحة، مرجع سابق، ص٢٩٥.
(٣) ابن ميسر، المصدر نفسه، ص٨٣.
(٤) النويري، نهاية الارب، ج٢٨، ص٢٩٣.
(٥) ابن ميسر، المصدر السابق، ص١١٧.

أساسيين هما: الضرائب الأصلية أو الضرائب الشرعية والتي تستقي منها الدولة مواردها في نظر الفقهاء هي: الفيء، وهو ما يُؤخذ من المشركين دون قتال وتشتمل على: الخراج والجزية، والضرائب المفروضة على تجار أهل الذمة وعلى التجار المشركين القادمين من خارج دار الإسلام. والخمس على ما يُستخرج من المعادن والرّكاز والغنائم. والزكاة وتجبي على: المواشي والزروع والثمار والذهب والفضة، وعلى بضاعة التجار المسلمين(١).

والقسم الثاني: وهو ما يُعدُّ ضرائب فرعية فرضت لتعويض احتياجات بيت المال، وترتبط عادةً بأوساط التجار ويُطلق عليها «المكوس».

وكانت الدول الإسلامية تلجأ في تحصيل هذه الضرائب إمَّا إلى الجباية المباشرة بواسطة العامل المختص أو عن طريق الضمان. والضمان نظام مالي، يتعهد بموجبه الضامن أن يدفع إلى الدولة سنوياً مبلغاً اتفاقياً عن قيمة الضرائب أو المكوس المفروضة على الجهة أو العمل الذي تضمنه مقدماً. وقد لجأ الفاطميون منذ وصولهم إلى مصر إلى اعتماد هذا الاسلوب الثاني في تحصيل الأموال، حيث ضمنوا أموال الدولة كلّها(٢).

إن الجماليين ساروا على الخطط الضرائبية نفسها التي كانت سائدة في أرجاء الدولة الفاطمية، وقد أضاف الأفضل الجمالي طريقة مبتكرة لمعالجة التفاوت بين السنة الشمسية والسنة القمرية، وقد كان التوفيق بين السنتين الشمسيَّة والقمرية أمراً ضرورياً؛ لأن استحقاق الخراج وجبايته منوطان بالزروع والثمار وهي مرتبطة بالشهور والسنين الشمسية وما يقابلها من التقويم القبطي. وحدث أنه حصل بين السنة الشمسية والقمرية سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م تفاوت أربع سنين، عندها أمَرَ الافضل ابن الصيرفي، كاتب الانشاء، بانشاء سجل «بنقل سنة تسع وتسعين وأربعمائة إلى سنة إحدى وخمسمائة لتكون موافقة لها... ويستمر الوفاق بين السنين الهلالية

---

(١) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٦، ص ١٩٤، ٢١٠.

(٢) الماوردي، الاحكام السلطانية، ص١٦٠.

والخراجية إلى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة... وكتب في محرم سنة إحدى وخمسمائة»(١).

---

٤ - السكة الفاطمية:

مرَّت السكة الفاطمية منذ تأسيس الدولة الفاطمية ببلاد المغرب عام (٢٩٧هـ / ٩٠٩م) حتى نهاية عهدها سنة (٥٦٧هـ / ١١٧١م) بثلاث مراحل رئيسية من حيث الشكل والمضمون.

تشمل المرحلة الأولى الممتدة من (٢٩٧ - ٣٤١هـ /٩٠٩ - ٩٥٢م) سكة الخلفاء الفاطميين الأوائل: المهدي، والقائم، والمنصور، وتتميز بأن طراز السكة فيها امتداد لطراز السكة العباسية المنتشرة في معظم أقطار العالم الإسلامي، ويكمن سبب عدم تغييرها من قبل الفاطميين لأن دولتهم كانت آنذاك في مرحلة تأسيس لا تحتمل تغييراً في النظام المالي السَّائد في العالم الإسلامي.

أما المرحلة الثانية التي امتدَّت من (٣٤١ - ٤٨٧هـ / ٩٥٢ - ١٠٩٤م) فهي تتضمن سكة الخلفاء الأقوياء: المعز، والعزيز، والحاكم، والظاهر، والمستنصر، وهي تمثل مرحلة الثورة على السكة العباسية، والابتكار والتنوع في طرز النقود لكل خليفة وظهور شخصية متميزة للسكة الفاطمية.

والمرحلة الثالثة كانت من العام (٤٨٧ - إلى ٥٦٧هـ / ١٠٩٤ - ١١٧١م) وتشمل سكة الخلفاء: المستعلي، والآمر، والمنتظر، والحافظ، والظافر، والفائز، والعاضد، وهي تمثل فترة ضعف الخلافة الفاطمية منذ أواخر عهد المستنصر الذي انعكس على السكة فأصابها بالنضوب وعدم الابتكار، وذلك عائد لسيطرة الوزراء، أُمراء الجيوش، على مقادير الدولة(٢).

برز تطور هام في السكة الفاطمية غداة تولّي أحمد بن الأفضل الجمالي مهام

---

(١) ابن المأمون، أخبار مصر، ص٨.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٤، ص٢٨٤.

وزارته سنة ٥٢٤هـ / ١١٢٩م، وقد استأثر بالسلطة وقبض على الخليفة الحافظ الفاطمي وسجنه، تمثل ذلك بضرب دنانير تحمل اسم الإمام محمد المنتظر لأمر الله وهو الإمام الثاني عشر من أئمة الإمامية الاثني عشرية.

وتعتبر الدنانير التي ضربها أحمد الجمالي من حيث طرازها امتداداً لطراز دنانير الخليفة الآمر الفاطمي ومن قبله الخليفة المستعلي، وقد سجلت مجموعة متحف الفن الإسلامي بالقاهرة مثالاً من الأمثلة القليلة للدنانير التي تحمل اسم الإمام محمد المنتظر والتي ضربت في مصر تحديداً سنة ٥٢٥هـ / ١١٣١م، كما تضمَّنت مجموعة السكة الفاطمية بدار الكتب المصرية دينارين أحدهما ضُرب بمصر سنة ٥٢٥هـ / ١١٣١م والآخر في الاسكندرية في العام نفسه ويحملان الكتابات نفسها التي تشير إلى دور الأكمل الجمالي فيها[١].



(١) مايسة محمود داود، المسكوكات الفاطمية دراسة أثرية وفنية، دار الفكر العربي، القاهرة، لا، ت، ص١٠٩ و١٥٧.

رابعاً: لقطات حضارية من سيرة الجماليين

في هذه الفقرة التي آثرتُ أن أختمَ بها الفصل الخامس من دراستي عن الأُسرة الجمالية، ارتأيت أن أعرض بعض المحطَّات والصُّور التي رسمها المؤرخون عن حياة هذه الأسرة ونشاطها. من هذه الملامح العامة التي ربما أجمع عليها المؤرخون كافة حسن سيرة الجماليين وعدلهم مع الرعية، ذكر هذه السمات الغالبة عليهم معظم من ترجم لهم أو أورد جزءاً من أخبارهم. ولعلَّ ذلك عائد إلى مميزات الأرمن على وجه العموم، فقد وصفوا بأنهم أرباب تجلُّد، وصبرٍ واقتصاد في المعيشة، وأرباب همم لا تكلّ، ولا تملّ، وعادتهم الانهماك في التجارة والصناعة... وهم أصحاب قناعة. فلهذا يحفظون ما يكتسبون، وهم، في بلادهم، كما في البلاد الأخرى، يعيشون بالاجتماع والائتناس، كل عائلة مع كبيرها كأنهم اخوة تحت حكم كبارهم سناً، فتراهم جميعاً على قلب رجل واحد، لا مشاحنة بينهم ولا تباغض(١).

وكان نصيب الجماليين من كلمات المؤرّخين كبيراً، فبالغوا في الإشادة بهم وبأعمالهم على غير مستوى وصعيد.

ينظر بعض المؤرخين باكبار إلى ما انجزه بدر، مؤسس الأسرة، حيث كان على يديه صلاح الديار المصرية، بعد خرابها، واستيلاء المفسدين عليها. واستقامت به أمور الدولة الفاطمية وعادت إليها تباشير الازدهار والاستقرار(٢).

---

(١) كنموذج لوصف حالة الأرمن الذين يعيشون خارج بلادهم، ما قاله أحمد أمين، إذ أشار إلى صفات من نزل منهم في مصر، حيث قال: «توجد منهم طائفة لا بأس بها في مصر. وقد اشتهروا بجودة الصنعة واتقانها، والمهارة في التجارة وعدم المبالاة في الغربة، لذلك نجحوا حيث لم ينجح غيرهم وكسبوا من الأموال ما تضخمت به ثرواتهم». للمزيد، راجع: فؤاد أفرام البستاني، دائرة المعارف، المجلد العاشر، بيروت، ١٩٧٣، ص٣١٣.

(٢) ابن ظافر، أخبار الدول المنقطعة، ص٧٦؛ ابن الوردي، تتمة المختصر، ج١، ص٥٦٨؛ ابن منجب الصيرفي، الإشارة، ص٥٦.

وهكذا كانت سيرة الأفضل، نجل بدر الجمالي، الذي أشاد بأعماله أكثر من مؤرّخ. ومنهم من وضعه في مصاف أبيه في الشهامة والصرامة[١]، وبعضهم الآخر عدّه بطلاً شجاعاً، وافر الهيبة، عظيم الرتبة[٢]. وقد ذكرت حادثة وقعت في عهد الأفضل، يُدرك من خلالها اتصافه بمزايا فريدة حيث لم يُعرف أحد صودرت املاكه في زمانه إذ لما دخل الاسكندرية بعد ثورة نزار، وقد كان بها يهودي يبالغ في سبّ الأفضل وشتمه ولعنه. فلما قبض عليه وأراد الاقتصاص منه بقتله، قال له اليهودي: إن لديَّ خمسة آلاف دينار، خذها مني واعتقني واعف عني. فأجابه الأفضل قائلاً: والله لولا خشية أن يقال قتله حتى يأخذ ماله لقتلتك، وعفا عنه ولم يأخذ منه شيئاً[٣].

ومن محاسن الأفضل حرصه على المحافظة على أموال المواطنين، وكان يرفض بالتالي أن يضاف قسم من أموال الناس إلى بيت مال الدولة الفاطمية، حيث افرد مال المواريث ومنع من أخذ شيء من التركات على العادة القديمة وأمر بحفظها لأربابها، فإذا حضر من يطلبها وطالعه القاضي بثبوت استحقاقها أطلقها حالاً. هذا ما أدّى إلى اجتماع مبلغ طائل قُدر بمائة وثلاثين ألف دينار ينتظر استلام مستحقيه له. فلما تولى القضاء ثقة الملك أبو الفتح مسلم بن علي الرسعني بعد وفاة القاضي الجليس كتب للأفضل طالباً إليه اضافة المال المودع عنده إلى بيت المال. حيث قد مضى على هذه الأموال السنين الطويلة لم يُطلب شيء منها. لما وصلت رسالة القاضي الرسعني إلى الأفضل وقّع في جوابها: «إنما قلّدناك الحكم ولا رأي لنا فيما لا نستحقه، فاتركه على حاله لمستحقيه ولا تراجع فيه»[٤].

إنَّ سيرةً عطرة كهذه جلبت للأفضل المحبة في نفوس الناس، الأمر الذي دفع القراء والمنشدين والوعاظ أن يتدافعوا إلى تقديم العزاء بوفاته آخر شهر رمضان عام

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٨٩.
(٢) الذهبي، سير اعلام النبلاء، ج١٩، ص٨٣.
(٣) ابن ميسر، أخبار مصر، ص٥٨.
(٤) ابن ميسر، المصدر نفسه، ص٥٩.

٥١٥هـ/ ١١٢١م، كلٌّ على طريقته واسلوبه، حتى قيل إن عددهم بلغ قرابة أربعمائة وعشرين[(١)].

ولا تختلف سيرة أحمد بن الأفضل عن سيرة أبيه وجدّه، وقد قيل فيه انه أحسن إلى الناس وعاملهم بالخير وأعاد إليهم مصادراتهم، فأحبه الناس بسبب ما قام به من أعمال تعود بالنفع عليهم[(٢)] «وامَّن البرّ التقي، وأخاف المفسد الشقي»[(٣)].

وثمة ناحية أخرى، برزت في حياة الجماليين تتعلّق بزيادة مظاهر البذخ والثراء وتجمع الثروات في أيديهم حيث ذكرت عن ثرواتهم أرقام هي أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة، وأميل إلى أن يكون قد دخل بها بعض المبالغة والمغالاة[(٤)].

ومما ذكره المؤرّخون عن الثراء الذي بلغه الجماليون ما قيل عن بدر الجمالي أنه لما مات خلَّف سبعمائة غلام، بلغت ثروة كل منهم ما ينيف عن المائة ألف غلام. وقُدّرت أمواله بعد عمارته لسور القاهرة «بستة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف ألف درهم في دار الوزارة، ومن الجوهر والياقوت أربعة صناديق ومن القُضُب الفضة والذهب والمراتب، ومن السروج المحلاة، ما يعجز عن وصفه، وخلف

---

(١) ابن ميسر، المصدر نفسه، ص٦٠.
(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص٢٣٩.
(٣) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٢٩.
(٤) روى ابن خلكان عن ثروة الافضل ما يلي:
إنه خلف من الأموال ما لم يُسمع بمثله: خلف ستمائة ألف ألف دينار عيناً ومائتين وخمسين إردباً دراهم نقد مصر، وخمسة وسبعين ألف ثوب ديباج أطلس، وثلاثين راحلة أحقاق ذهب عراقي، ودواة ذهب فيها جوهر قيمته اثنا عشر ألف دينار، ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال، في عشرة مجالس في كل مجلس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود مذهب بلون من الألوان أيما أحب منها لبسه، وخمسمائة صندوق كسوة لخاصّه من دق تِنّيسَ ودمياط، وخلف من الرقيق والخيل والبغال والمراكب والطيب والتجمل والحلي ما لم يعلم قدره إلا الله سبحانه وتعالى، وخلف خارجاً عن ذلك من البقر والجواميس والغنم ما يُستحيا من ذكر عدده، وبلغ ضمان ألبانها في سنة وفاته ثلاثين ألف دينار، ووجد في تركته صندوقان كبيران فيهما إبر ذهب برسم النساء والجواري. ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ج٢، ص٤٥١.

ألف قصبة زمرد؛ لأنه كان له به غرام عظيم، جمعت له من جميع الأقطار»[(١)]. وذكر أنَّ بدراً ترك تركة لأولاده من الاقطاعات، تكفيهم مدى الحياة، وتحميهم غائلة الدهر ولو لم يقوموا بأي عمل.

ولقد تفوق الأفضل على أبيه لناحية شغفه بالمظاهر وولعه باقامة الولائم واتخاذه الجواري في قصره، حتى وصل عددهن - لدى ابن ميسر - إلى ثمانمائة جارية، منهن خمسون حظية، وكان لكل واحدة منهن حجرة خاصة بها[(٢)]. وحكي عن الأفضل كذلك أنه كان له مئة بدلة معلّقة على أوتاد من ذهب، على كل بدلة منها منديل[(٣)] من لونها[(٤)]. وفي السياق عينه، ورد أن الأفضل ترك، أثر وفاته، تسعين ألف ثوب عنابي من الديباج، وثلاث خزائن كبيرة ملأى بالثياب الدبيقية من صنع دمياط وتنيس[(٥)] والتي يصل ثمن القميص الدبيقي منها إلى عشرة آلاف دينار[(٦)]، ووجد بين ذخائره كذلك دكة من العاج والابنوس محلاّة بالفضّة عليها قطعة من العنبر مثمنة الشكل، في أعلاها تمثال طائر من الذهب أرجله من المرجان ومنقاره من الزمرد وعيناه من الياقوت[(٧)]. وليست هذه هي ثروة الأفضل بأكملها، حيث يضيف ابن ميسر الذي أخذ معلوماته الاحصائية هذه عن أحد متولّي الخزانة في القصر الذي قال: «هذا ما حضرني حفظه في داره، وأما ما كان في مخازنه، وتحت

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٣٣١. وج١، ص١١٠.
(٢) ابن ميسر، أخبار مصر، ص٥٨.
(٣) المنديل يُجعل في المنطقة المشدودة في وسط الإنسان مع الصوف وغيره. وهي آلة قديمة للملوك.
(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص١٣٢.
(٥) تنيس: جزيرة في بحر مصر، قريبة من البرجا بين الفرما ودمياط، مشهورة بصنع الثياب الملونة والفرش. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٥٢؛ ويورد بعض المؤرخين أن تجار تنيس كانوا مياسير، قد أنعم الله عليهم بثراء واسع، وما يدل على ذلك أن بدراً الجمالي بعد أن وصل إلى مصر احتاج إلى مال، فاقترض من أثرياء مدينتي تنيس ودمياط، ابن ميسر، المصدر السابق، ص٢٢.
(٦) ناصر خسرو، سفرنامه، ص٩٦.
(٧) القلقشندي، المصدر السابق، ج٢، ص٨٥.

يد عماله والجباة وضمان النواحي، وأصناف الغلال والحبوب والقطن والكتاب والشمع والحديد والخشب وغير ذلك، مما لا يحصى»[١].

قد يقودنا تحليل ما ورد من مظاهر الفخامة والأُبهة ومن ازياد الثروات لدى الجماليين، إلى التدليل على استحواذهم لمقدرات الدولة ومن ثم سيطرتهم الكاملة على مختلف مرافق الإدارة لدى الفاطميين، وذلك على حساب الخلفاء الذين تواروا في الظلال. وأمر آخر يمكن استنتاجه أن ثروات الجماليين قد جُمعت بالجد والعمل المنطوي على الذكاء والتفكير، وهي محصَّلة سنوات عديدة تصل إلى قرابة السّتين عاماً قضوها وهم يتولون المركز الرفيع في الدولة الفاطمية، لنصل إلى المقارنة بين ما كان عليه الوضع في مصر قبل مجيء الجماليين إليها وما حدث أثناء قدومهم واستقرارهم فيها وبالتالي انتعاش الوضع الاقتصادي والمالي الذي أدّى بدوره إلى ازدهار أوضاع البلاد التي يحكمونها وهو ما انعكس ايجاباً عليهم وهيَّأ لهم الظروف المؤاتية لأسباب الثراء.



(١) ابن ميسر، المصدر السابق، ص٥٧.

الخاتمة

تميّزت الدولة الفاطميَّة بمميزات شتى، جعلتها تنفرد بخصائص في بعض النّواحي السياسية والاجتماعية والدينية والحربية والثقافية. وما تزال آثارها تستقطب بعض الاهتمام والدراسة والبحث العلمي. ومن بين الموضوعات التي تثير تساؤلات تتمحور حول أسباب وبواعث لجوء الفاطميين إلى محاولة مزج الاعراق والاتنيات المختلفة في بوتقة الدولة، ودوافع ثقتهم واطمئنانهم في تسيير مرافق وإدارات الدولة لأقوامٍ من عناصر عرقية متعدّدة، أُوكلت إليهم مهمات على جانب من الخطورة. من ضمن هؤلاء كان الأرمن الذين سطع نجمهم في عهد بدر الجمالي وما تلاه، بسبب ما اتاحه لهم من فرص وامكانيات دفعتهم للمجيء إلى مصر واقامتهم فيها، وقد تزايد عددهم بشكل لافت ربما لعدم استقرار الاوضاع الامنية في بلادهم آنذاك ولضيق الموارد الاقتصادية هناك، فشكلوا في القاهرة جالية كبيرة تمتعت بكامل الحريات الدينية والتجارية؛ الامر الذي استثمره الجماليون بدقة متناهية، فحرصوا على أن يتولى بعض هؤلاء الأرمن مواقع هامة في الادارة والجيش الفاطميين، فصارت لهم عندها المكانة البارزة والادوار الهامة في بنية الدولة ومراكز القرار لدى الفاطميين.

إنَّ من ابرز ما حققته الأسرة الجمالية من انجازات يتمثل بسعي عميدها بدر إلى ازاحة شبح الازمات الداخلية الجاثم على مصر، وإزالة معظم أسباب تدهور الاوضاع الامنية والاضطرابات الاقتصادية والاجواء المشحونة بالتقاتل والتنابذ. إذاً، ساهم بدر الجمالي بإعادة هيبة الدولة وسمعتها إلى سابق عهدها، وعمل على نقل حاضرة الخلافة الفاطمية إلى شيءٍ من عزّها الماضي، وتطلّع إلى إعادة بناء جسور المحبة بين رعايا الدولة. كانت بانتظار بدر لحظة قدومه إلى مصر مهمات شاقة تتمحور حول إعادة تنظيم هيكلية الدولة وانقاذ اقتصاديات البلاد والاهتمام بمختلف الجوانب المعيشية والزراعيَّة والصناعية.

سعى الجماليون بما كانوا يمتلكونه من مقدرات قيادية إلى اعلاء مكانة الدولة

الفاطمية، وابراز دور مصر السياسي وقدرتها على قيادة العالم الاسلامي آنذاك، حيث تضاعف، بسبب ذلك، الدور الذي أدَّته مصر الفاطمية في مختلف المجالات والشؤون السياسية والاستراتيجية؛ وهو الأمر الذي استثمره من جاء بعدهم من الايوبيين والمماليك.

ولقد ساهم افراد الاسرة الجمالية، من جهة أخرى، في تعزيز قوى الجيش ورعوا النواحي الادارية والمالية والمسائل الاقتصادية والنظم الضرائبيَّة. واهتم الجماليون أيضاً بتطوير النشاط العمراني وتوسيعه، فانصب اهتمامهم على عمارة أبواب القاهرة وأسوارها وتحصينها وتقوية دفاعاتها لتتمكن من صدّ الغزوات الخارجية والفتن الداخلية. ويمتاز بنيان هذه الاسوار بكتلها الحجرية المصقولة مسطحاتها، المنتظمة صفوفها؛ ما يدلّ على ذلك بقاؤها إلى يومنا هذا شاهدةً على مدى رعاية الجماليين لهذا الجانب الاستراتيجي. كما لا يسعنا إلاّ أن نذكر ما أنجزه الوزراء الجماليون من مرافق عامة ومنشآت حيوية، كبناء السدود والترع والبساتين والمباني العامة التي أفاد منها المصريّون. ثم انهم أولوا الجانب الديني مزيد اهتمامهم من خلال تشييدهم عدداً من المساجد والمراقد الدينية.

ولعلَّ أهم ما اثارته هذه الدراسة من إشكالات ما يرتبط بدور الجماليين في الجانب العقائدي للفاطميين ومحاولتهم الحثيثة تغيير بعض مبادئهم الدينية، واخضاع المشرفين على شؤون الدعوة لسلطتهم المباشرة، بدل سلطة الخليفة وكان سعيهم الدؤوب يهدف لصرف الخلافة عن بعض ومنحها لبعضهم الآخر، الأمر الذي أثار جدلاً واسعاً، أدى إلى حدوث انقسامات حادة داخل الاسماعيلين، أسهمت في انشقاق الحركة الاسماعيلية وافتراقها إلى فرقتين رئيستين: النزارية والمستعلية، حيث كان لكل فرقة من هاتين الفرقتين المتنافستين اتباع ومؤيدون، يؤكد كُلُّ منهم موقفه ورأيه، واستمر تأثير هذا التباين إلى أيامنا هذه حيث إن كلا الطرفين ما زال يشير إلى أحقيته ومشروعيته في الخلافة. وعلى صعيد آخر، نلاحظ أن أحمد الجمالي لجأ إلى محاولات أخرى لإضعاف المذهب الاسماعيلي وإحلال المذهب الإمامي الاثني عشري محله عبر دعوته للإمام المهدي، ولولا قصر مدّة وزارته والتعجيل باغتياله لشهدنا انقلاباً دينياً شاملاً على مساحة الدولة الفاطمية.

كما قاربت الدراسة، من جانب آخر، حقيقة ما أُثير من نقاش حول موقف الأفضل تجاه الحملات الافرنجية، فأظهرت دوره في صدّ هذه الحملات، عندما عبّأ قواه المسلَّحة وحفَّز المصريين والشاميين للدفاع عن بلدانهم وقراهم ودينهم. إن القراءة المتأنية لسير الاحداث تُظهر، بوضوح، سعي الافضل الجمالي لجبه الخطر الافرنجي عبر أساليب متنوعة، رأى فيها السبيل الأمثل لمواجهتهم، من خلال الوسائل السلمية التي ربما اعتقد انها تشكل محاولة شبه يائسة لإيقاف زحف الفرنج، حيث عمد إلى انفاذ سفارة إليهم للتفاوض في عقد اتفاق معهم، يتضمن أن ينفرد الفرنج بأنطاكية، وأن تستقل مصر ببيت المقدس، على ان يُسمح لهم بزيارة الاماكن المقدسة أفراداً غير مسلَّحين. لما فشلت المفاوضات والطرق الدبلوماسيَّة بادر إلى رفع الجهوزية في صفوف قواته وخاض حروباً عنيفة مع الفرنج قاد بعضها بنفسه أو أوكل مهمة قيادتها إلى ابنه اسهمت إلى حدٍ بعيد في عرقلة الزحف الافرنجي.

وكان لما أحدثه الجماليون من تغييرات جوهرية في أنظمة الحكم وإشاعة جو من الاستقرار في أرجاء الدولة، أن دفع الكثيرين للتوجّه إلى مصر بقصد طلب المال وزيادة الثراء، لذا استرد الاقتصاد المصري انفاسه في ظلّ وزارة الجماليين حتى غدت مصر مقصداً للتجار لأمانها وقوانينها السائدة التي تسمح للمتمولين في الاستثمار فيها. وثمة شاهد على ذلك ما أورده بعض المؤرخين من أنَّ الامور ساءت عقيب مقتل الافضل الجمالي، ونال الناس من الظلم والجور الكثير. وجاء هؤلاء المتظلمون إلى باب الخليفة الفاطمي الآمر، ولعنوا الافضل وسبّوه أقبح سب، فخرج إليهم الخدم متسائلين عن السبب في سبّهم للافضل وهو كان قد أنعم عليهم وأحسن إليهم وعدل فيهم، فأجابوهم: انه عدل وتصدّق وحسنت آثاره، ففارقنا بلادنا حُبّاً لجواره، وأقمنا في بلده، فحصل بعده هذا الظلم، فهو السبب في خروجنا عن أوطاننا واستقرارنا ببلده.

وبعد، فإني آمل أن أكون قد وُفّقت فيما قصدت من ابراز تاريخ الاسرة الجمالية، واضأت بعض معالم التاريخ الاسلامي في العصر الفاطمي، وأحطتُ بالعديد من مظاهر الحضارة والرقي الذي انتشر في مصر جرَّاء أعمالهم. ربما تكون

هذه الدراسة قد حققت ما يصبو إليه القارىء من رغبة في الاطّلاع على حقبة هامة، ومحطَّة رئيسة لم تتناولها دراسة مستقلّة من ذي قبل بحدود معرفتي، نرجو أن تكون هناك ابحاث ودراسات اكاديمية أخرى تتوسع في معالجة هذا الموضوع.



ثبت المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

- ابن الأثير، عزالدين علي بن محمد (ت٦٣٠هـ / ١٢٣٣م) **الكامل في التاريخ**، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥ - ١٩٦٧.
- ابن اياس، أبو البركات محمد بن أحمد (ت٩٣٠هـ / ١٥٢٤م) **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢.
- ابن أيبك الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت٧٦٤هـ / ١٣٦٣م) **الوافي بالوفيات**، تحقيق جاكلين سوبله وعلي عماره، فرانز شتاينر، شتوتغارت، ١٩٨٠.
- ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت٨٧٤هـ / ١٤٧٠م) **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٧٢.
- ابن الجوزي، جمال الدين عبد الرحمن بن محمد (ت٥٩٧هـ / ١٢٠١م) **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، تحقيق محمد عبد القادر عطا وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢.
- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي (ت٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) **رفع الاصر عن قضاة مصر**، تحقيق حامد عبد المجيد وآخرون، الإدارة العامة للثقافة، وزارة التربية والتعليم، القاهرة، ١٩٤٧ - ١٩٦١.
- ابن حماد، محمد بن علي بن حماد (ت٦٢٦هـ / ١٢٣٠م) **أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم**، تحقيق التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، دار الصحوة، القاهرة، لا.ت.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ / ١٤٠٦م) **العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٧١.
- ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ / ١٢٨٢م) **وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان**، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨.

- ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد (ت٨٠٩هـ / ١٤٠٦م) **الانتصار لواسطة عقد الامصار**، نشره فولرز، القاهرة، ١٨٩٤.
- ابن سعيد، علي بن سعيد المغربي (ت٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) **النجوم الزاهرة في حُلى حضرة القاهرة**، تحقيق حسين نصار، مركز تحقيق التراث، القاهرة، ١٩٧٢.
- ابن الصيرفي، أبو القاسم علي بن منجب (ت٥٤٢هـ / ١١٤٨م) **القانون في ديوان الرسائل والإشارة إلى من نال الوزارة**، تحقيق عبد الله مخلص، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، ١٩٢٤.
- ابن الطقطقى، محمد بن علي العلوي (ت٧٠٩هـ / ١٣٠٩م) **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، القاهرة، ١٩٣٨.
- ابن الطوير، عبد السلام بن الحسن الفهري، (ت٦١٧هـ / ١٢٢٠م) **نزهة المقلتين في أخبار الدولتين**، تحقيق أيمن فؤاد سيد، فرانز شتاينر، شتوتغارت، ط١، ١٩٩٢.
- ابن ظافر الأزدي، علي بن أبي منصور (ت٦١٢هـ / ١٢١٥م) **أخبار الدول المنقطعة**، دراسة تحليلية للقسم الخاص بالفاطميين، مقدمة وتعقيب اندريه فريه، مطبوعات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٧٢.
- ابن ظهيرة، برهان الدين إبراهيم بن علي (ت٨٩١هـ / ١٤٨٦م) **الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة**، وزارة الثقافة، دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٩.
- ابن عبد الظاهر، محيي الدين عبد الله (ت٦٦٠هـ / ١٢٦١م) **الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة**، تحقيق أيمن فؤاد سيد، أوراق شرقية، بيروت، ١٩٩٦.
- ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد (ت١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م) **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، نشره حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥١هـ.
- ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت٨٠٧هـ / ١٤٠٤م) **التاريخ الواضح المسلوك إلى معرفة تراجم الخلفاء والملوك**، تحقيق قسطنطين زريق، بيروت، ١٩٤٢.
- ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي (ت٥٥٥هـ / ١١٦٠م) **ذيل تاريخ دمشق**، تحقيق آمدروز، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨.
- ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت٧٧٤هـ / ١٣٧٣م) **البداية والنهاية في التاريخ**، مكتبة المعارف، بيروت، ومكتبة النصر، الرياض، ١٩٦٦.

- ابن المأمون: جمال الدين أبو علي موسى (ت٥٨٨هـ/ ١١٩٢م) **نصوص من أخبار مصر**، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٣.
- ابن المقفع، ساويرس أسقف الاشمونين (ت٦٣٥هـ / ١٢٣٧م) **سير الآباء البطاركة**، نشره يسّى عبد المسيح وعزيز سوريال وغيرهما، جمعية الآثار القبطية، القاهرة، ١٩٧٤.
- ابن مماتي، الأسعد بن مهذّب (ت٦٠٦هـ / ١٢٠٩م) **قوانين الدواوين**، تحقيق عزيز سوريال عطية، الجمعية الملكية الزراعية، القاهرة، ١٩٤٣.
- ابن ميسر، تاج الدين محمد بن علي (ت٦٧٧هـ /١٢٧٨م) **أخبار مصر**، اعتنى بتصحيحه هنري ماسيه، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، ١٩١٩.
- ابن الوردي، زين الدين عمر بن محمد (ت٧٥٠هـ / ١٣٤٩م) **تاريخ ابن الوردي، أو تتمة المختصر في أخبار البشر**، تحقيق أحمد رفعت البدراوي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٠.
- أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل (ت٦٦٥هـ / ١٢٦٧م) **الروضتين في أخبار الدولتين**، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة، ١٨٦٢.
- أبو صالح الأرمني، سعد الله بن جرجس (ت٦٠٦هـ /١٢٠٨م) **تاريخ الكنائس والأديرة**، تعليق صمويل السرياني، القاهرة، ١٩٨٤.
- أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل بن علي (ت٧٣٢هـ / ١٣٣١م) **المختصر في أخبار البشر**، بيروت، لا.ت. مصوّر عن الطبعة الحسينية، القاهرة، ١٩٠٧.
- أبو يعلى الفراء الحنبلي (ت٨٧٥هـ / ١١٧٦م) **الاحكام السلطانية**، تصحيح محمد حامد الفقي، القاهرة، ١٩٧٤.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت٧٤٨هـ / ١٣٤٧م):

تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام، تحقيق عمر تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٤.

سير اعلام النبلاء، تحقيق شعيب الارناؤوط، مؤسسة الرسالة؛ بيروت، ١٩٨٦.

العبر في خبر من غبر، تحقيق محمد زغلول، دارا لكتب العلمية، بيروت، لا.ت.

- سبط ابن الجوزي، أبو المظفر يوسف بن قزأوغلى (ت٦٥٤هـ / ١٢٥٦م) **مرآة الزمان في تاريخ الاعيان**، مطبعة الجمعية التاريخية التركية، أنقرة، ١٩٦٨.

- السخاوي، نور الدين علي بن أحمد (ت٨٨٧هـ / ١٤٨٢م) **تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والبقاع المباركات**، نشرة محمود ربيع وحسن قاسم، القاهرة، ١٩٣٧.
- السّيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت٩١١هـ / ١٥٠٥م) **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، ١٩٦٨.
- الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت٥٤٨هـ / ١١٥٣م) **الملل والنحل**، تخريج محمد بن فتح الله بدران، مكتبة الانجلو، القاهرة، ١٩٥٦.
- الطبري، محمد بن جرير (ت٣١٠هـ / ٩٢٢م) **تاريخ الرسل والملوك**، دار المعارف بمصر، لا.ت.
- العماد الكاتب الاصفهاني: من علماء القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي: **البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان**، تحقيق كلود كاهن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٣٧.

خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء مصر، تحقيق أحمد أمين وشوقي ضيف واحسان عباس، القاهرة، ١٩٥١.

- القاضي النعمان بن محمد بن حيّون (ت٣٦٣هـ / ٩٧٣م) **رسالة افتتاح الدعوة**، تحقيق وداد القاضي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٠.
- القرماني، أحمد بن يوسف **أخبار الدول وآثار الأول**، تحقيق أحمد حطيط وفهمي سعد، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٢.
- القلقشندي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت٨٢١هـ / ١٤١٨م).

صُبح الأعشى في صناعة الانشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٢.

مآثر الانافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار فراج، مطبعة حكومة الكويت ١٩٨٥.

- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد (ت٤٥٠هـ / ١٠٥٨م).

الأحكام السُّلطانية، دار الفكر، القاهرة، ١٩٥٤.

قوانين الوزارة وسياسة الملك، تحقيق رضوان السيد، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٣.

مجموعة الوثائق الفاطمية، تحقيق جمال الدين الشيال، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٨.

- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت٣٤٦هـ / ٩٥٦م).
التنبيه والاشراف، مكتبة الخياط، بيروت، ١٩٦٥.
مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٩١.
- المقدسي، محمد بن أحمد البشّاري (ت٣٧٧هـ / ٩٨٧م) **أحسن التّقاسيم في معرفة دول الأقاليم**، راجعه محمد مخزوم، بيروت، ١٩٨٧.
- المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ / ١٤٤١م).
اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٦.
- المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ / ١٤٤١م).
إغاثة الأمة بكشف الغمة، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ١٩٨٠.
تاريخ الاقباط المعروف بالقول الابريزي للعلامة المقريزي، تحقيق عبد المجيد دياب، دار الفضيلة، القاهرة، لا.ت.
المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١.
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٨.
- المؤيد في الدين، هبة الله بن موسى الشيرازي (ت٤٧٠هـ / ١٠٧٧م) **سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة - ترجمة حياته بقلمه**، تقديم وتحقيق محمد كامل حسين، دار الكاتب المصري، القاهرة، ١٩٤٩.
- ناصر خسرو، (ت٤٨١هـ / ١٠٨٨م) **سفرنامة**، ترجمه إلى العربية يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٠.
- النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٣هـ / ١٣٣٣م) **نهاية الإرب في فنون الأدب**، تحقيق محمد محمد أمين ومحمد حلمي محمد أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣.
- ياقوت الحموي، شهاب الدين (ت٦٢٦هـ / ١٢٢٩) **معجم البلدان**، بيروت، ١٩٧٩.

ثانياً: المراجع بالعربية والمعرَّبة:

- أحمد، حسن خضيري، **علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب**، مكتبة مدبولي، القاهرة، لا.ت.
- أحمد، نريمان عبد الكريم، **المرأة في مصر في العصر الفاطمي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣.
- الإمام، محمد رفعت، **تاريخ الجالية الأرمنية في مصر**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩.
- الأمين، حسن، **الإسماعيليون والمغول ونصير الدين الطوسي**، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ط٢، قم، إيران، ١٩٩٧.
  مستدركات أعيان الشيعة، دار التعارف، بيروت، ١٩٩٦.
- أيوب، إبراهيم، **التاريخ الفاطمي السياسي**، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ١٩٩٧.
- الباشا، حسن، **الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار**، الدار الفنية، القاهرة، ١٩٨٩.
- البراوي، راشد، **حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٨.
- البستاني، بطرس، **دائرة المعارف**، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٣.
- البستاني، فؤاد افرام، **دائرة المعارف**، بيروت، ١٩٧٣.
- بيطار، أمينة، **موقف امراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين حتى أواخر القرن الخامس الهجري**، دار دمشق، دمشق، ط١، ١٩٨٠.
- تاجر، جاك، **أقباط ومسلمون**، القاهرة، ١٩٥١.
- تامر، عارف، **المستنصر بالله الفاطمي**، دار المسيرة، بيروت، ط١، ١٩٩٠.
  تاريخ الإسماعيلية، رياض الريس، لندن، ط١، ١٩٩١.
- جمال الدين، عبد الله محمد، **الدولة الفاطمية**، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩١.
- حتي، فيليب، **تاريخ العرب**، دار الكشاف، بيروت، ١٩٤٩.
- حسن، حسن إبراهيم، **تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٣٤.

- حسن، علي إبراهيم، **مصر في العصور الوسطى**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٤.
- حسن، محمد عبد الغني، **مصر الشاعرة في العصر الفاطمي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣.
- حسين، أحمد، **موسوعة تاريخ مصر**، دار الشعب، القاهرة، لا.ت.
- حسين، محمد كامل، **الحياة الفكرية والأدبية لمصر من الفتح العربي حتى آخر الدولة الفاطمية**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، لا.ت.

في أدب مصر الفاطمية، دار الفكر العربي، القاهرة، لا.ت.
- حلاوي، محمود، **النثر الفني في العصر الفاطمي**، اطروحة دكتوراه، الجامعة اللبنانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، اشراف أسعد ذبيان، نوقشت عام ١٩٩٣.
- الحمد، عادلة علي، **قيام الدولة الفاطمية ببلاد المغرب**، دار المستقبل، الاسكندرية، ١٩٨٠.
- الخربوطلي، علي حسين، **مصر العربية الإسلامية**، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، لا.ت.
- داود، مايسة محمود، **المسكوكات الفاطمية دراسة أثرية وفنية**، دار الفكر العربي، القاهرة، لا.ت.
- الدريوش، أحمد، **أحكام السوق في الإسلام وأثرها في الاقتصاد الإسلامي**، دار عالم الكتب، الرياض، ١٩٨٩.
- الرزاز، حسن، **عواصم مصر الإسلامية**، مطبوعات الشعب، القاهرة، لا.ت.
- ريمون، اندرية، **القاهرة تاريخ حاضرة**، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر، القاهرة - باريس، ١٩٩٤.
- زكي، عبد الرحمن، **القاهرة تاريخها وآثارها من جوهر القائد إلى الجبرتي المؤرّخ**، الدار المصرية، القاهرة، ١٩٦٦.
- سالم، عبد العزيز، **تاريخ مصر الإسلامية حتى نهاية العصر الفاطمي**، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، لا.ت.
- سامح، كمال الدين، **العمارة الإسلامية في مصر**، مكتبة النهضة المصريَّة، القاهرة، لا.ت.

- سرور، محمد جمال الدين، **الدولة الفاطمية في مصر سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٠.
- **النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة**، دار الفكر العربي، القاهرة، لا.ت.
- **سياسة الفاطميين الخارجية**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٧.
- سعد، أحمد صادق، **تاريخ مصر الاجتماعي الاقتصادي**، دار ابن خلدون، بيروت، ط١، ١٩٧٩.
- السيد، أديب، **أرمينية في التاريخ العربي**، بيروت، ط١، ١٩٧٢.
- سيد، أيمن فؤاد، **تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن**، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٨.
- **الدولة الفاطمية في مصر**، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٠.
- سيمونوفا، ل.**تاريخ مصر الفاطمية**، ترجمة وتحقيق حسن بيومي، الاكاديمية الروسية للعلوم في معهد الاستشراق، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ٢٠٠١.
- شرف، طه أحمد، **دولة النزارية أجداد اغاخان كما أسسها الحسن الصباح**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٠.
- شعبان، محمد عبد الحي، **الدولة العباسية**، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨١.
- الشوحة، فايزة محمد، **أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي**، اطروحة دكتوراه، الجامعة اللبنانية، كلية الآداب، إشراف الدكتور أحمد حطيط، نوقشت عام ٢٠٠١م.
- الشوربجي، أمينة أحمد، **رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر في العصر الفاطمي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤.
- الصالح، صبحي، **النظم الإسلامية نشأتها وتطورها**، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٩٨٢.
- الصاوي، أحمد السيد، **مجاعات مصر الفاطمية**، دار التضامن، بيروت، ١٩٨٨.
- الصوري، وليم، **تاريخ الحروب الصليبية**، تعريب سهيل زكار، بيروت، ١٩٩٠.
- الطنطاوي، أحمد صادق، **تاريخ العصور الوسطى في الشرق والغرب**، دار الطباعة الأهلية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٦.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح، **الحركة الصليبية**، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ط٦، ١٩٩٦.

- العبادي، أحمد مختار، **في التاريخ العباسي والفاطمي**، دار النهضة العربية، بيروت، لا.ت.
- عبد النعيم، أسامة طلعت، مقالة «ملامح تخطيط المدخَل المنكسر في العمارة بين مصر والغرب الإسلامي» كتاب **أعمال الندوة العلمية الأولى لجمعية الآثار بين العرب**، القاهرة، ١٩٩٩.
- عبده، عبد الله موسى، **الفاطميون وآثارهم المعمارية في أفريقيا ومصر واليمن**، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ٢٠٠١.
- عطا الله، خضر أحمد، **الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي**، دار الفكر العربي، القاهرة، لا.ت.
- العقاد، عباس محمود، **فاطمة الزهراء والفاطميون**، المكتبة العصرية، بيروت، لا.ت.
- غالب، مصطفى، **اعلام الإسماعيلية**، دار اليقظة العربية، بيروت، ١٩٦٤.
- الغيطاني، جمال، **ملامح القاهرة في ألف سنة**، دار نهضة مصر، القاهرة، ط٢، ٢٠٠١.
- فرغلي، أبو الحمد محمود، **الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة**، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٩٩١.
- فكري، أحمد، **مساجد القاهرة ومدارسها في العصر الفاطمي**، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٨٦٩.
- ڤون، جوستاف، مقالة «انجازات العصر الفاطمي» ضمن كتاب **أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة**، مارس إبريل ١٩٦٩، وزارة الثقافة في الجمهورية العربية المتحدة، مطبعة دار الكتب بمصر، ١٩٧٠.
- لويس، برنارد، وآخرون، **أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة**، مارس - إبريل ١٩٦٩، وزارة الثقافة، مطبعة دار الكتب، مصر، ١٩٧٠.
- ماجد، عبد المنعم، **السجلات المستنصرية**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٤.
- **نظم الفاطميين ورسومهم في مصر**، مكتبة الانجلو المصرية، ط٢، ١٩٧٣.
- محاسنة، محمد حسين، **تاريخ مدينة دمشق خلال الحكم الفاطمي**، دار الأوائل، دمشق، ٢٠٠١.

- محمد، صبحي عبد المنعم، **العلاقات بين مصر والحجاز زمن الفاطميين والايوبيين**، دار العربي، القاهرة، ١٩٩٣.
- مشرفة، عطية مصطفى، **نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين**، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، لا.ت.
- مصطفى، صالح لمعي، **التراث المعماري الإسلامي في مصر**، دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٤.
- مصطفى، علي عبد القادر، **الوزارة في النظام الإسلامي**، مطبعة السعادة، القاهرة، ط١، ١٩٨١.
- المعاضيدي، خاشع، **الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي**، دار الحرية للطباعة، بغداد، ط١، ١٩٧٦.
- مقبل، توفيق، **الفاطميون والصليبيون**، الدار الجامعية، بيروت، ١٩٧٩.
- المناوي، محمد حمدي، **الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي**، دار المعارف بمصر، القاهرة، لا.ت.
- مؤسسة أعمال الموسوعة، **الموسوعة العربية العالمية**، الرياض، ط٢، ١٩٩٩.
- هالم، هاينز، **الفاطميون وتقاليدهم في التعليم**، ترجمة سيف الدين القصير، دار المدى، دمشق، ط١، ١٩٩٩.
- هايد، ف، **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى**، مراجعة عزالدين فوده، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥.
- اليوزبكي، توفيق سلطان، **الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية**، جامعة الموصل، الموصل، ١٩٧٦.
- يونس، عبد الحميد، وآخرون، **تاريخ وآثار مصر الإسلامية**، الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة، لا.ت.

ثالثاً: المراجع بالانكليزية والفرنسية:

- Ashtor, E,A Social and Economic of the Near East in the Middle Ages, London, Collins, 1976.
- Becker, C.H.art "Badr al-Dijama'li", EI2, Vol.I,pp 869-870.
- Canard, M:
  - art. "Fatimides", EI2, Vol.II,pp.850-862.
  - Notes sur les Arméniens en Egypte à L'époque Fatimide", AIEO, XIII (1955), PP.143-157.
- Creswell, K.A.C, "The works of sultan Bibars al-Bunduqdäre in Egypt", BIFAO XXVI, 1926.
- Daftary, farhad, art. "The Earliest Ismailis", ARABICA, Année 1991, Leiden, 1991.
- A Short history of the Ismailis, Markus wiener publishers, U.K, 1998.
- Dadoyan, Seta B., The Fatimid Armenians: Cultural and Political Interaction in the Near East, Leiden-Brill 1997.
- H.A.R. GIBB and P.KRAUS, art. "ALMUSTANSIR", EI2, VII, PP. 218 -225.
- Hamdani,H., "Some Unknown Ismaili Authors and Their Works", JRAS,1933.
- Hawwary (al-), H., "Trois Minarets Fatimides à La Frontière nubienne", BIEXV, (1934-1935).
- J.H.J,art. "Egypt", Funk and wagnalls, New Encyclopedia, U.S.A,V9.
- Lewis, B.,art. "al-Mustali" EI2, VII,PP726 -730 .
- Lev,Y., Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk Eras, Leuven 2001.
- Madelung, W., art "Ismailiyya", EI2, vol.IV,pp. 198-206.
- P.M.Holt, Bernard lewis, the cambridge History of Islam, volume 1A, 1970, (Egypt and syria).
- Rabie, H, The Financial system of Egypt, 564-641/1169-1341, london, 1972.
- Ragib, yusuf, art. "Le Mausolée de yunus Al-Sade Est-il celui de Bader-Al-Gam li", ARABICA, année 1973, leiden, 1973.

- Robert.L.tignor, art. "Egypt", Encyclopedia Americana, U.S.A, 1997.
- Runciman, S,A,History of the Crusader I. The First Crusades and the Foundation of the Kingdom of Jeruslem, Cambridge university Press, 1951.
- Sayyid, A.F:
    - La capitale de L'Egypte jusqu'à L'époque fatimide (al-Qahira et al-Fustât) Beirut, BTS, 1998.
    - art. "North and North-East Africa", History of Humanity scientific and Cultural Development, Unesco 2000, Vol.IV,(1)(EGYPT).
- Stanly.Lane-poole, A history of Egypt, in the middle ages, London, 1901.
    - Wiet, G:
    - art "al-Afdal", EI2, vol.I,pp.215-216.
    - art. "Fatmides", Encyclopaedia universalis, corpus 9, Paris, France,1996.
    - art. "Égypte Depuis L'Islam" Encyclopaedia universalis, Paris,1996.
- Matériaux pour corpus Inscriptiouam Arabicum, Egypte II.

الملاحق

- قائمة بأسماء الخلفاء الفاطميين
- قائمة بأسماء الوزراء الجماليين
- صور بعض الأماكن في القاهرة الفاطمية:
  - باب زويلة
  - باب النصر
  - اسوار القاهرة
- لوحة تاريخية متعلقة ببدر الجمالي
- خارطة القاهرة زمن الجماليين
- باب زويلة

الخلفاء الفاطميون

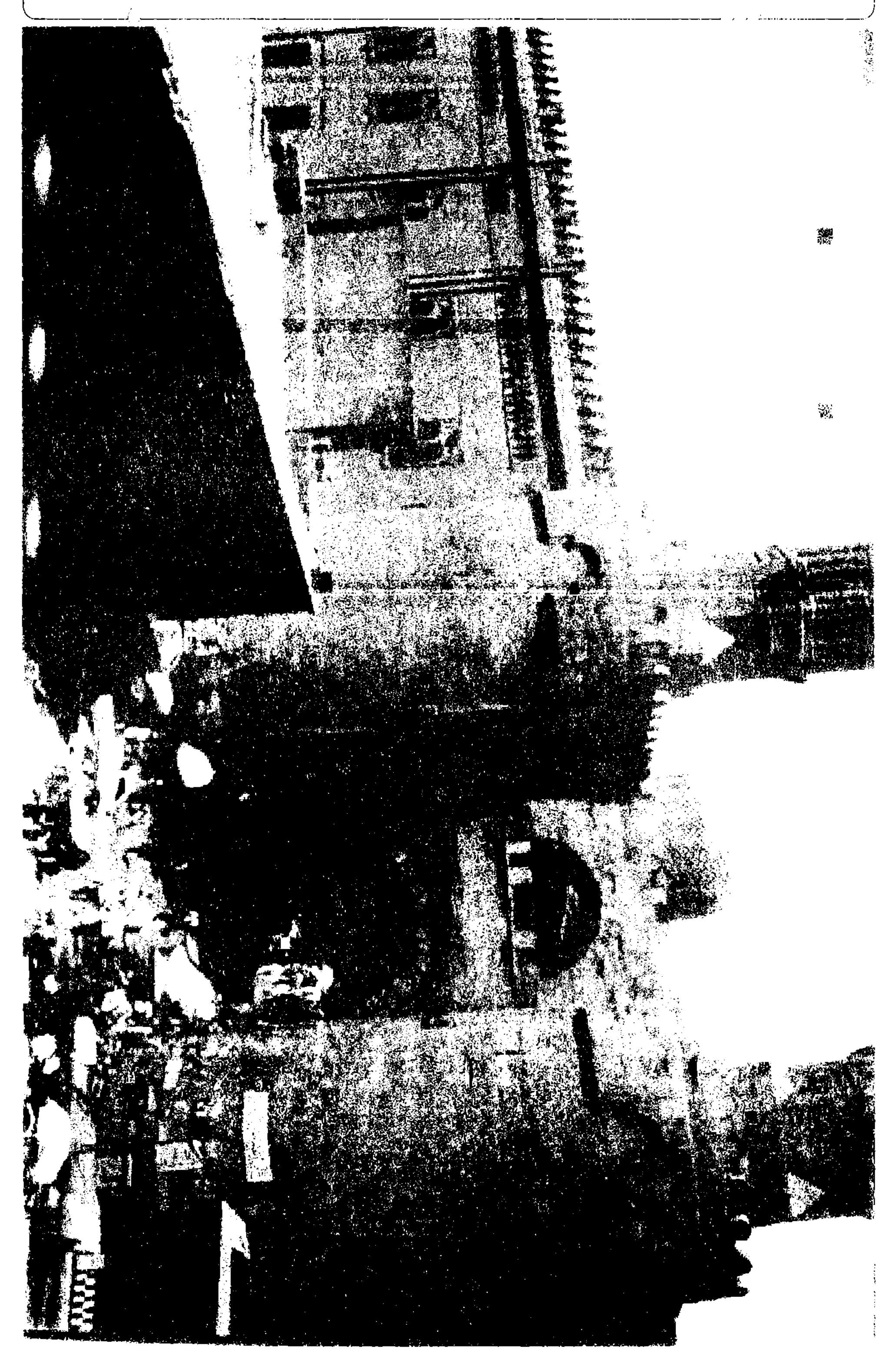
١ - المهدي عبيد الله	٢٩٦ - ٣٢٢هـ ٩٠٩ - ٩٣٤هـ
٢ - القائم بأمر الله أبو القاسم محمد (وقيل	٣٢٢ - ٣٣٤هـ
عبد الرحمن) بن المهدي عبيد الله	٩٣٤ - ٩٤٥هـ
٣ - المنصور بنصر الله أبو الطاهر إسماعيل	٣٣٤ - ٣٤١هـ
ابن القائم بأمر الله	٩٤٥ - ٩٥٢م
٤ - المعز لدين الله أبو تميم معد بن المنصور	٣٤١ - ٣٦٥هـ
بنصر الله أبي الطاهر إسماعيل	٩٥٢ - ٩٧٥هـ
٥ - العزيز بالله أبو المنصور نزار بن	٣٦٥ - ٣٨٦هـ
المعز لدين الله أبي تميم معد	٩٧٥ - ٩٩٦هـ
٦ - الحاكم بأمر الله أبو علي منصور	٣٨٦ - ٤١١هـ
ابن العزيز بالله أبي المنصور نزار	٩٩٦ - ١٠٢٠م
٧ - الظاهر لاعزاز دين الله أبو الحسن	٤١١ - ٤٢٧هـ
علي بن الحاكم بأمر الله أبي علي منصور	١٠٢٠ - ١٠٣٥م
٨ - المستنصر بالله أبو تميم معد بن الظاهر	٤٢٧ - ٤٨٧هـ
لاعزاز دين الله أبي الحسن علي	١٩٣٥ - ١٠٩٤م
٩ - المستعلى بالله أبو القاسم أحمد	٤٨٧ - ٤٩٥هـ
ابن المستنصر بالله أبي تميم معد	١٠٩٤ - ١١٠١م
١٠ - الآمر بأحكام الله أبو علي المنصور	٤٩٥ - ٥٢٤هـ
ابن المستعلى بالله أبي القاسم أحمد	١١٠١ - ١١٣٠م

١١ - الحافظ لدين الله أبو الميمون	٥٢٤ - ٥٤٤هـ
عبد المجيد بن الأمير أبي القاسم محمد	١١٣٠ - ١١٤٩م
ابن المستنصر بالله	
١٢ - الظافر بأمر الله أبو المنصور إسماعيل	٥٤٤ - ٥٤٩هـ
ابن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد	١١٤٩ - ١١٥٤م
١٣ - الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى	٥٤٩ - ٥٥٥هـ
ابن الظافر بأمر الله أبي المنصور إسماعيل	١١٥٤ - ١١٦٠م
١٤ - العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله	٥٥٥ - ٥٦٦هـ
ابن الأمير يوسف بن الحافظ لدين الله	١١٦٠ - ١١٧١م

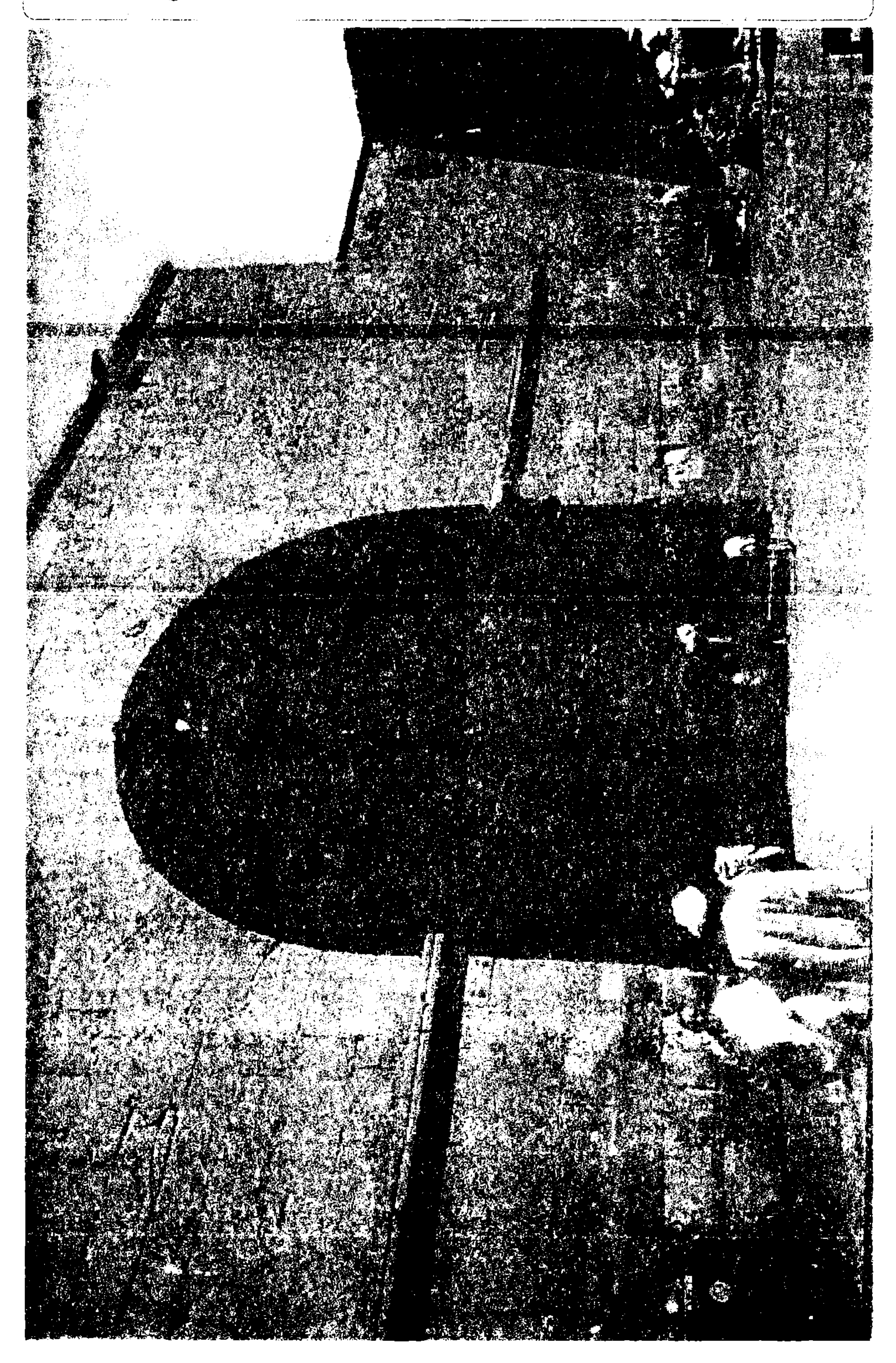
الوزراء الجماليون

١ - بدر الجمالي	٢٨ جمادى الأولى ٤٦٦هـ إلى ربيع الآخر ٤٨٧هـ = ٢١ سنة وبضعة أشهر
٢ - الأفضل بن بدر الجمالي	ربيع الأول ٤٨٧هـ إلى آخر رمضان ٥١٥هـ = ٢٨ سنة ونصف
٣ - أحمد بن الأفضل الجمالي	١٥ من ذي القعدة ٥٢٤هـ إلى ١٦ من المحرم ٥٢٦هـ = سنة وأيام

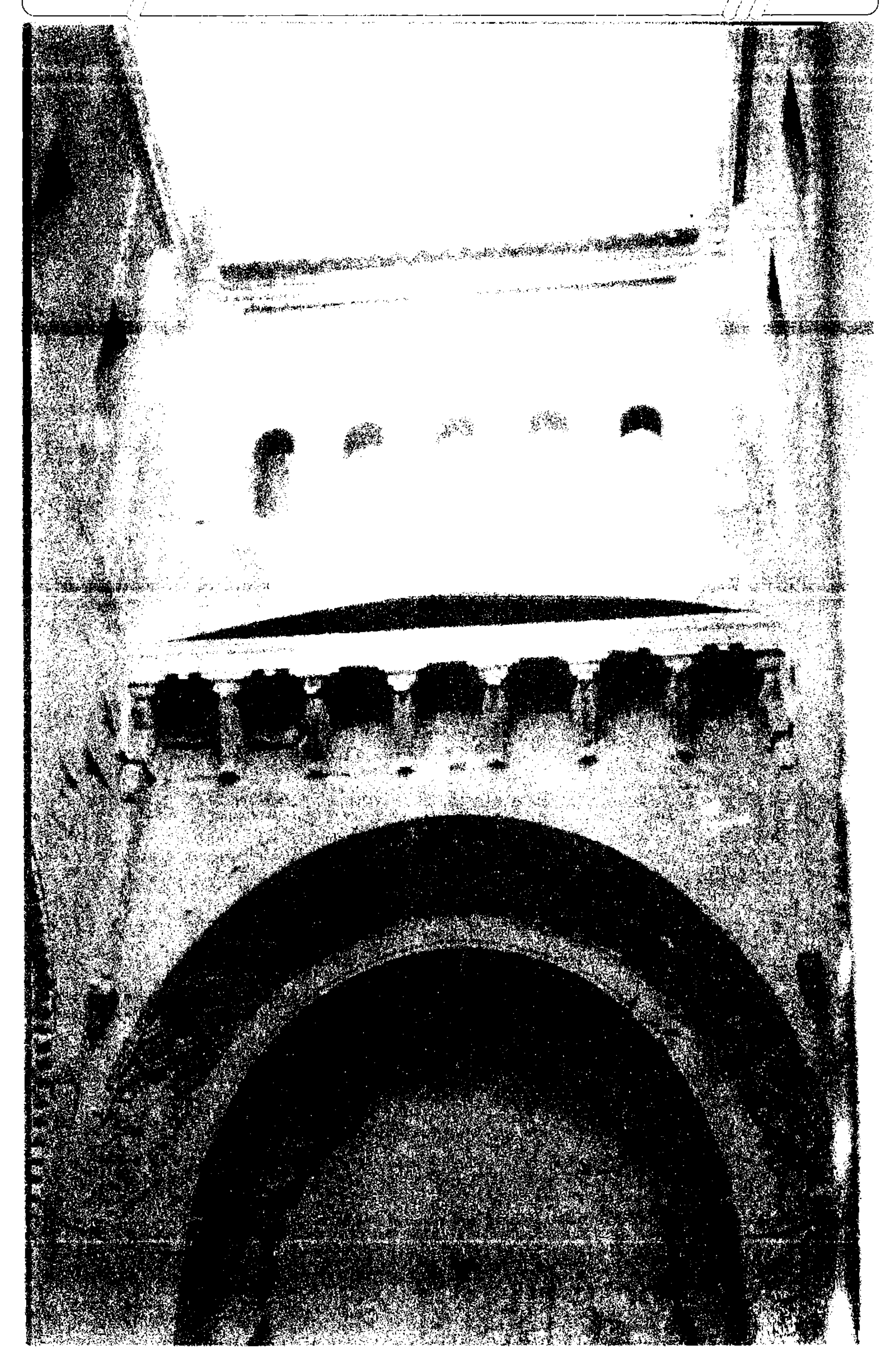
باب زويلة



باب النصر



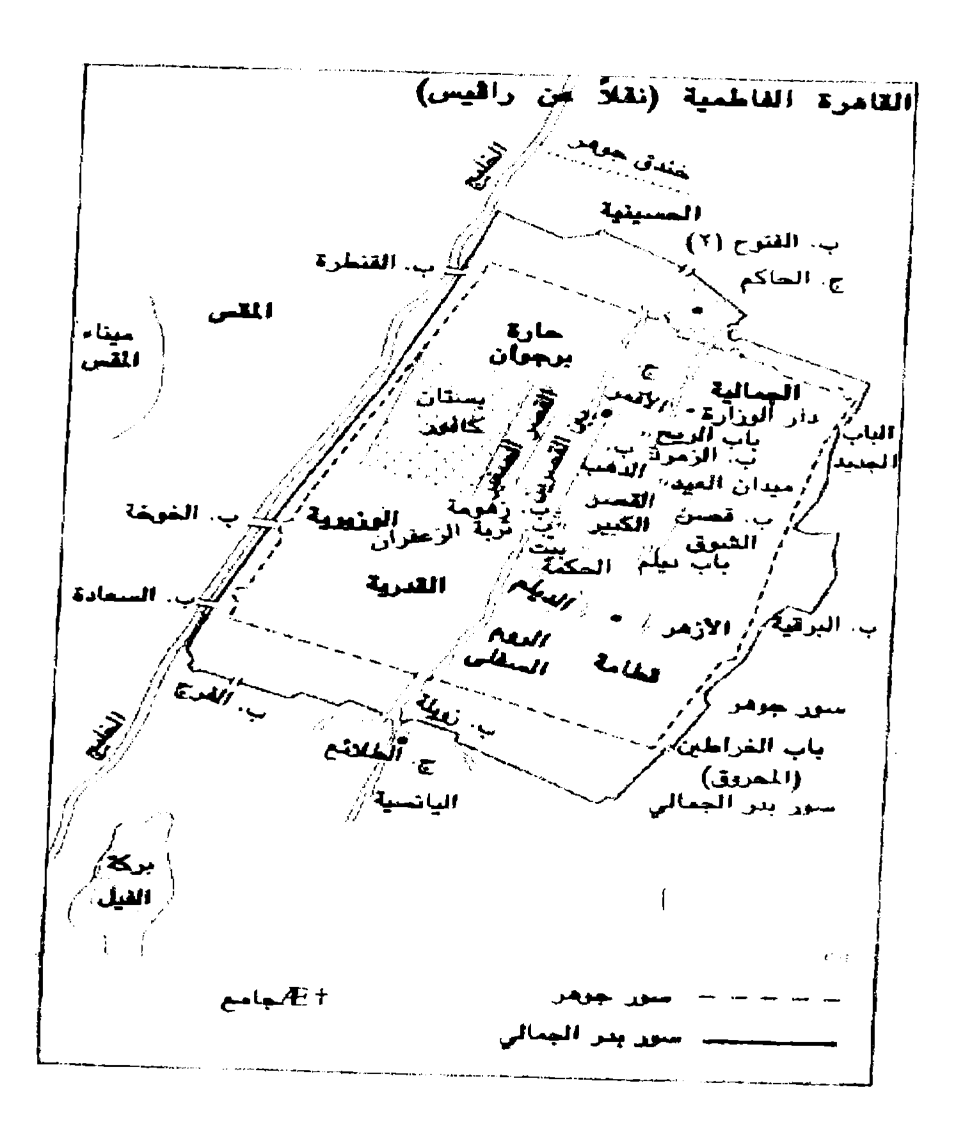
أسوار القاهرة



لوحة تاريخية تشير إلى بناء بدر الجمالي لجامع العطارين في الاسكندرية.

حسن عبد الوهاب، المساجد الأثرية، دار الفكر، القاهرة ص ٧٥.

خارطة القاهرة، ويُرى فيها بعض انجازات الأسرة الجمالية ومنها: باب الفتوح، دار الوزارة، سور بدر الجمالي...



اندريه ريمون، القاهرة تاريخ حضارة. ترجمة لطيف فرج، دار الفكر، القاهرة ١٩٩٤، ص ٣٥.



باب زويلة ٥٨٤ هـ / ١٠٩٢م

صالح لمعي مصطفى، التراث المعماري الإسلامي في مصر، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٤، ص ٦٥.

الفهرس

الموضوع | الصفحة

تمثل الدولة الفاطمية محطّة هامة ودورًا محوريًا في تاريخ العالم الإسلاميّ، يتجلّى ذلك في المجالات الحضاريّة والثقافيّة والسياسيّة.

يهدف هذا الكتاب لدراسة جوانب رئيسية من حياة الفاطميين، وبخاصة ما قام به الجماليون (الجد، الأب، والحفيد) على أكثر من مستوى وصعيد.

سعت الأُسرة الجمالية، بما امتلكته من نفوذ وسلطة للاستحواذ على مقدرات الفاطميين، مستغلين ضعف الخلفاء وغلبة أجواء الفتن والاضطرابات، فقاموا بما يُشبه الانقلاب، فحكموا الدولة بمفردهم قرابة الستين عامًا.

ISBN 978-614-404-032-4

